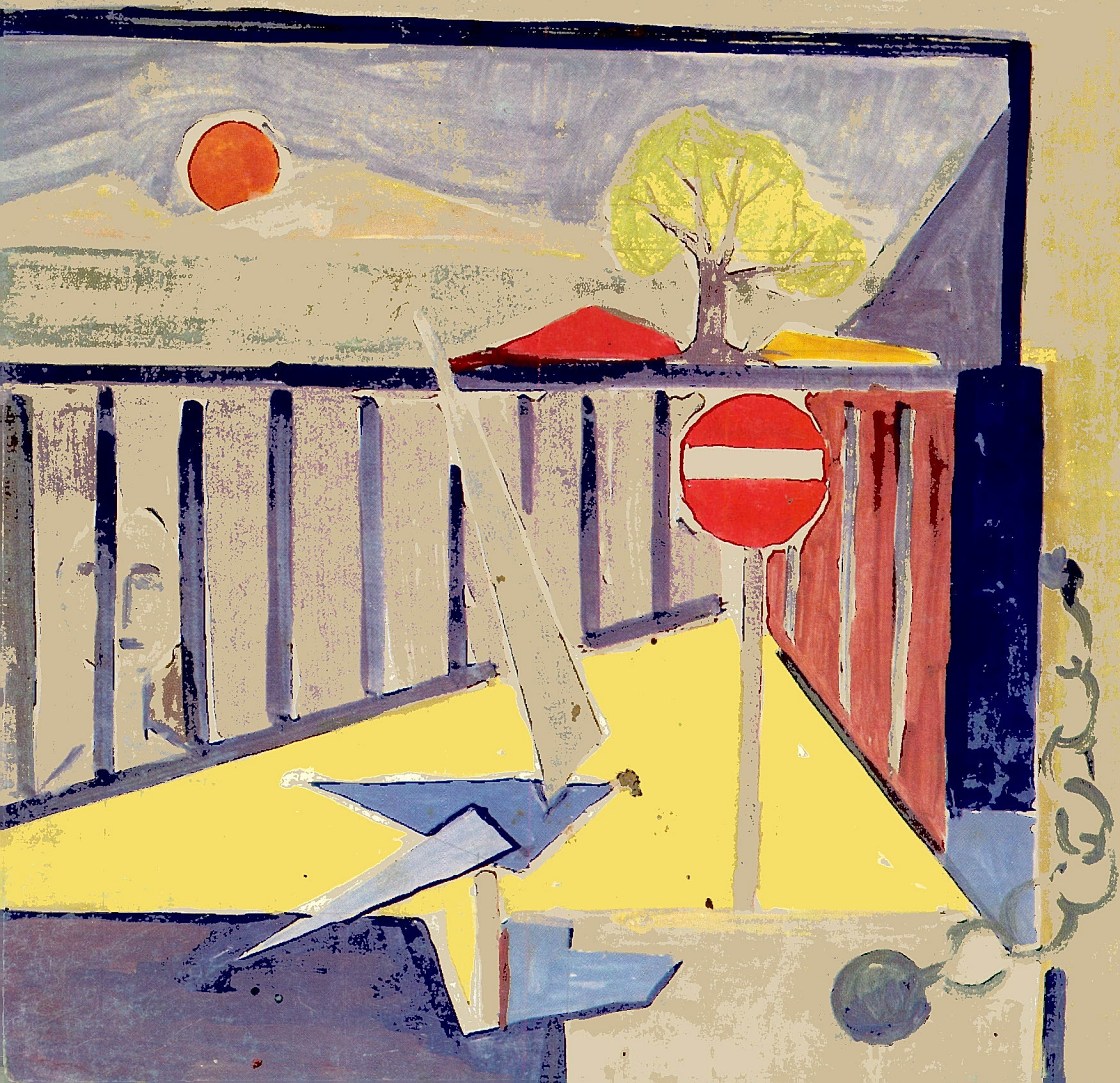


سمیر نفاش

الرجس رواية



سمیر نفاش

الزحس

לוحة الغلاف بريشة الفنان صالح نقاش
ציור העטיפה מאת הצייר דרור נקאש

الجنس

رواية

بقتلم سمير نفاش

الطبعة الأولى

١٩٨٧

השיקוץ

רומן

מאת: סמיר נקאש



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
כל הזכויות שמורות למחבר

عنوان الكاتب

SAMIR NAQQASH
SALIH SHALOM ST. NO 11 - 4
49301 PETAH - TIQVA
ISRAEL
TEL: (03) 9324259

الفصل الأول

الصمت.. الظلام.. العاصفة.. والبرد. اما النور فكان موضع شك عميق. منذ ان دفعونا الى هذا السرداب العتم، فرضت هذه الاشياء وجودها. ان المرء يمكن ان يضيع في دهاليز هذا السرداب. متاهة.. متاهة حقيقية. سجن ولا سجن. والضوء الشاحب المطل برأسه من السقف لا يمكن ان يخلق نورا حقيقيا. كل ما يمكن ان يصنعه هذا الضوء، هو تحويل تلك الموجودات الحامدة الى اشباح شبه مخيفة. كان ثمة مقصورات قاتمة ضيقة، اقرب بأبوابها القضبانية الى الزنانات. ولما كانت هذه الابواب مفتوحة على مصراعيها، فأن الاحساس بمعنى الزنانة قد خفت وطأته. وكان من العبث ان نطلق اسما على هذه الاقبية القاتمة العفنة. انها مجرد خلايا. قناطر تربط بين ماض ميت ومستقبل يحيق به الضباب. وبين ذلك كان على المرء ان يحيا لحظته في داخلها بغموض قاتل، يحياها معانيا، مواجهها تجربة من تجارب الالم الحادة. ان كل ما بوسع هذه الخلايا ان تفعله، هو ان تضع الانسان في مواجهة نفسه برهة من الوقت، بعد ان تحيل هذه النفس الى فتيل قابل للاحتراق، او الى سيجارة مهملة احتك بطرفها عود ثقاب مشتعل، فلا تملك الا ان تنفث الدخان في تلقائية مخزية، وتكدسه غمامات غمامات مهمتها الاساسية ان تحجب صفاء الاشياء وان تنشر الغشاوة في لا عمدية قذرة.

وكان علينا ان نختار، بين صمت مطبق، واحدة من هذه الخلايا او المقصورات او الزنانات، كي نمضي فيها ليلتنا. فقد انزلونا الى السرداب ثم اختفوا. قالوا من غير ان ينبسوا بحرف واحد، ان هذا السرداب، هذه المتاهة هي بين ايديكم. وانكم احرار بدخلها، وانتم من ثم تملكون الاختيار. غير انني منذ ان تجولت بين ارجاء السرداب، مقت هذه الحرية التي فرضوها علينا فرضا. فهذا الامتياز المسمى بالاختيار الذي اعطى لنا بسخاء لم يكن فيه ما يجدي. كانت الخلايا متشابهة كلها، باردة كلها، عفنة كلها، مظلمة كلها، خاوية كلها. وكانت مهمة الاختيار في هذه الحالة عقيمة ولا تعدوا ان تكون نوعا من خداع النفس. تمرقت من ثم، بين احساسين متضاربين.. بين ان ادين

لهؤلاء على الحرية التي وهبها لنا بعد ان اشرفنا على نسيانها لطول امد الحرمان، او ان احقد عليهم، لانهم وضعونا امام هذه المهمة الشاقة. فقد كنت افضل لو انقذونا من حيرتنا وحددوا لنا الخلية التي سنمضي فيها ليلتنا تلك.

وكان منظرنا كما تخيلته، قد اكتسب هو الآخر بعد ان اصبح جزءا من موجودات هذا السرداب الكاشفة عن ذاتها من خلال ضوءه الخافت، كثيرا من الشبيهة المخيفة. ورغم ان وقتا طويلا قد مضى علينا دون ان نواجه مظهرنا من خلال المرآة، فقد كان يكفي ان نلمس وجوهنا لندرك، ان شعور ذقوننا قد بلغت من الطول ما يضاهي شعور رؤوسنا التي كانوا يجثونها كل شهر تقريبا. بيد ان هذه اللمسة كان يمكن الاستغناء عنها كذلك. فبمجرد ان احدنا كان يلقي نظرة الى وجه الآخر، فأن صورته ذاته كانت تنطبع في مخيلته قبل ان تتجه ابصاره الى شيء آخر جديد. كانت الامنية الوحيدة التي يمكن ان تراودنا في هذا السرداب، هي ان نبقى في منأى عن أعين الناس. اذ لم يكن ثمة من شك في ان من سيرانا سيشعر بالنفور والتقزز. والى جانب هذا، فأن الصرتين اللتين كانتا تضمان ثيابنا الداخلية، اللتين تعودنا في الاونة الاخيرة ان نحملها خلال تجوالنا المضني واللائهائي، وراء ظهورنا ممسكين بعقدتيهما من فوق اكتافنا، قد ساعدتا ايضا على تشويه صورنا، فقد كنا نبدو ونحن نحمل هذه الصرر الحقيمة وكأننا متسولان او مجرمان.

وجدنا انفسنا بعدئذ، ومن غير ان نتبادل كلمة واحدة، في اقرب مقصورة الى المرحاض. فقد تعمدوا اضاءة المرحاض اضاءة كاملة، وكان بحد ذاته نظيفا ولا تنبعث منه رائحة كريهة بحيث يمكن الظن ان عامل التنظيف قد فرغ من غسله قبل وصولنا الى هنا بوقت قصير. وثمة مغسل بدون مرآة. فالمرآة يمكن تحويلها بسهولة الى آلة حادة تساعد على ارتكاب جريمة، ولهذا فهم يتجنبون مثل هذه الاشياء بدقة عجيبة. كنا الان في ضمن تلك الاشياء مجتمعة. ما ان دخلنا المقصورة وارتمينا على الدكة الاسمنتية، حتى فتحت لنا اذرعها. عانقتنا بشيء اكبر من الحرارة.. شيء كاد ان يكون اعتصارا جامحا. استشففنا من خلال ذلك الشيء روحا عدوانية صارخة. كانت جميع تلك الاشياء حرة.. متحدية ومقتحمة. قد يخيل للمرء في لحظة عابرة انها مثلنا في حريتها الطائشة، ثم لا يلبث ان يكتشف ان كل ما كان من حريتنا المزعومة، قد وقع في قبضة هذه الاشياء المعتوهة. لقد كنا ضحاياها. واوشكنا ان نعتقد انهم اطلقوها في وجوهنا بقصدية خبيثة بعد ان مسخوها الى شياطين مرعبة وخلقوا لها انيابا ومخالب وسحنات دميمة.. بعد ان صيروها عصارة الرعب. وكان البرد ذروة هذا الرعب. لم استطع ان اتخيل كيف يمكن ان تسقط الحرارة حتى الدرك الاسفل كي تخلي مكانها لهذا البعبع. البرد في هذه المقصورة كان بعبعا بالفعل. وكان الوحيد من بين تلك الاشياء الذي لم يكتف باعتصارنا. اذ سرعان ما ادركنا انه شيء مكتسح. كانت مخالبه النافذة تخترق لحومنا وعظامنا وتستقر عميقا في السمح. دودة تنخر داخل العظام بلا رحمة. وانكمشنا على

هذه الدودة. ولم يكن ثمة فائدة.. والأرض العراء تنفث سمومها الصقيعية المخترقة كالشعاع. لا شيء يعترض سبيل هذا الشيطان.. لا شيء يقف في طريقه. وضع كل منا صرته وجلس عليها. وتجمدت الصرتان وتجمدت معها المؤخرتان، وتجمدت في الوقت ذاته كل شيء. وكان قريبي يصر على الصمت. حاولت استدراجه الى الكلام عبثا. جدقت في وجهه على انعكاسات النور الميت، فتحطم بداخلي بعض الجمود. فزعت.. ظننت على ضوء تجربة ماضية ان صمته من ذلك النوع الخبيث المستر على معاول شيطانية ترتفع الى قرص الشمس كي تدمره. واقترب الليل وتفاقم الصقيع. والشمس لم يعد لها اثر. انها الان وراء الافق.. دائما كانت هذه الشمس ضائعة وراء الافق او خلف السقوف.. منذ ستة شهور وهي ضائعة، ولكنها رغم هذا كانت في مخيلة هذا التافه موجودة. وامتزجت رعدتا البرد والفرع، فلو حطم هذه الشمس، فأن الاشياء كلها ستموت. كانت هذه الفكرة غائبة عن الوعي. الان تعود وتنتفخ وتستحيل الى جوزة صلبة، لتتهتز بين اشدق الصمت والبرد، وتتذبذب تحت انياب تحاول ان تطبق عليها كالكماشة، ثم لا تلبث ان تغلت من اسارها، بيبضاوية، فولاذية، مغضرفة.. منتصرة.

قمت فتجولت قليلا خارج المقصورة. أوقفني البرد اللانهائي عند حاجزه السميع. حاولت ان لا اكون قطعة منه. بشقي الطرق حاولت. ارتفعت ياقة الرداء الى العنق وتطبقت الازرار وتقلص الجسد.. كل شيء فقد مفعوله الا سحنة ذلك القريب والفكرة المدمرة. وعدت اليه. ومرة اخرى حاولت جره الى النطق. في الاونة الاخيرة عادت الي مشاعري الطيبة نحوه. فذاكرتي كانت تعاني من داء خبيث. كان ثمة اصبعان تهيمنان على هذه الذاكرة.. اصبعان خرافيتان الهيئتان. احدهما تنقش كل ما دعوته احسانا.. تحفره عميقا كأنها على لوحة من الصخر، والاخرى تمحق السيئات. تمتصها كما تمتص الاسفنجية السماء.

الان، ولأول مرة اعتصرت هذه الاسفنجية. كان الهاء قد جف، بيد ان بعض القطرات رشحت من الاسفنجية. وكانت هذه القطرات هي الثقة.. الثقة التي هوت ذات يوم.. وايقنت في هذه اللحظة انها لا تختلف عن القطعة من الفخار. وبحلقت في عينيه وانا مبتلع مثله في جليد المحيط القطبي، فتفسخت قطعة أخرى من هذا الجليد. عيناه الكبيرتان كانتا تعكسان هذه الثقة الضبابية المشوهة وتعيدان للشك اطرافه ورأسه وساقيه. وصرخت

- «انك تحقد بي كما لو كنت انا السبب»

قال هامساً

- «إنه البرد. شيء فظيع هذا البرد..»

- «وأنا؟.. اتعتقد اني اتمتع ضده بالحصانة؟..»

فهتف كمن لا يشعر برغبة في الكلام

- «دعني.. دعني وشأني ارجوك..»

كلا. انه واجم وانا لم اعد اثق بوجومه. منذ ان بدأ يخفي عني الرسائل التي تصله من شقيقه، بدأ الشك. ومنذ ذلك الحين اخذ يساوره الوجوم. لم اكن بعد اعلم بما يضمه هذا الوجوم. ولكنه في تلك الليلة، عندما حاول ان يرتكب فعلته القذرة تحول الشك الى يقين.

- «اتراك تفكر في خنفي ثانية؟...»

اقتلعه هذا السؤال من وجومه وخموده، وشتت افكاره التي رهبتها. قام فجأة. عيناه الواسعتان فقدتا ذلك الشعاع من الرعب واصبحتا خائيتين. صوبهما الى وجهي في محاولة شبه يائسة ليتقيا عن طريقهما الاحاسيس التي اثارها في نفسه هذا السؤال. وعندما ايقن ان محاولته قد اخفقت، اعتراه نوع من الغيظ المتخاذل. قال اخيرا وهو يهبط بعينه الى الارض الاسمنتية الباردة

- «انك تهذي.. لا ريب ان روعة المكان تجعلك تهذي. يا للملاعين!!»

وخطوت خطوتين ثم توقفت

- «كلا.. انه ليس الهذيان.. بل هي الاعراض التي توسمتها فيك قبل ان تحاول خنفي..» لاحظت على وجهه صرخة من الالم، فأوشكت على التراجع. لم اكن انوي تعذيبه. كنت في امس الحاجة اليه والى «كلامه». لقد كان ينبغي ان نحارب الشياطين التي تحاصرنا من كل جانب. وكان سلاحنا الوحيد هو الثرثرة. اما اصراره على الوجوم والصمت فقد كان يقذف به الى الطرف المضاد ويجعله حليفا لهذه الشياطين الدميمة. وكان علي ان ادافع عن نفسي.. ان انقذها من وحدتها على الاقل.. ان اقاوم العدم والرعب والالم في همة تكاد أن تكون استماتة، وفي ظرف لاقى فيه الاشياء حتفها.. ماتت كي ترقص على اشلائها الاشباح. لم يكن ثمة غير اللحظة القادمة. وكان يخيل الي انها تسقط في جب. تتأخر عن ميعادها في لا ارادة تعسة. وكنت افكر في وسيلة تمكن من انتشالها من هذا الجب، كي تواصل مسيرتها على خط الزمن جارة في اعقابها المزيد من اللحظات الموحشة الباردة. وعدت انظر اليه. وكان يعود فيرتمي على صرته المتجلدة ويدفن رأسه بين يديه ويسلم ذاته لمخالب البرد

- «ما زلت تصر على الصمت»

- «لا شيء يوحى بالكلام»

وقاومت رعشة فكي وانا اقول

- «سنموت لو لم نتحدث.. لن ينقضي الليل على هذه الحال»

فرفع رأسه الي وكان حزينا

- «انك لا تتكلم الا عن تلك الحادثة»

رغم كل ما بي استطعت ان افهقه. رجعت قليلا الى الاشياء الميتة. شاهدت وانا اقطع المقصورة الضيقة جيئة وذهابا في شبه وعي، قبضة خشنة متصلة تتحرك في الظلام.. تبحث عن شيء ما.. وعندما تعثر عليه تنبسط.. والانامل تتحول الى اذرع

اخطبوطية وتحاول ان تلتف حول الفريسة. صرخة يعقبها جلبة. عشرات من الجثث الحامدة تدب فيها الحياة.. تنتصب واقفة على اقدامها. والظلام ينقلب نورا.. لقد افلتت اللحظة من الجب ومقرت، ترى متى تأتي اللحظة القادمة؟! قادتي خطوتي التالية اليه. امسكت بكتفيه اللتين تراءتا بلا رأس، وهزتهما بعصية - «كيف تجرات على ذلك؟.. قل لي كيف تجرات؟»

وعاد الرأس وتوسط كتفيه. ولاحظت انه يحاول الافلات بعينه الى أي شيء من اجل ان يهرب من شيء واحد. وكان هذا الشيء وجهي الذي غصنته الاشباح المريدة. وكان مضغوطا بين دفتين قويتين غير مرئيتين. - «ألف مرة قلت لك انني كنت احق ومغفلا»

تركت كتفيه وتراجعت اما عيوني فلم تكف عن النظر اليه. النافه.. انه لا يختلف عن الكثيرين في التسمويه وخداع النفس. لقد كان مستعدا لان يلصق بنفسه تهمة الحمق والغفلة. اما الحقيقة فكانت اقصى وامر. السنتان اللتان تفصلان بيننا لم يكن فيهما ما يغير هذه الحقيقة. لقد اكتشفتها حين كنت الاحقه في السمقاهي لاجده متلبسا بهذه التفاهة. كم من مرة انتزعت من بين شفاهه الكأس الدموية وقذفت بها الى الارض؟!.. كان يطرق وهو يرى الشراب الاحمر يضيع في ذرات التراب، يسكر الارض المكلومة بشظايا الكاس المهشمة. اما اوراق اللعب فكانت تتناثر بعصية.. ووهج القطع المعدنية يعود ليتوارى في جيبه. وهو موزع بين اغراء وهج النقود المتضائلة وانقاذه من الغواية. دائما كان يبهره الوميض.. تالق الاشياء كان يسرق شخصيته.. يحيله الى قطعة من ذلك الوهج الزائف الدنس. وتتابع الان الخطوات الطائشة.. وقهقهة اخرى تفضح الحقيقة.

- «كلا.. انك ضعيف ومنذفع.. والرسائل كانت تنفث السموم. لقد تشربت بهذه السموم.. كنت ستمسي جريمة.. حتى العاقبة لم تحسب لها حسابا..»

- «كفى.. كفى»

- «والكلمات المشيرة تفتك بشخصيتك.. تجعلك تتنكر للحقيقة وتشور على المقدسات.. تغدو عدوا لنفسك..»

- «قلت لك كفى».

- «انك لا تفرق بين الوهج الحقيقي ووهج الزيف»

- «سأقتل نفسي اذا لم تكف».

تناهى الى صوت نشيجه فتخاذلت. الان لم يكن التراجع مجرد محاولة. قربت صرّتي منه وجلسنت الى جانبه

- «اني آسف.. كنت مضطرا.. في هذه الشهور الستة دفنا في اعماقنا اكثر من شيء واحد. والكثير من الاشياء التي لم تمت بعد، ما زال يحتضر بداخلنا. وما يحيط بنا فظ وبشع.. ولا ينبغي ان نستسلم ابدا»

- «البرد يشل افكاري ويقبض على لساني»
- «لا بد ان نتكلم. سنضيع لو تمسكت بهذا الصمت. بأي شكل من الاشكال سنضيع.»
- «كم الساعة يا ترى؟»
- «منذ اخذوا ساعاتنا لم يعد ثمة زمن.»
- «اتعتقد انهم سيعيدونها لنا؟..»
- «قد تكون معطلة في احد الادراج او ربما التفت حول معاصمهم سرعان ما اوليناهم
ظهرنا»
- قال بسخط شديد
- «الملاعين.»
- «كلا.. ثمة امور اهم بكثير.»
- «لا يهمني غير ان ينقضي الوقت بسرعة.»
- «اما انا فاشعر بالجوع.»

رمقني بنظرة استغراب واحتجاج. كانت نظرتي تجاهر بجنوني. اكتفيت طوال الشهور الماضية بأسوأ أنواع الخبز. وعندما اجتاح جسدي الجفاف اضطرت الى مشاطرته نقود اخيه التي كانت تتحول الى طعام. اما هو فكان يلتهم كل شيء. طعام السجن العفن المليء بالسوس، والطعام الذي كان يشتريه بنقود شقيقه.. وحتى الطعام الذي كان يمن به علينا بعض النزلاء. الان تنكفي الامور على رأسها وتستحيل نقيضا،
قال رغما عنه

- «ما زال لدينا بعض طعام الصباح»
- «افضل الانتظار. فقد يقدمون لنا عشاء، ومهما يكن فلن ننام ببطون خاوية.»
- لاول مرة انتزع ضحكة، اغلب الظن انها زائفة وقال
- «ذلك، اذا استطعنا النوم في هذا الجحيم البارد.»
- كانت مؤخرتاي تستحيلان الى قطع زجاجية وتفقدان الحس. وكان لا بد من حركة. استندت براحتي على الارض وقفزت. اما هو فكان يفضل الاستسلام. راقبته وهو يعود فيحشر رأسه بين ساقيه ويغطيه بذراعيه ثم ينكمش ويرتعد كل ما فيه. ولم أجد رغبة في وضعه امام نفسه مرة اخرى، فتحاشيت مجابهته بدهشتي من استسلامه المطلق الذي لم يعرف حدا، واقتربت من جدار المقصورة. كان على الجدار كلمات محفورة بالازاخر تسب الحكومة. وثمة كلمات ثورية فقدت قابليتها على بث الدفء في الاوصال المقرورة. قرأتها من اجل ان اتخلص من لحظة اخرى. واذا بصوته يتناهى الى
- «انهم يفتحون الباب.. قد تكون امنيتك في الطعام قد تحققت.»
- ارتد اهتمامي الى تلك الناحية بسرعة فأدركت الصرير المتراجع للباب قبل ان يطبق ثانية. ثم سمعت صوت استدارة المفتاح داخل القفل في دورتين متعاقبتين. ترامى الي من ثم، قرع اقدام تهبط السلم بتؤدة. كانت النبرة التي يحدثها وقع الاقدام

على السلم خافتة، متباطئة، وخاملة. شيئاً يثير الفضول والاعصاب معا. لقد كان من السهل جداً ان تثور الاعصاب لأقل حركة في وضع تفتت فيه الاستقرار وتفسخ. اتجهت الى فتحة المقصورة وحولت اهتمامي يسارا في اتجاه السلم. وكان وقع الاقدام يتوقف ثم يواصل الاقتراب. واخيرا، ومن خلال الظلام النصفى.. وجدتهما - «الطعام؟» -

كان وعيي الان موزعا بين الرد على سؤاله ومتابعتها، لأن الآخر لم يكن يمشي. مجرد طفل رضيع تحمله على كتفها، واتضحت معالم وجهها وهي تقترب تحت الضوء الميت رويدا رويدا. لاحظت انها لا تمر بتجربة الاختيار المضنية التي قاسينا منها قبل ان نعثر على مكاننا، ولا تعاني من التخط. كانت قدماها تقودانها في خط مستقيم الى المقصورة المقابلة لمقصورتنا.

فكرت في انها ربما تكون واثقة من نفسها أو يائسة تماما. وعندما كانت في محاذة المرحاض انبلجت طلعتها تماما. شابة جميلة تنتشر على محياها ظلال حزينة. وفضلا عن ذلك فهي فارعة الطول، ثيابها ايضا طويلة، زي اغلب الظن أنه قروي محلي، أسمال شبه نظيفة أو هي نظيفة فعلا. وعندما اجتازت المرحاض رأيت جديلة غليظة من شعر فاحم كث، تهبط الى اردافها. خاملة مثلها، لا تكاد تتجاوب مع خطواتها البطيئة، فلا تهتز. وكان على المرء ان يبذل مجهودا عنيفا كي يكتشف ذبذباتها التي تشبه الى حد ما تموجات النسيم الراكد.

- «انظر.. هذا هو الطعام.» -

اقتلع رأسه من بين ساقيه وشرع يتتبعها. تتبعتها معه في برهة لم يعد فيها للبرد اثر. لاحقتها وأياه حتى استقرت على الدكة الاسمنتية في المقصورة المقابلة، وجلست. حينئذ بدا لي ان كل شيء في هذا السرداب غريب ومذهل. كانت تلقي الطفل في حضنها اما الباب المفتوح فلا تعيره اهتماما. اربكتني تلك التلقائية الخرساء التي كانت تتحكم في تصرفات المرأة الشابة. وللحظة عابرة بدا لي انها لا تشعر بوجودنا او تتجاهلنا. كانت كالجرعة الجديدة من الصمت المخيم على هذا المكان. كل شيء فيها كان صامتا. وكانت تقاطيع وجهها تشير الى ذروة هذا الصمت. تملكنتي رغبة في ان يصرخ رضيعها كي يأتي رد الفعل ويحطم ذلك الصمت. بيد ان الطفل ظل هو الآخر غائبا في سكون مخيف. والتفت الى قريبي فجأة فتصلب ارتباكي في داخلي وقبع كالعبء الباهظ. ادهشني ان المرأة لم تفلح في تشتيت وجومه فثمة غشاوة من تجهم ما عتمت تسدل على عينيه. في الماضي كانت صورة المرأة توقد هاتين العينين.. تحيلهما الى كرتين ملتهبتين برغبة وحشية مخبولة ثم فجأة فقد تلك الصورة كما فقدتها. شهور طويلة ماتت فيها المرأة مع الاشياء برمتها. الان، تعود في ظروف تكاد غرابتها تكون جنونا.. حقيقة لا يفصلها عنا غير خطوات ثلاث. حقيقة تجعلها الحلوة والحرية قريبة المنال.. تماما في متناول اليد. وجن شيء في اعماقي.

- «كيف يفعلون هذا؟!!»

اصطكت اسنانه وهو يغمغم

- «الملاعين.. الملاعين..»

لاحظت انه لا يكف عن ترديد هذه الكلمة. ازعجني حقه عليهم الى هذا الحد. كنت اتوقع ان يعاملونا بشكل اكثر قسوة ولكنهم لم يفرقوا بيننا وبين ابناء هذا البلد الذين يصلون لسبب ما الى هذه الامكنة. هذا رغم اننا من «الجانب الآخر» وموسومون بالكلمة المفضوب عليها «الاعداء». ولم يكن في ضراوة هذه الليلة ما ينال من حقيقة انهم عاملونا برفق، ربما لصغر سنينا، او لان كلمة «العداء» لم يكن تأثيرها على انسانياتهم تأثيرا حقيقيا. قال لي احدهم يوما انهم لا يكونون للذين هناك اي حقد او عدا، ثم سألتني كما لو كنت نبيا، عن حقيقة مشاعر الطرف الاخر. قلت وانا اواصل النظر الى التاج الذهبي المتألق على كتفه «انهم لا يكونون لكم الا المشاعر الطيبة» ثم بعدها غرقت في الالتباس. فكرت طويلا في مسألة مستعصية على المنطق، «اذا كان الطرفان متفقين حقا على ان العداء كلمة جوفاء، فعلام اذن تسفك الدماء وتزهق ارواح البشر؟!!» انتبهت الى وجود الشخص الثالث فانقشعت الهواجس في اقل مما تستغرقه اللحمة العابرة. كان الشيء المجنون في قرارتي يهتك ضباب الذكريات السخيفة، يسقطني وراء اللحظة التالية دون ان يكف عن المقاومة. ثمة عوائق كان يجب ان تتلاشى من اجل ان يصبح هذا الجنون مطلقا. ورغم أن البرد اخذ يتفاقم، فقد خيل لي ان قريبي هو اول تلك العوائق. ارتددت قليلا ثم قذفت وعيي في اتجاهها لمقد كنت اريد ان «اعدمه» عن قصد كي تبقى وحدها. واستفزني شيء فيها نصح في جنوني عاصفة من الجبروت. كانت ثديا مشرعا. اما انا فغدوت قطعة من شهوة عرمة طائشة. مزقتني الدوامة. في الداخل كانت تحتدم بعنف هنجي. اما في الخارج فكان الجمود ما فتى يزيف الاشياء. حاولت ان اعثر على حركة.. حركة من الخارج غير دفقات القلوب وترجيع الانفاس واعتلاج القرارات. قدرت ان مثل هذه الحركة لا بد وان تكون موجودة هناك عند الثدي. فمن المؤكد ان شفتي الطفل كانتا في حركة انقباض وانبساط مستمرة حول الحلمة التي تطبقان عليها بشراهة. ومن المؤكد ايضا ان سائلا ابيض كان ينساب من الحلمة الضائعة في الفم الصغير مع كل انقباض شفة، ثم يسقط هذا السائل في الجوف الصغير كما يسقط رذاذ المطر. وفجأة احسست بالانتصار. ثمة قطرات خائرة طفحت من الفم الصغير، واحاطت حول خاتم الفم والثدي ثم تكاثفت وهوت على الارض. لقد وجدت الحركة اخيرا. وكان يمكن لقريبي ان يشهد الان لو رفع من بصره، حركة اخرى على مقربة منه. وكان بمقدوره لو استعان بقليل من الذكاء ان يميز بين رعشة البرد وهذه الرعشة ولكنه لم يكن موجودا بالمرة. كنت موقنا من انه يدفن وجوده اما في ماضٍ وهي او في مستقبل خرافي، ليغيب في طيات اسطورة ماردية تكتسب ادراكه وتفقد تأثير قوة الاشياء الموجودة. تملكني الغيظ من ادمانه على تعشق البريق المكنون في

اللاشيء. الشهور الاخيرة اصلت هذه الداء فيه وجعلته مستعصيا. فجأة تراجعت عن فكرة «اعدامه». اذ لم يعد يهمني ان تكون «المراقبة» قدر ما كان يهمني ان اعيده الى نفسه. عاودتني الرغبة في ان يتحدث. الان كنت اريد ان يشاطرنى الحديث عنها فالجنون كان عملاقا.. رعبا مدمرا.. وتشابك كل شيء.. الثدي.. الشهوة.. الاشياء الميتة والمحتضرة.. وكذلك الاشياء التي ولدت حديثا. والتفت اليه وخط متين يشدني اليها. وعدت اتساءل

- «كيف يفعلون هذا؟!.. كيف يفعلونه؟»

فقال بحق ارتسم في عينيه

- «مثلها تركونا تحت رحمة هذا الانجماد، دون فراش، دون غطاء، دون وقاية..»

- «ليس حالنا اسوأ من حالها.. والرضيع المسكين اعجب كيف يقاوم؟»

- «لا يهمني الآخرون»

- «لا فائدة طالما انغلقت على انانيتك».

- «ماذا تراهم سيفعلون بنا بعد هذه الليلة الفظيعة؟»

دمرني الحق. حداثته بنظرة محتقرة. لقد كان يخوض في متاهات الزمن ليستكشف خرافة المستقبل. اتضح الان انه كان منطويا على انانيته وعلى ذلك الشيء الخرافي البعيد. اوشكت ان اصدق ان من العبث استدراجه الى هذه اللحظة، فحين يفكر الانسان في مصيره المكنون عبر الزمن، يفقد الاشياء الكائنة. اما انا فقد كنت مقتنصا في حائل اللحظة الكاشفة عن ذاتها. تطاير النظر مرة اخرى الى تلك الناحية. كان الطفل قد كف عن الرضاعة وتحول الى احضانها من جديد. وسكوته الخارق للعرف يثير شكوكا غامضة. اذ لا يمكن ان يتبارى الاطفال مع الوقت على الصمت بمثل هذه الارادة العجيبة. تناهت الى رأسي على حين غرة خواطر مخيفة. هل يكون الطفل مجرد جسد بلا روح؟.. هل يكون دمية.. دمية من المطاط مهمتها التضليل؟.. ولكن الاموات والدمى لا ترضع. الان كان ثمة حقيقة جديدة تحترق الافكار المخيفة وتشقها. الثدي.. كان لا يزال مشرعا، منتفخا، بضاً، رغم انتهاء مهمته. رغم ان الطفل قد نام او مات او تحول الى دمية. ولم افهم من هذه المعميات شيئا. كل ما ادركته اني اوشك في هذه اللحظة على ان اغرق في جنوني الداخلي. لقد كان يغلي.. يطفح.. يفيض داخل الرأس فيتواري تحت لجته العاتية، الصواب.

- «من تكون؟!!»

- «عاهرة على الارجح»

- «ماذا تفعل العاهرات في اقبية الامن العام؟!!»

وصمت فعاتت بي الذكريات من جديد عبر شهور خالية..

.. محكمة..!!

وقال الصوت الجليل المهيب برزانة:

.. حكمت المحكمة العسكرية في..

- «ماذا تراهم سيفعلون بنا؟»

- «لا تستبقي الاحداث، كل شيء سيقع في حينه..»

.. على كل من..

- «لا تستطيع.. لقد سئمت كل شيء. اريد ان اعلم ماذا سيصنعون بنا»

وضقت به ذرعا فهتفت

- «انت تعلم وانا لا اعلم اكثر مما تعلمه انت.. فماذا تريد مني»

.. بالسجن مدة ستة اشهر ثم تسليمها الى الامن العام..

- «بماذا تفكر اذن؟»

- «ماذا تصنع العاهرات في سردايب الامن العام؟!!..»

فصاح بجنون

- «انت ما زلت تفكر بها»

- «لن تستطيع التخلص منها اذا كنت تعيش لحظتك حقا»

- «دع الليلة تمر بسلام»

- «انها حقيقة ونحن احرار»

- «لا.. هي شرك اعدوه لنا لنسقط في احابيله ولا نخرج من الهوة ابدا»

- «انك مهووس»

- «ماذا تريد ان تفعل؟..»

- «كل ما استطيعه كي احارب الجوع»

- «لدينا بقية من طعام الصباح»

- «الطعام.. المرأة.. كلاهما واحد. وهي لم تعد وهما يمضغه الخيال. انها حقيقة..

حقيقة»

- «امنعك من ان ترتكب حماقة»

- «لا تستطيع ان تتحدث عن الحماقات بعد ان الصقتها بنفسك»

- «بكل ثمن سامنعك»

تهاويت الى جانبه بعد ان عدلت عن جداله. نظرة اخرى افلتت ناحيتها. الوضع لم

يتغير والثدي البارز يثير المزيد من الجنون. حملقت في واجهة الصنم البشري. الصورة

الجميلة المتجمدة التي تحرث كل خبايا النفس. لقد كانت لغزا لا يمكن اقتحامه. في

هذه المرة لم يقنعي على التراجع. كل ما في الامر اني تحاشيت الدخول في مشادة

حقيقية. كنت واثقا من ان شيئا ما سيحدث لا محالة. فالدوافع كانت متوفرة باسرها.

وامتزج الم حاد بالجنون العاصف وانا اترجع الى الاضربة القديمة والحديثة معا كي

انتزع منها الحوافز المقنعة. توقفت عند موت الاب. حدث ذلك منذ سنة. كلا بل منذ

سنة ونصف. الشهور الستة الاخيرة تسقط عن الحسابان دائما. ولكن الجرح كان عميقا

ومتقيحا. لم يكن بي رغبة الى استعراض التفاصيل. اللون الغامق طغى على التفاصيل وسرى الى الاحداث التالية سريان النار في الهشيم. يومها كنت كالزق الذي سكبوا ما فيه وتركوه خاويا فتمسكت به.. بقربي هذا تمسكت تمسك الغريق بالقشة. كثير من الامور القائمة المعقدة لم تستطع ان تحول دون صداقتنا. كان لابد من ملء الفراغ ولو بخيوط العناكب. الحديث عنهن كان يلتهم اوقاتنا. وفي الخامسة عشرة او السادسة عشرة يكون الانسان في اوج سني المراهقة اما هو فاكبر مني بسنتين ولذا فقد كان في شؤنهن اكثر واقعية. كان يقتنص الواحدة تلو الاخرى. شهوان بالوراثة. لا يقابلهن الا في الظلام والخلاء. وما ان يقابل احدهن حتى ترتفع اناملها الى صدرها ثم تهبط الى اسفل بشكل ارتجالي. بعد ذلك حدثني عن الصبية التي اصطفاه واجبها. يوما يوما كانا يتقابلان قبل الفجر. في الرابعة صباحا على وجه الحديد. وتحت ظلال شجرة اكلبتوس وارفة، كان ينزعها ثيابها ويدفن راسه بين ثدييها ثم تأتي البقية. حملت من جديد بالثدي المشرع الى قلبي كالمدية. خشيت من ان افقده. وعندما تأكدت من وجوده عدت الى نبش القبور.

تخيلتها.. تلك التي احببتها دون ان نتبادل كلمة. ضاعت مع الاشياء بأسرها. تزوجت. طفلة زوجها من كهل. وتلك امور تحدث دائما. المؤلم حقا اننا لم نتبادل الا النظرات. كنت الاحقا بنظراتي ليل نهار. وكانت هي الاخرى لا تبخل بالنظرات. حتى حين كان يتأبطها ذلك العجوز الذي غدا فيما بعد زوجها كانت لا تستطيع زجر لحظها عني. ومع ذلك كان من الصعب تغيير الاوضاع. قالوا لي انك ما زلت فجا. مجرد مراهق. ثمرة غير ناضجة في عرفهم على الاقل. والثمار الغير ناضجة تبقى معلقة على الاغصان دون ان تثير الاهتمام.

الان خطوات خطوة مصيرية فوق الاشلاء. موزعا بين الثدى والرغبة والالم. اما قربي فكان يبعث على الغثيان بأنانيته وجبنه ووساوسه السخيفة. حافزا جديدا من حوافز الجنون الملتهب. لم يكن هنالك ادنى شك في انه يريد ولكنه يجبن. وهذا الجبن كان يهرب به الى اشياء لا وجود لها كي ينسج منها الاكفان. يعدها لهذه الاشياء الموجودة التي اصر على ان يحكم عليها بالاعدام. وكان ينبغي ان اواجهه مجددا بالاشياء الميتة كي يفرق بينها وبين الاشياء الحية. وتناقلت الانفاس وتخشرت وسمعت ترديدها الرصاصي يتتابع كالخشرجة. واوشكت على حين غرة ان انتزع من رأسه فكرة «الخنق» التي تملأه بأن اطبق على عنقه في قهرية مطلقة. وتحولت الكلمات الى قبضة معتوهة. ونفث الجنون نبراته في القهقهة الساخرة. وهبت زوبعة عمياء مزجت في داخلها كل شيء

- «حاول ان تمنعني ان استطعت»

- «حاول ان تفعل شيئا وسترى»

- «اني حر ولن تخيفني تهديداتك»

- «لست حرا في جري معك الى التهلكة»

- «إذا كان ثمة تهلكة فستكون من نصيبي وحدي»

- «حاول اذن.. حاول وسترى»

- «لن احاول بل سأفعل»

فقال بتحد

- «انك لا تستطيع ان تفعل والا لكنت فعلت»

- «ليس قبل ان اذكرك بامور ستصيبك بالرعب والاشمئزاز من نفسك»

- «أي امور؟!!!»

- «انك جبان»

- «لا يهمني ذلك ولكني سأمنعك بكل ثمن»

- «لا مفر من الاحساس بالجثث الباهظة.. القابعة على النفس والتي تحاول تجاهلها»

ركن رأسه وظل ساهما

- «لا.. ارفع رأسك ودعني اذكرك»

تجاهل دعوتي، فركلته بقدمي. شيء من العدوان تحفز بداخله، لكن تخاذله منعه من كل

حركة

- «سته شهور لم نر لها شكلا»

- «فكر في المستقبل»

- «.. كنا نجترها في مخيلاتنا.. نخلق لها في كل لحظة صورة جديدة..»

- «غدا او بعد غد ستعود الامور الى طبيعتها»

- «.. في جنون المتصورين الذين يحلمون بشئ صنف الاطعمة..»

- «لهذا لا اريد ان تقع مضاعفات»

- «.. كنت اتعمد النوم على ظهري كي اشاهدها في الاحلام»

- «اعرف نواياك.. تريد ان نفلت شهوتي من محبتها ولكنني سأصم عنك اذني»

- «.. كانت من ذلك النوع الملائكي الذي يهبط فجأة من عالم آخر..»

- «كفى.. كفى..»

- «من الزهرة او المريخ او من كوكب مجهول. لم اكن اتبين طلعتها بيد انني كنت احس

بجمالها احساسا متمكنا»

طأطأ. بدا اكثر شحوبا وانهيارا. كانت ارادته تتحطم ومعارضته تتلاشى.

وتبلعت ريقى بصعوبة. الدبايس كانت تخزني من الداخل. والمرأة الشابة مشرعة

الثدي صامته. لم يكن يهمني ان تنصب كلماتي المسمومة في اذنيها مثلها تنصب في

رأس هذه الاحق وتفعمه.

- «كنا نفعل كل ما تقدر الاحلام على ابتداعه. وعندما امر بيدي على ذلك الموضوع

ينقطع الشريط»

سمعته ينفخ. كان يقوم من على صرته ويتجول في المقصورة. لمحته يسترق النظر من

المقصورة المقابلة في هلع اللصوص الذين يجربون السطو لأول مرة.
- «.. ثم استيقظ مذعورا. للوهلة الاولى كان يخيل الي انني بليت في سراويلي. ثم حين
المس الرغبة للزجة ادرك كل شيء»
توقف واتقدت عيناه. هتف بشيء وشى بسوء الطوية.

- «انت مجرم»

- «.. كان ذلك غالبا ما يحدث مرتين في الاسبوع. وكان كالدواء المر الذي يغمر الانسان
برغبة قذف احشائه خارجا. ولكن ما حدث بعد ذلك صيره شرابا كالشهد»
شحب لونه اكثر واكثر. لولا انه كان خائرا لانطلق الي وسد فمي. لم يستطع حتى ان
يوجه الي المزيد من تهم الاجرام.
- «ليلتها كل شيء كان حادا وغامقا.. كنت اطوق الجسد والشم الشفاه. وفجأة هبطت
انامي الى اسفل. كان يجب ان تغور في الزبدة الهشة. ولكن ما وقع كان فظيعا
ومروعا..»

اوشكت على التداعي. تماسكت وانا اشاهد شحوب وجهي على طلعتة وارتعاشتي
المدومة في سكناته

- «.. شيء كالوتد صد كفي وانغرز بين اصابعي. استعدت وعيي بسرعة البرق. انتزعت
ذراعي وشفتي ونهضت وعندما وعيت الحقيقة جف صوابي»

سقط قربي ثانية على الارض. الكلمات كانت تقبض على انفاسي. كان يجب ان
اتحرر منها رغم انها كانت تفحمه وتصهرني. والصوت كان يرتفع ويضحى دويا حقيقيا.
- «عندها انطلقت كالمجنون في الظلام. لم اع كم من الاجساد النائمة وطأتها بقدمي.
كان يخيل الي انني سأجد خلاصي في الحمام. اغتسلت بلا فائدة. بصقت الف بصقة ثم
تقيأت. ولكن ذلك لم ينقذني من كراهيتي لكل الاشياء. ساعتها احتقرت هذه الاشياء الى
حد الموت. ولأول مرة شدتني اليها الثغرة الكبيرة. ذلك الخرق الذي كان يفضي من
الحمام الى الخارج. فكرت في ان انفذ منه واهرب. وعندما تأملت العواقب سقطت في
احضان اليأس. كنت اجهل مسالك القرية ولم اكن املك نقودا. ايقنت من ثم انني
ضائع تماما. من الداخل والخارج.. عدت الى مرقدتي وتداعيت. وفي الصباح اكتشفت
انك احط مما كنت اتصور».

كان يحاول انتزاع الغضب من اشداق التداعي. بدت محاولته نوعا من العبث. وعندما
حاول ان يصك أسنانه استوقفه البرد والانفعال. اخيرا غمغم بنبرة مرتجفة
- «لم اكن اتصور ان تقودك امرأة مومس الى مثل هذه البركة الطافحة بالقاذورات»
ضحكة ساخرة اختنقت اصداؤها بين الجدران الثلاثة. اما شظاياها فأغلب الظن انها
نفذت اليها عبر الباب المفتوح.

- «ارغمتني انت على ذلك كي انشلك من عالم الوهم واعيدك الى عالم الحقيقة»
تساءل فجأة

- «وماذا لو استغاثت؟.. لا تنس انهم فوق هذا السقف»
- «استغاثتها لن تكون اعنى من عواء الجوارح المعضبة في الاحشاء»
- «لن يقنعني هراؤك فكن عاقلا وفكر بالمنطق»
- «انني جائع.. قلت لك هذا.. ان كل ما بي يتضور جوعا. والابواب المفتوحة توحى بالحرية.. وثمة ما يمكن ان يسد الرمق. وقد ارتكب جريمة لو حاولت ان تجعل نفسك بابا تغلقه في وجهي»

- «قلت لك ان الابواب بأسرها قد تنفرج غدا»
- «لا أومن بالغد.. انني اعيش لحظتي، اما انت فباستطاعتك ان توغل في الاوهام ما شئت»
خطوات خطوتين صيرتاني في فتحة المقصورة. كنت لا انفك اصوب نظراتي اليها. بدا لي ان وجومها يصطرع مع طيف ابتسامة، غير ان تصنمها مكث مستعصيا.. ابيا.. وفي منتهى التعتن. تساءلت عن معنى ابقائها هذا الثدي عاريا تحت رحمة البرد وهل ان ذلك جزء من هذا التصنم الطاغى البليد؟ كانت ما تزال شاردة النظرات، رغم هذا ادرت ان شيئا واحدا فيها على الاقل لم يكن يعاني من التصنم. قدرت ان وعيها قد استوعب الاعتراف المعنوه الذي كان يفرق ههنا كالرعد قبل لحظة، وربما يلوكه الساعة. ونسيت اشكالنا المخيفة المقززة التي كانت تحرص على الاختفاء عن الانظار. ومع هذا النسيان انعقدت رغبة اخرى على اتم التغير. اردت بالحاح لو تدب الحياة في تلك العيون المتحجرة لتسقط فوقي وتبتلعي. الان خطوات الخطوة الثالثة التي اخرجتني من المقصورة.

- «الى اين؟..»

- «الى المرحاض»

ثم التفت اليه واستطردت

- «ولا ينبغي لك ان تتعقب خطواتي»

لم يكن بي حاجة لأن اتم المرحاض على الارجح. تلك كانت على ما يبدو ذريعة او محاولة للافلات من هذه الاصفاد الجديدة. غبت بداخله لحظة مطمبة بالتمزق. فكرت بهما معا. رغم تداعيه تحت ضربات الفؤوس التي تهاوت عليه قبل قليل، خشيت من ان يفتعل مشادة. والمشادة في مثل هذا الجو المشحون بالتوتر ضرب من الجنون يختلف عن هذا الذي يحيق بنا. بيد ان خشيتي تلك لم تكن حائلا يقف دون اندفاعي في تيار النهر الذي يصب عندها. حاربت العوائق الحقيقية بهمة واصرار. اما الجنون الكائن المعتلج فقد كان مشكلة ينبغي ان تحظى بحلها. تركت المرحاض وذلك الجنون يقودني اليها. في البدء، تعمدت ان اعثر على رد فعله، فألفيته منهمكا بشيء اخر. كان الان منشغلا بفتح صرته وبعثرة ما بداخلها من ثياب على الارض المكشوفة. اما انا فقد اصبحت في مواجهتها تماما. بحثت عن طرف الخيط الذي سأبدأ منه، ولكن الكلمات ضاعت بأسرها. وهي كانت ترمقني بنظرات خاطفة لا تلبث ان تتبدد في ضباب الشتات

والصمت. وارتبكت. فالاشياء كانت تجاوز قمة الغموض والابهام وتحيل الجنون الى وحش مضى يلتهم هذه الاشياء المستعصية بشراسة. وكنت اأأكل بسرعة.. انضال.. والتأكل يحدث من الداخل مثلما يحدث التآكل في باطن شجرة تنخر جذعها الديدان. والحواجز الوهمية والحقيقية تتظافر فتصيرني قطعة من حيرة خرساء لا لسان لها. وفجأة يتكدس الاهتمام كله حول الثدي، وبين الصمت الخادع كانت الذراع سترتفع. وقليلًا قليلًا اقتربت الاصابع المهزوزة من ذلك الشيء الابيض المكور المنفوخ. وقطعت الصمت انفاس استحال الى اصوات خافتة مزعجة. وسقطت اليد فوق ذلك الشيء المسحور.. رجة عنيفة اقتلعت الاحشاء.. تيار لذيذ مسموم.. ضربات مطارق تقوى وتشتد بشكل اضطراي.. واخيرا.. كتلة ثلجية تنهاوى داخل الاعماق. لقد تحرك الصنم البشري. بنفس ذلك البطء القاتل ارتفع ذراعها. وصممت على ان لا انهزم. فاذا كان لا بد من ان تحمد هذه الدوامة المسعورة فلتخدمها بنفسها. تأكدت، من ان كل شيء سينتهي بهدوء مثلما بدأ. ولن تحدث الضجة التي كان يمكن ان تحدث في البداية. عما قليل سأشعر بللمسة يدها الباردة وهي تزيع راحتي المبسوطة فوق يديها. قد تطردها كما يطرد أي شيء متطفل.. ذبابة مثلاً.. وسيحدث ذلك دون ان يخرج الصمت العنيد عن طوره فتتوهم الكائنات بأن شيئاً ما لم يحدث. وفجأة كانت هذه الهواجس تستحيل الى زجاج يقذف به بعيداً ويتهشم. ووراء الهواجس بزغت شمس من الدهشة الدافئة المبددة للظلمات. والاسود استحال الى بياض ناصع. ومن وراء هذه الهواجس ايضا اكتشفت ان يدي محاصرة. حبيسة بين شيئين متغايري الملامح ولكنها في النهاية يصنعان معجزة تفتيت الزمن والوجود.

وكان الضغط ينبثق من القمة فتتهبط القاعدة تحت راحتي قليلاً ثم تتوقف. شيء حار وشيء بارد. شيء ناعم وشيء خشن. شيء بيضوي وشيء مبسوط. وازددت جنونا كل ما كان يحدث لم يستطع ان ينزع عن رأسي فكرة تحرير كفي السجينة. وافلحت بعد مجهود قصير في اطلاق سراح ابهامي من الاسر وكانت الابهام الان تعمل بحرية مطلقة. وتتناوب الهبوط والصعود بين الثدي والكف. في حركة ضاغطة متعثرة. واخيرا كانت تلتقي بأبهامها التي دبت بها الحياة. وكانت هي الاخرى قد شرعت باللعبة. وفي تحد للصمت المتحجر، كانتا تحتكان وتباززان في تلقائية ثم تتعانقان.

كان الزمن الان يمضي خلسة والصقيع يتبدد في هذه الناحية. وكان من المتعذر على المرء ان يحصي اللحظات المنسلّة الى هوة العدم لانه ذاته كان قد امسى عدماً. وفجأة يتناهى صرير الباب الثقيل وهو يتحرك. جفل الجنون في آلية وانكمش على ذاته محتباً في رقعة ضيقة من خوابي النفس. استعاد الادراك طاقته وتحول الى تلك الناحية. وكانت اقدام ثقيلة تدق درجات السلم وهي تقترب. حررت يدي من اسار كفها وثديها وتراجعت بسرعة. ولأول مرة كان الثدي يغيب وراء اسمال الثياب. فكرت وانا اعود اليه بالحبل الذي انقطع قبل ان يلتف حول عنق الجنون الثائر ويقضي عليه. بيد ان حبلاً

آخر كان ما انك يربطني بها. فرفضت بالحاح فكرة مصرع الحرية في اوجها. وفكرت ايضا بالمغامرة اللذيذة التي تلاشت من قبل ان تبدأ. واختلطت الافكار بوقع الاقدام المقتربة وبمنظر الثياب التي بعثرها قريبي على الدكة الباردة. اما محالب البرد فقد نشطت من جديد ونشبت في العظام. وكان قريبي يعمل بهمة وعصبية على تغيير اشكال الثياب المبعثرة على الارض ثم يتوقف عن ذلك ليقول - «لا فائدة»

- «ماذا تفعل؟...»

- «اشعر بالتعب وافكر في ان اتمدد قليلا»

- «مهما فعلت فلن تستطيع النوم على هذا القالب من الثلج»

فقال وهو يرجع نصف آهة متذمرة

- «انت على حق ولا فائدة من خداع النفس»

بعد قليل وعلى صوت الاقدام التي شارفت على الوصول همس

- «كنت جريئا الى حد لم اتخيله»

فقلت وانا اراقب ظهور صاحب الاقدام

- «عرفت انك لن تنفذ وعيدك»

فألقي نظرة باتجاه الباب وقال

- «الطعام..»

كان ثمة رجل كهل جهم الطلعة يقف في فتحة المقصورة. أما الطعام فكان عبارة عن رغيفين وقطعتي حلوى وقطعتين اخريين من الجبنة البيضاء. القى الرجل الينا بهذا الطعام بجفاء من دون ان يفوه بكلمة، ثم استدار. ترقبت حركته القادمة في الذهاب اليها ولكنه اكتفى بأن القى اليها بنظرة احتقار ثم شرع بالعودة. وفي تلك الساعة كانت متطلبات الحياة تبعث فجأة..

تبعته بضع خطوات داخل الدهليز وهتفت

- «قل لهم نحن بحاجة الى فراش.. ففي مثل هذا البرد والعراء قد يطلع الصباح على

الانسان وهو جثة»

والتفت الكهل. حدقني بنفس النظرة التي صوبها الى المقصورة المقابلة ثم من

دون ان يجيب، واصل مسيرته في اتجاه السلم، وانتظرت حتى ابتلعته درجات هذا السلم

وعندما تناهى الى صوت صرير الباب الحديدي، رجعت ففكرت بجوار قريبي وانا همس

- «لا ادري اية قوة خارقة تحيل هذا السرداب الى مستودع للصمت؟!»

- «لم يجب.. اليس كذلك؟»

- «لم يجب.. لقد اهانني بسكوته. كلكم يشدكم هنا هذا السكوت. كأن ثمة سحرا في هذا

السرداب. انني اريد ان اسمع ردا من احد.. لا يهم ان اشتهم او اهان.. ان هذا الصمت

المطبق يقتلني.. يقتلني»

قال وهو يعضغ طعامه

- «انك مدين لهذا الصمت ذاته بنجاتك من يدي وايديهم»

- «ماذا تعني؟»

- «لو كانت المرأة قد صرخت لكنت اجهزت عليك في الحال»

شعرت مرة اخرى بالاشمئزاز، هتفت به

- «كنت اذن تنتظر نجاح التجربة.. يا لك من سافل»

ابتلع لقمته التالية وغمغم

- «لن امانع الان في مشاطرتك تسمتها»

همست بغيظ

- «انك جبان»

فقال مشيرا الى طعامي

- «كل.. لقد كنت جائعا قبل قليل»

- «في هذا العثيان لا يستطيع الانسان ان يأكل»

فقال بشيء من التشفي انعكس في بريق عينيه

- «لقد افسد الرجل عليك متعتك»

- «لنم يفسدها غيرك ومع ذلك فساغفر لك»

- «كل.. ايشق عليك ان تأكل وهي بدون طعام؟»

- «ما أسرع ما نسيت كل شيء؟»

- «لقد عملت بنصيحتك افلا يسرك هذا؟»

- «والبرد؟»

- «شيء لا مفر منه»

- «والغذاء؟»

- «سأعود الى التفكير فيه بعد ان اشاطرك التجربة»

قمت الى المرحاض وغسلت يدي. في طريق عودتي شاهدها تأكل بعض الفاكهة.

واحسست وانا اواجهه باشتداد وطأة البرد ثانية. كان طعامي ما انفك يقبع على الدكة في

اهمال. علمت انني انما غسلت يدي كي اتخلص منه وتناولته بسرعة وحين فرغت منه

ادركت انني كنت اعاني من الجوع حقا. الان، تلاشى جزء من هذا الجوع. اجزاء اخرى منه

كانت ترهف الحس بعيدا عن المعدة. في مناطق متفرقة من الجسد. والعينان ما عتمتا

تحلقان حول المرأة. كانت لا تزال تلوك فاكهتها بهدوء بل بسريرة. والتفت اليه.

- «ساغفر لك كل شيء من اجل شيء واحد»

فقال محاولا تمثيل دور الساخر

- «من اجلها؟»

- «كلا..»

- «لماذا اذن؟»

- «لأنني افلحت في جذبك من عالم الاوهام الى عالم الواقع»

اطرق وهو يتنهد. وعندما لم يقل شيئا بادرتة محذرا

- «اياك ان تفقد الخيط ثانية»

قال

- «اريد ان انفذ الى التفاؤل»

- «سبق وقلت لك مرازا ان لا تستبق الاحداث قبل وقوعها»

عاد الى بعثرة الثياب على الارض بشكل جديد. كان يحارب جدارا صلدا بقذفه بالبيض الطازج. ورغم كل شيء فقد وجدت عذري له في عدم استكانته. فجأة وقعت عيناى على رزمة كبيرة من الرسائل، فتكدت. رغبة عاصفة في اختراق بطون تلك الصفحات المقبورة وراء الظروف واكتشاف دخالها الخبيثة راودتني ثم انقشعت بسرعة. ضايقتني انه لا زال يحتفظ بها حتى الان. رغم اقتناعه مؤخرا بمسئوليتها عن حماقته وغفلته. الرسائل الاولى شاطرته قراءتها والرد عليها. كانت سيلا دافقا من العاطفة الجياشة. لقد كان اخوه يعرف كيف يصوغ الكلمات. وكلماته كانت تسيل على الورق مثل تيار مكتسح، مجردة من المنطق والعقل، لا تعترف بغير نفسها. لم يكن من الصعب اذن، ان تستحيل هذه الكلمات الى جحيم تغذيه تلك العاطفة المشبوبة واتقان الصياغة. اما عامل الدم والوراثة فقد كان اقوى من كل شيء.

جذبني الجبل من عنقي والقاني عندها. عادت انظارها فهوت الى الارض. خيل الي انها هي التي سحبت الجبل هذه المرة. اين كانت حتى الان؟.. ولماذا يحدث ذلك؟.. والطعام يأتي في اللحظة الحاسمة. عارضت بأصرار تلك الملابس التي يطلقون عليها اسم الصدفة. لقد كان ينبغي ان يصل الطعام. ووصله في اللحظة الغير مناسبة كان برهانا قاطعا على اننا لم نكن احرارا البتة. انها العبودية في لباس جديد. وهم ما انفكوا يراقبوننا بعيون وهمية. كانوا ينبرون على غير ميعاد كي يخلقوا هذه الصدفة. وفي الحقيقة فهم وحدهم الذين كانوا موجودين. لقد كانوا موجودين في كل جزء من لحظة متعثرة موحشة. واختفاؤهم كان مبررا لظهورهم من جديد. قاومت الفتور الذي ادرك الهمة ازاء هذه الحقيقة وفي الوقت نفسه حرصت على ان لا احقد عليهم. فلو حقدت عليهم لهذا السبب، فسينبغي ان احقد على الناس كلها. وسمعت قريبي يتساءل

- «هل ستعاود الكرة؟»

فتراجعت اليه.. واليهاء.. والى كل ما يحق بنا هنا من اشياء غريبة. افهمته بأن من الافضل ان نترث حتى نتأكد من ان احدا لن يداهنا من جديد. ولكنه ما ان استوعب ذلك حتى صم اذاننا صخب عنيف انبعث من جانب السلم. والباب عاد وانفتح.. والصخب استحال الى زوبعة. في هذه المرة لم يكن الذي اقتحم علينا وحدتنا واحلامنا ذلك الكهل الجهم الطلعة. كانوا اربعين شخصا مرة واحدة. اربعين ثائرا وثائرة

كلهم من الشباب. وقفنا نراقبهم مشدوهين وهم يقتحمون السرداب كالسيل العرم. وعلى حين غرة امتلأت الفراغات كلها. والمقصورات المهجورة كانت تعمر بين لحظة.. والطفان ماض في اندفاعه. حتى مقصورتنا البائسة لم تنج من سيل هذا الطوفان. كان اربعة من المتطفلين نصفهم من الذكور والنصف من الاخر من الاناث يغزون علينا المقصورة.. المقصورة المقابلة وحدها، ظلت بمأمن من هذا الغزو بعد ان استحالت الى زنانة حقيقية.. لقد تحول الصنم الجميل الى حياة تدافع عن نفسها. ولأول مرة تحركت مثلما يتحرك أي انسان تحقيق به الاخطار. حركة ممتلئة تقوى على سد الباب المصنوع من القضبان. ثم لا تلبث ان تولي العالم كله ظهرها.

وتداعى الصمت مع الحرية المزعومة والضجيج كان الان يملأ الاذان. لقد كانوا يتناوبون الحديث عن السياسة والحب ثم يملون السياسة فيبقى الحب وحده. وبعد قليل تتحد الانصاف على مرأى من الجميع وكنت أتألم. الان كنا نهبط الى الحضيض الحقيقي. اما هم فلم يكونوا يتجاهلوننا عن عمد في الارجح. كل ما في الامر انهم كانوا يفكرون في انفسهم بشكل لم يتح لهم اكتشافنا. واغلب الظن انهم ضحية شعاراتهم التي قذفت بهم الى هنا. لقد كانوا غارقين في السياسة والحب. لكن الحب اخيرا هو الاصل الذي ينفي الاشياء كلها. اما تلك التي هناك فمن المؤكد ان صلاتها بهذا الحب قد انقطعت بمجرد ان ظهوروا. وقد تكون صلاتها بالعالم كله انقطعت ايضا ولهذا قررت ان تحبس نفسها في زنزانة.

كان قريبي يحدقني الان بعينيه الكبيرتين. اكتشفت ان تبرمه يبلغ الذروة. لم يكن في استطاعتي مساعدته. ولكنني حاولت ان الفظ بعض سموم اليأس في نبرات قهقهة منهوكة. خنت اخيرا أنه لجأ الى احضان دائه البشع وانه كان يفكر بالغد. امتدت قهقهتي المعتوهة الى ما لا نهاية. يا للغباء! واللحظات البطيئة كانت تتلوى لتجهض المفاجأة وتسخر الاحلام. وتلقي بنا مجددا في زاوية مهجورة لا يعبأ بها احد.. وهست في اذنه اخيرا بكل ما اوتيت من سخرية

- «لقد ضاعت الاحلام الجميلة»

ولكنه تساءل

- «كم الساعة يا ترى؟»

الان، كان بالامكان اسعافه بالوقت على الاقل. سألت احدهم عن مكاننا من هذا الزمن. انتفض. كان يكتشفنا لأول مرة.. حرق في ساعته وغمغم بكلمات لم اصدقها. اما قريبي فقد شحب لونه عندما علم بأن الساعة لم تتجاوز الثامنة والنصف. قال كمن لا زال متعلقا بوهم الغد

- «حسبت اننا اشرفنا على منتصف الليل»

وبقيت صامتا فاستطرد

- «لقد كنت على حق. واخشى ما أخشاه ان لا تنقضي هذه الليلة ابدا»

وانطلق صراخ خافت من الزنزانة المقابلة الوحيدة في هذا السرداب. كان الطفل يبكي لأول مرة. وصورة الجثة والدمية المظاوية قد تلاشت وحل محلها الانسان. الان كان من المتعذر رؤية الثدي وهي توجه فم الطفل كي يكف عن الصراخ، كان الالم وحده هو الملموس الوحيد المطلق في هذه الساعة. لقد كان ينبث من كل ناحية كي يخترق اغوار الذات.. وعندما اغمضت عيني لاتلافاه كانت اشداق البرد مهيأة لاقتناصي. من ثم تناوبني الالم والبرد مثلما تناوب اولئك السياسة والحب. ففتحت الصرة الحقيبة ومضيت ابعثر الثياب على الدكة المنجدة بنفس الطريقة التي انتهجها قريبي. كنت اعلم بأن المحاولة مجرد حماقة بيد انني مضيت في ذلك من اجل ان اقتل كل ما يمكن قتله من هذه اللحظات الحشرية المسمومة المجرمة ولكي لا افلت الى ذلك العالم.. عالم قريبي السحري البعيد.

الفصل الثاني

نحن والزمن ضدان، والزمن يأكلنا، ونحن نأكل الزمن.. وكلانا يفترس الآخر.. وكلانا يمضي.. وكلانا خلف كلينا.. لا نتوقف.. لا يتوقف هذا الوقت، حتى حين نتوهم في لحظة ضياع أو حرج أو حق، ان اللحظات قد ضلت الدرب، أو سقطت في قاع ثلجي، يتجمد فيه كل شيء ويموت.

وانغلقت في اعقابنا بوابات حديد سبع حتى بلغنا الردهة. سبعة اقفال جبارة، ومع انغلاق كل قفل يكتسب رونق حياتنا الشاحب طبقة زعفرانية جديدة، والظلام يصاب ببريق آخر اسود لَمَاع.

كنا الان نضيع وننصهر في عشرات اناس غسلوا ايديهم بالسائل البشري الاحمر، فاودعت حياتهم هذه اللعبة المختوم عليها بفظاظة، اقفال سبعة. قتلة. ينحدرون الى الجريمة باسباب متينة وجذور. وهي تتلبس السحنات والاشكال فتفيض من اعينهم والسكنات، وتنز من الاجساد العارية الا مما يستر العورة. ويحيطون بنا فنفرغ حتى مما ابقته لنا الابواب المغلقة السبعة من فضلات حياة. يبقى فينا شيثان نقيضان مختلفان.. اليأس.. والرعب.

ولمحننا بوضوح اتصال خناجر تشرئب من تحت الابسطة القذرة، تلمع كوهج الحر الصيفي في بلد قاري، ظمأى مثله لكنها بخلافه لا يروها الهاء، لا ترضى الا بالدم. كان ثمة غلالة سميكة من دخان ينعقد الى ظلام في ارجاء ظلام، يعمي اعيننا وروائح حريفة غريبة تطعن الرئة وتخنقنا، تعبث بحواس لم تعتد رائحة المخدر، بكثير من حب التعذيب العفوي، يفقدنا كل هوية.

كابوس، يعقب كابوسا. ابدا لا جدوى في الرغبة العاجزة، في الارتواء باحضان شيء ما غير الكابوس. وتتعطل الافكار ذاهلة حتى يتقدم رجل بدين ربعة، حليق الرأس وبدنه العاري موسوم كله بالوشم. قلوب مثقوبة بأسهم، وأسود، وحيوانات اسطورية، وابطال يتصارعون. عفريت القمم. مزهق اربعة ارواح واعتي من في «الثلة»، ولذا دانت

الردهة جميعها بالولاء له.

وتقدم. صمت الكل. الا هو. راح يجري معنا تحقيقه الخاص بمهارة المحققين المحترفين. واثّر كل سؤال افحننا. افنفضي للعفريت هذا باعترافنا المذهل؟!.. انقول له، نحن من الطرف الاخر جئنا؟!.. وهنا عطش للجريمة محتبس وينقب عن مخرج. وسيجد هذا المخرج في اجسادنا نحن، وسيثقبها بالانصال البراقة الرانية بشوق وبلهفة من تحت الامتعة القذرة. وتلكأنا. لكن اليأس كان اقوى من نزعتنا الفطرية.. والخوف كذلك.. وانهار الاعتراف كانقاض تتساقط عن سقف خرب متداع. الان، اصبحنا هدفا لعيون مفتوحة عن آخرها ولافواه فاغرة كالهوة. غارت بعروقنا النظرات وامتصت ما يجري فيها. مع ذلك، ف (الرئيس) الذي ازهى اربعة ارواح ظل صامتا ورزينا. وكان يفكر فيما يبدو، طويلا ظل يفكر كأى بشر عادي، ثم غمغم

- «مساكين... مساكين!»

قال هذا ثم اتقدت عيناه. فج الحصار من حولنا فتراجع الجميع.. تبختر، ثم في وسط الردهة توقفت قدماه. اجل انظاره الرهيبة بين حشد مطاطيء، ثم وهو يشير اليها ارتفع صوته، ينذر ويحذر

- «هذان (الدرويشان) تحت حمايتي.. وويل لمن يجرؤ على المس بهما»

لم يكن في ردهة السجناء هذه امتعة تابعة للملكية العامة. كان كل شيء فيها شخصا حتى الثياب. وكان هذا يخلق تفاوتا واضحا بين محتويات الردهة. كان ثمة ابسطة وافرشة قشية، وطنافس. وكان فراش (الرئيس) فخما ونظيفا، وشلتته الحريرية لا بد محشوة بريش النعام، وكان هذا، اضافة الى المخدرات المهربة، والطعام الفاخر، هو ما تبقى لديه من متع الدنيا داخل هذا القمقم. وامر الرجل، فامتد في الحال خوان مطنب بصنوف مأكولات شتى، ثم امر، فاخلى لنا فراشان.. وامر ثالثة، فانهالت الحفاوة علينا من كل جوانب الردهة. بيد ان الحياة كانت مسلوخة.. نائية عنا. وحتى قبل ان تطبق خلفنا الاقفال السبعة، كان الخيط الذي يربطنا بالدنيا قد دق ووهى، الان انخرم هذا الخيط تماما. وبداخلنا ذبلت الحشاشة ثم جفت. كنا تحولنا الى اشياء تتحكم فيها التلقائية.. والى اشياء فارغة يملؤها الرعب.. والى اشياء مستعبدة تابعة للغير.. اشياء منسلخة لا منتمية.

على ان رغبة ما، كانت رغم الانسلاخ والاضمحلال، ما عتمت تنقب في الظلام. رغبة حادة وجامحة. وكان ايضا ثمة منفذ يبدو بعيدا جدا. وفريبي يصر على الاتصال بشقيقه كي ينزاح بعض الضباب. وكان شقيقه هو الشخص الوحيد الذي يمكن ان يكون همزة الوصل بيننا، وبين الذين هناك، ولكي تنزاح كذلك علامة الاستفهام الحائرة المكتنفة لكيانهم مذ فقدونا بلا سابق انذار. وكان يمكننا ان نتصل بشقيقه منذ البدء، لولا ان نقودنا اخذت منا منذ هذا البدء، ثم كان يمكننا ان نفعل ذلك بعد ان نفحن رجل ثري اوقف ساعة في المحكمة العسكرية، كنزا صغيرا لم نكن نتوقعه، لولا فرحتنا المندفعة بذلك الكنز، وتبديدنا اياه اكلا وشربا، في غمضة عين، لنرد لانفسنا بعضا من

اعتبار الانسان والاحساس بوجوده فينا. بعدئذ عدنا وتحولنا كلابا جائعة تحرك ذيولها استدرارا لفضلات الآخرين. الان، لم يساورنا حياء ولا حرج، ساعة تولى رئيس الردهة جمع الصدقات لنا من بين السجناء. وعندما احتوينا الصدقات، احتوتنا فرحة صغيرة، ولأول مرة فهمنا نفسية المتسولين الذين يضطرون الى مد ايديهم للناس. وكتب قريبي اول رسالة، ثم بعد يومين فقط تناهى الينا صوت خشن جهوري ينادي ببعض الاسماء. وسمعنا اسمينا فيما ناداه، فقال السجناء لنا، اننا سننقل الى مكان بعيد.. وكان من صافحنا منهم وهنأنا، وهو يصف المكان الذي سننقل اليه بالجنة، لا يحظى بها الا المحظوظون.

ونقلنا مع قلة سجناء الى عربة كبيرة سوداء، مغلقة النوافذ ولا تختلف عن عربة نقل الموتى. وانطلقت بنا العربة شمالا.. وظلت تمضي. صار الشمال جنوبا والعربة تمضي.. وخلفنا وراءنا كل شمال الدنيا حتى وصلنا القرية. كانت قرية منسية منعزلة لا تخطر في بال احد. حتى اسمها اغفل وسقط عن خارطة البلد هذا. قرية في آخر العالم. تماما في اقصاه. ولم يكن يهمننا ذلك. فالابواب المقفلة السبعة اضحت ذكرى من الماضي، ووراؤنا المدن والقرى برمتها الا هذه القرية التي سوف تلتهم ما كان يسمى بمستقبلنا، في الوقت الغابر. هنا، ليس الا مخفر شرطة، في داخله قبور رطب لا يدخله نور الشمس. والبنيان قديم متداع يتساند على اعمدة متعبة هرمة محنية الظهر، موشكة على ان تنهار وتلقي معها هذا العبء الباهظ من البنيان. قبر هائل لكنه مؤقت ترتمي في احشائه الاجساد البشرية فترة قصيرة ثم تعود ثانية الى احضان حياة الدنيا. نفق صغير يضيع القطار بداخله برهة يخرج من بعدها للنور. هكذا كان الآخرون القادمون الى هذا القبر المترهل. ايام. فقط ايام. لكننا نحن، كنا حراس القبر، نرى الداخلين والخارجين منه.. ونراقب. بل نمضي في غيبوبة كسبات اهل الكهف.

ويستيقظ اصحاب الكهف فجأة. كلا. عقارب الزمن ابدًا لن تتوقف عن السعي. وتلاشت ايضا ليلة السرداب الجحيمية. قبل ثلاثة ايام عدنا من آخر العالم. واستغرقت عودتنا منه اسبوعا. كنا في كل يوم ببلدة اخرى.. رحلة ترانسييت. تسليم بضاعة من نقطة الى نقطة. قبل يومين تجولوا بنا في ارجاء المدينة الكبيرة المترامية الاطراف. هذه، اللؤلؤة المتناثر حولها الصدف والخرز الزائف. ارونا كل ما يمكن ان يشاهد فيها قبل ان ينزلونا السرداب. حتى حي البغاء الكبير المشهور شاهدناه عن بعد، ساعة كان الضابط المرافق لنا يختفي داخل بيت من بيوته، ويعوضنا مقابل انتظارنا اياه في سيارة الشرطة، بكاسين من البوظة. ثم يستيقظ اهل الكهف ثانية على الصوت

الجهوري الكهل العابس المتجهم

- «قوما. يطلبونكم على وجه السرعة»

ويتساءل قريبي جزعا

- «ماذا يريدون؟!.. ماذا يريدون؟!»

السؤال ذاته يستيقظ معه. لقد نام. رغم كل شيء نام.. ونمت معه. لا ادري كيف النوم جاء. لكنه جاء كالرحمة الضاربة بالزمن المجرم وبالشياطين والاشباح. وتلاشي الاشباح، وسرق الزمن الجليلة. لم يبق غير جسد كخطوط البان مسجى على دكة مقابل دكننا، وهو يعانق طفلا رضيعا، كان يبدو ليلة الامس دمية. وعلمت انها ضاعت.. الى الابد ضاعت.

وتردد سؤال قريبي كصدى يضرب جنبات رأسي
- «ماذا سيفعلون بنا؟!.. ماذا سيفعلون؟!»

وكنت ادرك ان كل ما في داخل هذا الرأس قد جف. أثرت هناك جمجمة حسب. قوقعة فارغة، ترجع اصداء التساؤلات المنقبة عن المجهول، كما هي، وبغير جواب. في آلية عادت قطع الثياب المبعثرة الباردة وتكدست داخل الصرتين. الصرتان انعقدتا على الاكتاف من جديد، عادت مرة اخرى صورة التسول والجريمة، بيد ان سيماء الجريمة كان الطاغى في الارجح. فوق السلالم لم نلبث ان وجدنا نفسينا في غرفة المجرمين، الغرفة مفعمة باحدث وسائل التحقيق وبالات التصوير. وعلى الجدران الف صورة معلقة لالف مجرم هارب او مطلوب. اجلسونا على كرسي اللعنة تباعا، الا ان قريبي لم يكرر تساؤلاته.. وكان يعاني من هذه الظاهرة ذات الخاصية المتزلجة التي تبعده دائما الى ما وراء ما أجازته له الطبيعة. وكنت اتساءل بدوري عن «الامن» الخاص، المهان في اقبية الامن العام وسرادييه، واستوديوهات تصويره. هذا الامن الخاص المتلاشي متبددة معه الحرية الانسانية دون جريرة، الحرية التي في لحظة عابرة من وهم، كانت تبدو كالطود الراسخ المتحطمة عند منحدراته اعنى زوابع الدنيا. وهمست وانا فوق الكرسي

- «ماذا تفعلون بنا؟!»

وجاء الرد مستهينا غير مبال

- «لا شيء.. مجرد روتين.. والصور ستقبر داخل ارشيف.. والارشيف في خزانة مقفلة. مجرد روتين»

- «ان كان الامر كذلك، فلماذا هذا العناء كله؟!»

وخفت الرد في ثنايا الوميض المنطلق بغتة. من الامام، ومن فوق، ومن تحت، ومن اليسار ومن اليمين. واصبحنا في لحظة صورا في جوف آلة. صورا يلصقون بها الجريمة رغم ما تحمله من براءة. وبطبغات الاصابع اكتملت الوصمة، وتأطرت الصور بابرير من عار. الا ان قريبي لا يلبث ان يتساءل

- «ماذا سيفعلون بنا؟!»

هذه المرة كنت مضطرا الى ابتلاع ضحكي من حمقه.. افلم يدرك انهم قد فعلوا وانتهى الامر؟!.. ها قد ادلونا في البئر الطافحة بالقاذورات.. وبالحبر الاسود، غمسونا به ثم اخرجونا مبتلين بالوصمة. ولم يكن هذا يهم قريبي، فهو ماض في مطاردة الذبابة

اللائحة في الافق البعيد، وخلال ذلك تتبلور حياة الانسان على شكل لا يحلم به. وتستفيق الاشياء الميتة على كابوس آخر رهيب. ولا يشعر قريبي باننا امسينا مجرد مجرمين رغم انف الحقائق.

- «انتهى كل شيء. وفي غضون ساعتين ستكونان في الجانب الآخر» نظرت اليه، فوجدته ينظر الي. مكثنا صامتين، فالكلام فقد جدواه، وكان يمكن ان يلعلع اللسان بكلمات طافية على سطح الشعور كالرغوة او كالفقاعات المنتفخة بالهواء. بيد ان الافكار كانت تنبش بين القمامات المتراكمة فوق احساساتنا باظافر دجاجة. الحقائق كانت ضائعة، وقريبي يبدو مثلها في الضياع، وانا تعتريني قرصة غامضة في الاحشاء منبثقة عن مشاعر مختلطة طغى عليها التوتر. ثم كان علينا ان نتقمص الانتظار مرة اخرى. هذه المسافة من الوقت المسماة بالساعتين والتي ساعة انقضائها سنكون نحن مقذوفين نحو الحرية مرة اخرى، ونحو الرتبة، مع عبء نصف عام محتوياته لا اكثر من اشلاء بعابج، واثار احلام بشعة مرتسمة كبقعة سوداء على قلب الحياة، وهو يطارد السراب ما عثم ويدركه ملل الانتظار فينضي هذا الانتظار عنه كالثوب ويغمغم - «متى...»

ثم لا يلبث ان يهمس
- «واخيرا...»

انقضت الساعتان رغم كل شيء. ونحن ما زلنا في مقر «الامن العام» بانتظار السيارة. كان قريبي يرم.. يضيق.. تبدو عصبيته في خطواته العشوائية وهو يقطع الغرفة ذهابا وايابا دون هواده.. ويتساءل في الوقت نفسه
- «متى تأتي السيارة؟»

وكان وضعه هذا يزيدني توترا. حاولت الاحتذاء به ومجاراته في النفاذ الى ما وراء الاحداث الكائنة، الا انني لم افلح الا في ان ارسم له مستقبليه هو. لا شك، سيعود الى الكأس الدموية والقمار وتصيد الجنس الاخر، ولن تتخلى عنه غواية الوهج الكاذب، رغم ما مر به. وسيمارس، كما يفعل الان، لعبة الفرار من الواقع والارتساء في احضان الوهم. ودهمني سؤال مفاجيء

- «هل سيكون بالامكان، رغم كل ما حدث، ان نبقي صديقين حميمين كما كنا ذات يوم؟»..

وعندئذ قال

- «اهم ما يهمني الان، ان التقى بأهلي بعد هذا الفراق الطويل» التمعت قدامي صورة حادة لامرأة بائسة ترتدي السواد. الا الوجه فقد كان باهتا، والشباب مخضرة ومهلهلة. في ذلك اليوم كان ينبغي ان تنزع عنها هذه الثياب.. في ذلك اليوم كذلك، توقف الزمن وما زال. وانقطع ذلك اليوم من قبل ان يبدأ. ونشب كالخنجر في اعماق المادة الرخوة التي جفت وراء صدفة جمجمتي المعصورة. ومكثت

صورة المرأة، والوجوه التي تحمل قوة تفتيت الصخر. ووجفت واصطفقت الاحشاء. لا. لم احتلب الدمع من عيني قبل اوانه. الاحمق.. الاناني.. الكلب!.. هو لا تبرحه الدمامل، ولا توجهه كلوم حقيقية، وها هو كالطفل الكبير الذي يطير فرحا ساعة يعيدونه الى احضان امه بعد غياب.. وعلى جدران الغرفة كان الوهج الكاذب يتراقص. وهو مبتلع بشراراته وبصيصه، غارق بتفاهات. مبعثر بين ارجاء ذبذبات مستمدة من لا شيء. وهذا اللاشيء هو كل ما فيه. رجل من مطاط منفوخ بالريح او بدخان، وكنت مشدودا في دخان سيجارته المنفوث من فمه في عامود لولبي، وبشبه وعي اتخيل تلك الريح الممتليء بها في انسراهمها من اعماقه مع هذا الخيط العامودي من الدخان. كان يدخن وحده. فمحاولات اغرائي بالتدخين باءت بالفشل. احيانا، ولكي اتخلص من الحاحه المستمر، كنت ارتشف نفس دخان واحد.. او اقتل ربع سيجارة، فاحس بانني لا اقتل جمادا عاجزا عن ان يدافع عن نفسه، فحتى الجماد هذا ينتقم. وكنت اعجب كيف يقتل هو السيجارة تلو السيجارة ولا يشعر بانتقامها الفظ. واسائله بدهشة

- «الا تشعر بالغثيان؟!»

فيجيب غير مكترث

- «غثيان السيجارة، لا يشعر به الا المبتدئون»

فأقول

- «والمرارة المتخلفة في الفم، هذه النكهة الكريهة؟!»

فيجيب باعجاب

- «نكهة لذيذة تنفذ للاعصاب وتحمدها»

الان كان يحرك اعصابي. وضعفت هنيهة ففكرت في ان اطلب منه سيجارة، كي اخبر نجاعتها في اخماد ثورة الاعصاب. الا اني تذكرت كأسه الدموية وقماره وتفاهاته فعدلت. هو لا شك لا يتبع الا الاساليب المؤدية حتما لسراب لا كنه له. وجاءت السيارة وانا ما زلت افكر بالسراب. اما هو فقال

- «لن نكون هناك قبل الظهر»

جلست بجواره على المقعد الخلفي، بينما احتل المقعد الامامي ضابطان من ضباط الامن العام. كانت العربية جيب مكشوفة، وتعري المشاهد امامنا. وكانت الشمس ساطعة لأول مرة وتلقي الينا بنظرتها من فوق العمارات الشاحخة، لكنها كما خيل لي، كانت ترمقنا ببعض الفتور أو الاستنكار. جفوة ستة شهور كانت في تلك النظرة، وكان ينبغي لنا ان نتعارف من جديد ونتألف. اجل، فبالرغم من ليلة السرداب الصقيعية، فقد عجزت عن استنشاق ذلك الحنان الدافئ المنطلق عن قرص الشمس كالقبلة المطبوعة على وجوه الكائنات بأسرها. في هذه اللحظة، بدا وكأن هذه الشمس تبصق نورها كله وحرارتها الى داخل فوهة البندقية المتوسطة للضابطين الجالسين في صدر السيارة والمصوبة بشكل اعتباطي نحو السماء!.. اكتشفت من ثم، ان البندقية لم

تكن الا بندقية صيد، فغمرتني خاطرة عابرة، بضحكة بلهاء كتبتها في صدري، وانا
اهمس في اذنه
- «هل تذكر؟!..»

فتساءل بنظرة تحمل دلالة النسيان، بيد انني تغاضيت عن نظره كي لا اضطر الى
تذكيره مرة اخرى. اذ شعرت لسبب غير معلوم ان تذكيره الان قد يجر الى مضاعفات لم
اكن معنيا بها. لكنه اصر على ان يعرف، فأومأت برأسي الى البندقية، فازداد حيرة
وتعقيدا، وعندئذ قلت بصوت خفيض
- «البحر والدركي.. والبندقية»

وطأطأ. وافحم. بينما ثرثرت داخل رأسي الذكريات. كان ذلك في اول الرحلة. جلسنا مع
الدركي على صخرة عند ساحل البحر، والتهمنا الشطائر التي اشتراها الدركي لنا. وكان
شمة نبع متصل بساء البحر. وكان الدركي مخلوبا بحكمة الطبيعة. كان الساء العذب
والساء الاجاج يلتقيان، لكن العذب يبقى عذبا والاجاج اجاجا. وبدا سر الطبيعة هذا
موغلا في الابهام، بيد ان الغرابة لم تلبث ان انقشعت حين ابتعد الدركي قليلا ليشرب
من ماء النبع. وكانت بندقيته طريحة بجانبنا على الرمال. وعلى حين غرة، شاهدت يد
قريبى تزحف نحو البندقية. نظرت الى وجهه. كانت اشداقه ما انفكت تلوك طعام
الدركي وعيناه مزروعتين في بندقيته. وسألته
- «ماذا تفعل؟!»

فهمس

- «هي فرصتنا. ساقتل الدركي وسنتمكن من الفرار»
وفي برهة، كان منظرنا مع البندقية على الرمل. لكمتي كانت مجنونة.. لم يكن المنطق
وقتئذ. من حسن الطالع ان ما خطر لي في حينه كان انسانيا بحتا. اما المنطق، فلو فكرت
به، لكنت اما قاتلا او مقتولا.

وغارت الخاطرة في جوف طير حاد اعقبه تأرجح. انشينا الى الامام ثم ارتدنا الى
الوراء في تلقائية متناهية السرعة اقتلعت احشاءنا. وكان ذلك مؤشر الانطلاق. الانتقال
الفجائي الى سرعة شبه جنونية. وجفلت في حين كان وجه قريبي يشي بتحرره من الضيق.
والضابطان يمرحان بسعادة. لا شك في ان هذه كانت فرصتها للاستمتاع على حسابنا
بنزهة غير متوقعة وشيقة. ولا شك ايضا في انها ليسا مثلنا يعانيان من ظلال الماضي
القاتم، وظلام المجهول الاتي المبهم. وانطلق صوت قائد السيارة يتوجه الينا بانفتاح
عجيب

- «سنتجول في رحاب المدينة قليلا قبل ان تغادرانها.. الى الابد»
لم يرق لي هذا الانفتاح العجيب. وكلماته الاخيرة القت في نفسي احساسا بالتشاؤم. اذ
ان كلمته الاخيرة «الى الابد»، كانت تعني لي اشياء غير مستحبة.. فضلا عن اليأس
والفناء. وكان التفاؤل يغيب نفسه مع المستقبل الذي تحاشيت التفكير فيه، بعناد. ولو

كنت تفاءلت، فربما كانت كلماته ستفسر على شكل آخر.. وكان هذا الاحتمال في الواقع مجرد فرض خاطيء ناتج عن تلمس الدرب في ديجور الالغاز.. الى الابد.. لماذا؟!.. ولماذا ايضا يستبق الاحداث مثل قريبي تماما؟!.. ولماذا يرى كل منها المستقبل في لون مصطبغ بهذا الرأي الشخصي البحث؟!.. وانقطعت الافكار اذ شدتني اليها مناظر جميلة كانت تترى على جانبي الطريق. وبخلاف الاماكن التي اتحت رؤيتها لنا في هذه المدينة، فان الشارع هذا كان فسيحا ونظيفا. وتعلقت عيناى بالقصور المنتصدة على طرفيه، واقتنصت هنا وهناك اشكالا لسيدات وسيماوات وانيقات، جعلتها سرعة السيارة اشكالا غير متكاملة. الا اني لم اكن بحاجة الى تفكير طويل لآخن اننا نتجول في حي من الاحياء الارستقراطية. وتساعد الفضول فاردت ان اعلم في اي اماكن المدينة نحن، وعندما سألت الضابط عن ذلك قال - «ليس المهم اسم الشارع، ولكن المهم ان رابطة دموية تصل بينكما وبين سكان هذه المنطقة»

وخفف من سرعة العربة مشيرا الى احدى السيدات الانىقات، كانت تتهاذى برزانة على رصيف مشجر، واستطرد

- «هل ترى هذه السيدة؟!»

- «ما شأنها؟»

- «هي منهن»

- «ماذا يعنى ذلك؟!»

فاطلق ضحكة خفيفة ثم صمت. وكان الضابط الاخر ينتهره بكلمات لم اتبينها. فعاد ينظر امامه وعادت السيارة وانطلقت كالشهب. وارتبكت بعض الشيء، ثم خيل لي اني قد فهمت.

وعدت الى قريبي. كانت عيناه ملقيتين في الشارع، مبجلتين. همست في اذنه بسخرية مريرة

- «هل سمعت؟!.. اننا بين اهلنا. هكذا قال قائد السيارة»

انتفض. سحبته من عالمه الاخر المسحور. بعد جهد قال

- «هراء. سيمضى الظهر قبل ان نكون هناك»

لم اشأ الرد عليه. كان من المؤكد ان تعلقه بفكرة الوصول الى «هناك» تعاني من نفس ذلك الجنون الذي انتابني الليلة الماضية في السرداب المظلم، مستلها ثورته من المقصورة المقابلة. وانتهاء ذلك وانضمامه الى الشهور القاتلة المتصرمة يعنى اننا قد نصل في النهاية. ودفعني الفكرة في قهري مشوبة ببعض الهلع الى احداث سوف تقع. لقد كانوا يلقونني وراء هذه الاحداث، الى مفاجآت اكرهاها. الى المستقبل الذي ابدأ ينطوي على هذه المفاجآت. ومن نكد الطالع انها دائما كانت تعسة مفاجعة. الان كنا نعيش ذبول المفاجات المفجعة هذه. والزمن يتبرأ منا. بلا جذور ولا اغصان، زرعة

مقتلعة من تربتها منزوعة عنها كل عوامل الانتشاء، ومشحونة في سيارة. وكان السؤال الان دقيقا وخطيرا. اذ هل يمكن ان تعيش الشجرة لو زرعت ثانية في الارض؟! واشعرثني المناظر المتغيرة من حولي باننا نقرب من نهاية الرحلة. ها قد غابت المدينة وظهرت بساتين السموز والتفاح. يعدو اللون الاخضر. يمرق دون هودة. والطريق والزمن وراءنا وامامنا. ونحن في الوسط تماما. ابدا سنظل منغرضين في احشاء الزمن والطريق، ويقبع الذين تخلصوا من هذا «الوسط»، في اجواف حفر مهال عليها تراب ورمال وحصى.

ثم ساعة من حرق هذا الزمن والطريق والبنزين والافكار والاعصاب. وتختفي البساتين مع الماضي ويفتضح الحاضر على شكل جبال ملونة عن يسارنا تنفخ في وجوهنا انفاسا باردة عذبة، وعلى اليمين يبدأ البحر مع الافق... يتعانقان او يتزاوجان، ويذكراني بالالتصاق، وتلوح من بعيد حصاة صفراء ربما قذفها البحر الى مسافة فراسخ فاستقرت على حافة الشارع المعبد، وشرعت تنمو حتى تصبح عمارة قائمة وحدها في الخلاء، وعند هذه العمارة الصفراء تتوقف السيارة في حركة مفاجئة وعنيفة. وقال بجزع - «لماذا يتوقفون؟!»

فأقول

- «لن يقتلوننا على أي حال»

وكنت انا الذي وضع فكرة القتل في رأسه، فانتفض وهمس

- «ومن يضمن ذلك؟!»

- «المنطق»

وفي الواقع لم يكن شمة منطق في كل شيء. على انني استخدمت هذه الكلمة كي اختصر الطريق الى تبديد مخاوفه، فلو لم افعل، لتوجب علي ان ادخل معه في نقاش طويل حتى اصل الى النتيجة ذاتها. بيد انه ما لبث ان طرح السؤال على شكل اخر - «لماذا، اذن، يتوقفون؟!»

ورنوت الى بعيد. مرتسيا في احضان محاولة غير مجدية لسر اغوار جمال الطبيعة، المكنون في عملية اندماج المرتفعات بالسهول وتناسق الصخور والرمال وفي انسجام الالوان المؤطرة بزرقتي البحر والافق المتباعدتين. وفي نفخة مسكينة تلاشي كل هذا. لقد كنا، رغم اننا جزء من الطبيعة، عالمين مختلفين. وتذكرت النبع العذب المتصل بهاء البحر المالح، من دون ان يصيب احدهما الآخر بغدواه. وقلت - «لا تنس انهما في نزهة»

فتخلص من بعض ضيقه في نفخة طويلة واردف

- «متى تنتهي المهزلة.. متى؟!»

كان الضابطان قد ترجلا، ومضيا يحدقان في الطبيعة، في نظرة بدا وكأنها تمتص رحيق زهرة تراءت لكل منا، قريبي وانا، ولاسباب مختلفة، تقلة وسامة. وعادا بعد قليل، وقال

الذي كان يسوق السيارة

- «انزلا»

- «الى اين؟»

فقال

- «انها الظهيرة، وستناول آخر وجبة غداء معا»

وأكمل الآخر

- «لا بد من ان نحملنا لنا بعض الذكريات الطيبة»

نزلنا. والذكريات الطيبة كانت تختلط بالذكريات المقيتة. الالتباس يعن مجددا كالم
الضرس. يعلو ويطن على وضوح الاشياء، والانسان هنا يحاول ان يتقمص الطيبة في
اغلب الاحيان، بيد ان الطيبة كانت حشرة محومة في الخارج. والقانون كالمبيدات
الحشرية، قتلنا قبل ان يقتل الحشرة، من ثم كانت هذه الحشرة تحط على اجساد ميتة
مفتقرة للحس. دخلنا في اعقابهم الى البناية الصفراء. كان هناك ضباط لم نرهم من قبل.
اضطربنا الى ان نمد يدنا مرارا لنصافح ايديهم الممدودة الينا.. لقد كان يبدو وكأنهم
يحتفظون بصداقة قديمة لنا. ثم مد السماط. شرائح اللحم المشوية والبطاطس
المحمرة والمعكرونة. اطياف من بداية الرحلة. يومئذ قدموا لنا الطعام ذاته في مكان
آخر. الزمن تغير والفاكهة ونحن. يومئذ كان البطيخ الاحمر، والان عصير البرتقال. يومئذ
ايضا، كان الحر شديدا وكنت اعاني من الم حقيقي في الضرس. خبت الشمس الان،
وبدت شبه زائفة. والهواء قارس. هواء الشمال والشتاء والجبل. وانا اعاني الهما يصرخ
حول ضرس في لثة اقصى الفك الاعلى، مع ذلك فهو الم لا تنعدم صلته بالاضراس. لقد
كانت هذه الاضراس تنغرز بي، لتعض وتنهش وتقطع ما يمكن تقطيعه من اعصابي.
والاكل، ايسد هذا الفراغ الحاصل من نهشة الاضراس في اعماق النفس. الجوع يتفاقم
منذ الليلة الماضية. حتى التخمة لن تشبعه بعد. احيانا، كنت اتستر عليه، لا اعترف به.
انساه. ثم تدب ارجل حشرية من المريء الى اعلى الساقين فتذكرني به. ادفنه. ارجئه
للمرحلة التالية. ابعثه بين فتاتات الماضي العظنة التي تزحف رائحتها الكريهة الى
الحاضر، والى اللحظة القادمة التي لم استطع اللحاق بها. وقريبي الاحق باق على
اصراره على تخطي عقبات المجهول، لكنه الان يتناول طعامه بشهية، ويرتشف عصير
البرتقال بجراحة. وكان من الواضح انه لا يبذل مجهودا حتى لمقاومة غيبوبة الانسلاخ،
وانه يفعل ما يفعله في وعي يفترق الى اليقظة.

- «هنيئا»

بعثها احد مضيفينا على الحضور برمتهم. وكانوا يتبادلون نظرات صامتة والبعض
يمصص اسنانه والبعض يتجشأ. وكنت بحاجة لمرأة كي اتين ما كنه الابتسامة
المرسومة على وجهي لمجرد المجاراة. وبقينا انها باهتة لكنها ليست متملقة.
واقفيت اثار نظرة مضيفنا وهي تسقط على صرتينا المهملتين في زاوية، فراودني

الانحسار والعراء، وبعد الصمت تساءل

- «ماذا بداخل الصرر؟»

بسرعة قلت

- «ثياب. مجرد ثياب داخلية»

واضاف قريبي بقلق

- «يمكنك فحصها لتتأكد»

- «كلا.. لكني كنت اريد القول..»

استعرت عينا قريبي بفضول وبخوف، اما انا فتساءلت ببرود

- «ماذا؟!»

- «ان كان ثمة فيها اشياء قد تجركما الى اسئلة وأجوبة، فالأفضل ان تتخلصا منها هنا

قبل فوات الاوان»

وضحكت. في الصرة لم يكن ما اتخلص منه، وما ينبغي التخلص منه ملتصق بالذات ويستحيل ان ينفصل عنها. الا ان قريبي تحفز وتابعت بشيء من الاستغراب في مضيه المتهور الى الصرة ورأيته وهو يفك عقدتها. وكانت بي رغبة مدهامة الى استقصاء ما سيفعله، وعندما اكتشفت بيده رزمة الرسائل تجذلت رغبتى الفضولية، وعاش في مكانها حقد دفين. مئات من الاوراق الزرقاء المسودة محتفنة بيده. ويده تعتصر «العاطفة» المسكوبة على تلك الاوراق. عاطفة لسعت بكلا نقيضيهما، في حبها وفي بغضائها. وكنت أقرأ هذه الاوراق، حتى جاء الحظر. وجاء النصف الاخر منها. الملعون المجنون. اللسعة المسمومة. الجريمة. نصفان. وما اعظم المفارقة بين النصفين. وهما الان، او في اللحظة الاتية سيصبحان مزقا صغيرة. العاطفة الطيبة والعاطفة الشريرة. الكراهية ستمزق مع الحب. الفضيلة والرذيلة. كل شيء. وصوت الى انتهاء العملية بسرعة، اذ ما اهمية الانتظار في مثل الحالة هذه؟! لكن قريبي تريت. كان ينقب بين الرسائل مضطربا. يبحث عن شيء ما. ورأيته وهو ينتزع رسالة.. يقطع منها قصاصة. يطوي القصاصة بسرعة ويواربها في جيبه. من ثم، رأيت عملية الابداء وانا احس بالاختناق. عادت رغبة فضولية ذات قبضة حديدية وكتمت انفاسي. وجاهدت في زحزة القبضة الملهوفة الى خنقي او ان اعرف ما تخفيه القصاصة. عبثا. فالقصاصة مكثت دون الاشياء. ماثلة نافخة بفضولي اعنى جبروته. فلماذا هي دون هذا البحر الزاخر من الاوراق الزرقاء؟! هذه القصاصة. لقد كانت مهما يكن موجودة مذ بدأ يحاول التخلص مني. كلماتها ضائعة بين الاف الكلمات. في الليلة الماضية كانت موجودة وقبل الليلة الماضية ايضا. بيد انها تغدو الان شيئا استثنائيا خاصا ومثيرا. وانداح بي شغف الى الامساك بخناقه واخراج الورقة من جيبه. الا اننا كنا محاصرين من كل جانب. وكان يحرق الان مزق خطابات اخيه على مرأى من الكل. واستعرت النار في الخارج ملتقية مع ما يعتلج في الاحشاء، ثم عندما همدت تلك النار عاد والصرة معه. وبادرته بهمسة تحمل

صيغة الامر

- «أريد ان ارى القصاصة»

- «آية قصاصة؟»

- «المخبأة في جيبك»

فقال ببرود

- «ستراها. لقد احتفظت بها من اجلك انت، وسأطلعك عليها في الوقت المناسب»
رد لم اتوقعه، غمرني بشكوك اخرى. افحمت. فما حولنا كان دقيقا ومعقدا، والشك العميق فيما سيحدث اخذ بالذوبان، بيد ان الغموض كان يزداد استحكاما. والتوتر يتوزع والمخلفات لا تفضي بمغازيها الحقيقية. ولا تبوح بأكثر من حمل باهظ يجثم فوق الكاهل على شكل شفاف لا مرئي. وبين كل ذلك، سمعت من يقول
- «اذا تطلب الامر هناك، فانسيا الاشياء الطيبة، واتهمنا بالهمجية»

كيف؟!.. لأول وهلة يتناهى ظن في انهم يحاولون اصلاح ما افسده القانون. ثم نتبين ان الانسانية غالبا ما تجني على نفسها بشكل ما. ولم يكن يبدو ان الامور ستصل الى حد الصاق التهم الباطلة بمن يكرمنا الان، وفكرت، انه حتى لو تطلب الامر هذا، فاني لن اقول الا الحقيقة.

كان علينا مواصلة الرحلة. حملنا الصرتين واتخذنا مواقعنا الخلفية داخل السيارة المكشوفة. وعادت البندقية تتوسط الضابطين الجالسين في المقدمة. وعندما انطلقت العربية ثانية كانت القصاصة ما عتمت تشنق فضولي، وانقطع الجبل اذ كان قريبي يبدو في شحوب الاموات. وعدت ارثي له واطمنته الى اننا نوشك على الوصول. لكن لحظاته، كما بدا لي، كانت تستحيل الى عقارب. اذ لا شك في انه تعب من اجتياز الحواجز الزمنية. وكانت هذه الحواجز تظهر في طريقه كلما ازداد يقينا في ان المهمة اضحت في حكم المنجز. وقال متضايقا

- «انقضى اليوم وما زلنا هنا»

- «لم يبق الا القليل. ومن احتمال نصف عام يمكنه التريث نصف ساعة اخرى»
فقال بمرارة

- «كل ما اخشاه ان يخلقوا لنا الف عائق، وربما ينتهي بنا الامر الى قضاء ليلة جحيمية اخرى»

فقلت متضجرا منه

- «لن يخلد شيء، وسنصل في النهاية»

فضحك ساخرا

- «اغرب ما في الامر انك انت الذي يقول ذلك، بينما انا لا اكاد اصدقك»

مرة اخرى يتبرم

- «لو دفنت اهتمامك فيما حولك، لو تشاغلته بهذه الطبيعة الجميلة، فسينتهي الوقت

حتماً»

فتساءل

- «وانت؟!.. هل في مقدورك ان تفعل هذا؟!»

عن طريق التجربة حاولت ان ارد على سؤاله. السيارة ما انفكت تنهب الطريق. والعمر ينسل خلسة بين التوتر والانتظار وبذل محاولات للانتفاء مستميتة. لقد كان بالمستطاع ان نشاهد من خلف مجهر كيف تنمو شعور الذقون وتأخذ في الابيضاض، كيف تتفتت الخلايا، كيف تشيخ البشرة في ذروة الصبي، كيف يعترى الاشلاء مزيدا من التفسخ والتعفن. وتستحيل دفقات النسيم المنعش الى صفعات موجعة، وهممات البحر الهامس عند الافق الى صيحات معتوهة، وتخدم الشمس وتبرد، والمشاهد تهتز وتتأرجح، ثم تغيب التوتر، رجة مفاجئة. يهمس

- «لقد توقفت السيارة..»

- «في احضان الجبال»

- «ويهبط السائق مع البندقية»

- «قلت لك، لن يقتلونا»

- «لم اعد اصدق شيئا»

- «ولا انا..»

واخترقت سحنته. هو يقينا لا يفكر بالاشياء الطازجة. فضلات شرائح اللحم ما زالت تحتبيء بين اسنانه ورائحة الحريق. والقصاصه في جيبه. هل يعقل ان يكون هذا كله مجرد خدعة ستنهتك في الخلاء؟!.. والمنطق شيء اسطوري. يصاب الناس في هذه الايام بالجنون الفجائي. احيانا تركبهم رغبة جامحة في القتل بلا مبرر او من اجل ان تحظى الذئاب المتوارية في جحور الجبال بقوتها. وتناهى الى رأسي شبح لشاب سوف يشيخ وراء القضبان مقابل رصاصة اطلقها. والاخر الذي سيعيش بامعاء كلب. والسبب تحية لم يسمع ردها. وليس دائما لا يرد على التحيات لمحض الاستهانة او الاحتقار، فعالمنا يفقد وجوده شيئا فشيئا.. يشرد. يهرب الى عوالم اخرى خصبه بعد ان اجذب واكتسحه الجفاف، وقلت له

- «بندقية الصيد لا يمكن ان تقتل انسانا»

ولم اكن متأكدا من ذلك. كان لوالدي بندقية صيد. ذات مرة استطاع ان يسقط ثلاثة طيور بخرطوشة واحدة!.. وقال قريبي

- «اشعر بالحصر»

- «أي حصر؟!»

- «حصر البول بالطبع وهل يوجد غيره؟!»

- «كثير. ومع ذلك فيمكنك البول خلف ذلك التل وانت مطمئن»

حدجني بنظرة مقتحمة ذات مغزى عميق وتساءل

- «وانت؟!»

- «حرمتم ان افعل هذا الا في الاماكن المخصصة لذلك»

ولم اشأ الاسترسال بالحديث، فهتفت به

- «انزل.. ماذا تنتظر؟!»

تعقبته حتى اختفى وراء التل فتحولت الى الجانب الاخر. كان الضابط السائق يلاحق

ببنديقته ارنبة بيضاء تنط بين الوهاد القريبة، والاخر يبدو عليه الضيق. وفجأة يفرق

دوي ليشق قلب الصمت. وجاء قريبي يعدو

- «الم تصبك الرصاصة؟!»

اقهقه عاليا. اما الضابط الاخر فيستبد به الغضب

- «انت احمق.. احمق. انت تخلق لنا المشاكل من غير داع. سيردون على الضرب لو

اعتقدوا انها رصاصة حقيقية»

علمت من ذلك اننا اصبحنا على مقربة من الحدود. وتريثت حتى صعد قريبي وجلس في

موضعه. عندئذ غمغمت

- «سنصل عما قليل»

حملق بالارنبه المسكينه المخضبة بالدم وهي تتأرجح في يد السائق

- «متى؟! متى؟! متى؟!»

وكانت كلماته ترتعد. ساقني المشهد وكلماته الهلعة الى فكرة فيها بعض العسف.

تخيلتني جثة تنهشها الوحوش. واستغرقتني الفكرة، فاذا الوحوش مقلمة الاظافر مقتلعة

الانياب، لكنها شرسة كاسرة. وكانت تملأ هذا العالم. وتبعث على الاستغراب، ليس

لانها حقيقة، وانما لان مبررها كان مفقودا، حتى في المشاهد وفي تساؤلاته. وقبل قليل

كانت الانسانية تحاول ان تبرهن على نزعتها الايجابية عن طريق تنكرها بسمت الوحوش

ذات المخالب والانياب. ومن هذه المتناقضات كنت انفذ الى مخاضة، وتنغرز الافكار

في وحل هذه المخاضة وتتعثّر ثم تتحرر حاملة معها الكثير من هذا الوحل والطين.

وفجأة، كنت انتبه على حاجز خشبي يعترض طريق السيارة فتتوقف السيارة، وتتوقف

معها الافكار. اما الحاجز فيرتفع آليا ليستقيم الطريق.

فرقعة في الاعماق. اعماقي انا. الافكار تنتفض كجرذ يخرج من مجرى للقاذورات.

وقريبي يهتف بمرح

- «وصلنا»

اندفعت السيارة الى «الجانب الاخر». اية معجزة؟! بل يا للعبة الحقيبة. كيف يتعاقب

«الاعداء»؟! كيف والدماء تسيل في مكان اخر بسببهم؟! ونحن على الهامش. نحن

الوقود. منذ اكثر من نصف عام ونحن على الهامش.. ومنذ الازل نحن الوقود.

لماذا؟!.. اللعنة!.. وتسميع السائل الزنخ الاصفر. وبدت ظلاله على وجوههم. في لحظة

ما، هذه اللحظة بالذات، جاءت ايضا اللعنة.. مهموسة لا تسمع على لساني. انهم يتعانقون

هنا ويقتتلون في كل مكان. اما نحن فكان البحر يحتفي بنا وحده. كان شاطئه عند اقدامنا. وهديره يهتثنا بسلامة الوصول. تمشينا على الساحل برهة لم يعبا بها احد. كانوا منشغلين في احياء مآدبة الزيف. وحين سيستقل الضابطان والارنبه الشهيدة، السيارة المكشوفة الصفراء، ويمجتازون جميعا الحاجز من جديد، فسينطقون بالحقيقة ولا ريب، ويلعلع الرصاص مرة اخرى.

كان قريبي شبه صامت. فهنا وهناك تبودلت كلمات عفوية لا معنى لها. وكان يحرق السيجارة تلو الاخرى، وانا احرق شيئا مجهولا يبدو كقطعة روث ساقطة على صفحة النفس، والبحر يمسح على وجوهنا بيد اثيرية دقيقة، ثم يصفعنا وكأنه يحاول اعادتنا من ذهولنا الى انفسنا المسروقة. وكان الشك يحوم كذباية حول لهفة قريبي المتلبسته منذ الامس، في انقذافه الى هذه اللحظة. لقد تحققت هذه اللفهة، ولكن هل حقا، اصدقته ظننا وتوقعاتها؟!.. رنوت اليه لاستشرف في طلعتة او حديثه، او سلوكه، ذلك التحول الجذري الذي كان يصبو اليه. للأسف لم اعثر على شيء من هذا. كان متوترا لم يزل، وسكناته وملء رثتيه بالدخان، كانا يفضيان بدخيلته الخائبة الظن، واضطرابه. والحرية التائهة اقتصرت على هذا التجوال القصير فوق رمال الساحل. اما من نهاية للمهزلة الكبرى؟!.. صمت في الافكار. في المخيلة تتشبث، بغتة، وجوه مألوفة وحزينة. اقتلعت هذه الوجوه عيوني بضراوة. لم اعد ارى شيئا سواها. والمحاجر الفارغة بركة طافحة بالدم. لقد كنت في مواجهة ساعة من ساعات البعث. تلتحم من ثم الأشياء المقطعة. اشلاء مسئولية بتر رأسها. ويعود الرأس الى مكانه فاتخيل اشياء افقدها الزمن المنصرم صوابها. الحرية تتسلم في رغامها صابية لرفع الهامة المطأطئة. نحن وراء الحاجز؟!.. من غير حدود ولا قيود.. كلمة واحدة يجب ان تقال لنا فينطلق من عقاله الجمود والاستعباد. والكلمة ما زالت محتبسة وراء السن تمارس الملق والاحتفاء المشبوه. ولعنت هذا العالم المرائي المنافق، ثم عدت وندمت. لقد كفرت بالمنطق. كفرت به حتى خيل لي، ان من الممكن ان ينبثق الصدق عن الرياء. وانقسمت بين حب وكراهية، وفقدت قدرة التمييز، وحملق بي قريبي مندهشا حين فاجأته بطلب سيجارة. ثم قلت وانا ابتلع الدخان عميقا واشعر بالدوار

- «لنعد الى هناك»

وتساءل كعهده

- «اتراهم سيعيدوننا لمنازلنا؟»

فقلت، اعاني من سعال متقطع مؤلم

- «لم اعد ارغب الا في هذا»

فتردد ثم قال بخيبة

- «اشعر وكان سحنة العالم قد انقلبت»

- «حماسك كان مبالغاً فيه»

فهمس

- «كلا. ولكني اجد في نفسي صراعا جبارا بين عناصر لا اول لها ولا اخر، فلا اعلم ماذا اريد»

ودخلنا الى النقطة. لفتت نظري الى صرتينا القابعتين في زاوية فاخذي الاشمتراز. وكان «الطرفان» يسخران منا في الارجح. ونحن منبوذان مقتلعان من الجذور. وتراقصت الوجوه المألوفة الحزينة، مرة اخرى، وراء الجبين. والعالم انقسم على نفسه واصيب بشلل نفسي. وهمست له

- «ما أقسى ان يجعلوك تشعر بانك لا اكثر من شبح اسود يتسكع في ظلام ليل حالك السواد»

فعاد يقول

- «اني تغيرت. منذ وصولنا الى هذا المكان لم اعد افهم كيف ساواجه الامور» ووجدت اني اتفحصه بدقة.. وبريبة كذلك

- «ماذا تشعر؟»

- «مشكلتي انني لا استطيع فهم مشاعري»

لكني هتفت فجأة

- «انظر. انهم يودعونهم.. ويملأون لهم السيارة بالبرتقال»

قد يتفرغون لنا بعد ان تحتفي السيارة وراء الحاجز. وظني في محله. كان «الكبير» الذي بينهم اول من «عثر» علينا، وقال مع ابتسامة

- «كنا قلقين عليكم طوال تلك الشهور»

اين مصدر كلماته يا ترى؟!.. ابتسامته لاحت شبه ابوية. وفجأة ظهرت الاصبع الاسطورية على صفحة الذاكرة. واستطرد

- «لعلكما قضيتما شهورا لا تطاق هناك»

فغمغم قريبي في آلية

- «الليلة الماضية لن تغرب عن بالي مدى العمر»

اما انا فتساءلت نيابة عنه

- «متى سنعود الى اهلنا؟»

قال الضابط بحنان أبوي

- «لن يستغرق ذلك وقتا طويلا. وسنساعدكما على العودة بأسرع وقت ممكن»

فهتف قريبي فجأة

- «احقا سنراهم اليوم؟»

قال

- «بالطبع.. بالطبع. لقد قاسيتما طويلا، وحان الوقت لان تعود الامور الى مجاريها الطبيعية»

تبادلنا نظرات عاجزة عن التعبير. وعلمت من سيمائه انه قد عثر على مشاعره الضائعة في حين ان الرعدة كانت تستأثر مرة اخرى بمشاعري. بيضة طازجة تتدحرج على امتداد منحدر. ويقينا ستتهدشم اذا ما بلغت النهاية، وتتبعثر اجزاؤها في الحضيض. وكان «الكبير» قد اختفى في غرفة اخرى، وصوته ينبعث متحدثا في هاتف. وقريبي يقتل ما تبقى من الوقت عن طريق قتل السجائر، ويراوده الصمت من جديد. والعاصفة التي كانت تدفع مياه البحر الى الرمال قد توقفت، واستقرت عند حدودها.. ورغم الريبة ورغم الذكريات الكئيبة التعسة ساورتني الرغبة في عناقه. كان هذيان الكراهية من نصيب ساعات الضعف وحدها، الان كان طغيان الحب، رغم وجل هذا الحب، يشطف هذا العالم، يقدم الغفران، ويصبو الى احتواء الكائنات باسرها. وكنت اخشى نوعا اخر من الضياع. اذ ان الجمود والانفعال لا يختلفان، وزورة الحب العاصفة، ربما تؤدي الى نفس ما تؤدي اليه زورة الكراهية.. من ثم، فتشت عن الاعتدال. وانفتح الباب وقال الرجل - «سننقلكما بسيارة الى موضع اخر. وستمكثان هناك يومين او ثلاثة. فثمة ترتيبات روتينية لا بد منها، ثم بعدها يمضي كل الى حال سبيله»

هنا، عادت وسقطت الاشياء. تجمد الحب والكراهية والاعتدال. لقد كانت كلماته كاللظمة المذهلة، اما عينا قريبي فقد قدحنا شررا مستطييرا.

الفصل الثالث

الجبل من فوق الوادي. حملت عاليا في صخرة تذكرتها جيدا. يومئذ وقفنا على الصخرة تلك وارخيننا لاعتيننا العنان، فانزلت الى هذا القرار السحيق.
قال احدهم بشيء من الرهبة
- «حاذرا من السقوط!»

كان للنزهة معنى يتطلع كل الكون. الان فقط ادركت ان محذرا كان يقرأ الغيب يومئذ. رغم تصرف ستة شهور ونيف، رغم ان اقدامنا لم تزل، رغم ان الصخرة ما زالت راسخة في موضعها حتى اليوم ولم يدهمها الانهيار.. فأن السقطة وقعت.
ومن عجب ان نصل هذا الوادي بعد رحلة اسطورية شاقة وعجيبية. وحاولت ان اقيس المسافة بين الصخرة والوادي، فبدا البعد تافها ازاء رحلتنا الطويلة، والاشياء المتغيرة في الباطن تكشف عن بون لا يبارى بين ما حدث وما يحدث الان. كلا.. انت لا تعيد الزمن الى الوراء.. فاللحظة التي تموت تتفسخ كالجيفة، وحطامها المتراكم في النفس ينفث هذه الرائحة المزمكة القاتلة. والتقت التنهدة بطلعته. شبه ميت. يلفه من الخارج هدوء ميت، يجعله يبدو من وراء كفنه كالاموات. قلت لنفسي ان القيامة ستقوم في ساعة قريبة. ولستها على بلادة افكار المتمردين على اساطير القدماء.. اننا حمقى اذ لم نمحص حكمة الاساطير هذه ولا رموزها. سامحته وعظفت عليه. بيد ان مغصا خفيا كان يقرص الاحاسيس ويصيبها بالأم حاد. اجل. القيامة حتما ستقوم.. لكن ماذا وراء القيامة؟!.. كنت اعلم بأن استمرار حبسنا يشطر حياته وافكاره، فالسجن لم يتغير رغم اننا في ساعات النهار نتجول كالاحرار بين الروابي والتلال المحيطة. قال.. اخيرا
- «ها قد مرت ايام ثلاثة وما زلنا في هذا المعتقل الجديد..»

وحسنت انه يريد ان يقول شيئا اخر. والوجوه الوديدة البعيدة تراقصت في مخيلتي مجددا. كنت اطمع في رؤية هذه الوجوه في غير هذا المكان، فهنا ستظهر ساعة اللقاء وجوه اخرى ليست وديعة، وستشوهه. وهو يقينا يعرف هذا، ويفكر بالوجوه الحبيبة والوجوه

المقيتة، ولكن بشكل هو النقيض تماما. كان هذا حافزا قويا من حوافز ايماني المفاجيء بالقيامة الاتية عما قريب، وظهوره هو بهذا المظهر من مظاهر الاموات. بعد قليل زفوا لنا البشرى. الفرحة امتعشت مثل قطرة مزجورة. وكان قريبي يعاني من ارتباك لم يحاول اخفاءه. راح ينقب في جيوبه، وعندما رفع اصابعه، هتف مندهشا - «القصاصه؟»

تمتم مربد الوجه

- «وعدتك، وقد آن الاوان»

واعتورني خوف غامض، فاردف

- «لا تنفعل ارجوك. كانت قد ناهزت الثمانين، وهذا عزاؤنا جميعا»

انتشلت منه القصاصة الخضراء. قرأتها بتبلد عجيب في المشاعر. رقي الى رأسي فجأة حدث غيبي، كان في الماضي مجرد اضغاث من احلام. استعدت بذاكرتي حلما كان يلح علي في قبونا المظلم بأقصى الشمال. الطلعة كانت نفس الطلعة.. اما الجسد فضباب يرتفع حاملا الرأس، وهو يتلوى كأفعى منتصبه على ذيلها. الساعة يعتريني ايمان راسخ بشيء جديد. ثم.. هذه هي الحقيقة الاخرى.. الجدة ماتت.. ذهبت قبل ان تتأكد من اننا على قيد الحياة. كنت اغرق في حزن ابله. وهي دفنت معها علامة السؤال الكبيرة المرتسمة حول مصيرنا. اما اللون الاسود فسيظهر مرة اخرى فوق اجساد كان يخيل لك انها قد نزعت عنها مذ بدأت الرحلة الملعونة. وكنت اتمتم بكلمات مبهمه بمثابة صلاة، ثم اندحرت الصدمة منزوية في اقاصي الادراك. لقد كان لا بد من الاستعداد. ولن يكون اللون الاسود على بدن امي بمحرك للدهشة، فانمسحت اسباب خوفي من قريبي واحبته كما في الماضي.. كانت الاصبع الاسطورية، تدب رغم كل شيء دائية على مسح السيئات.. مرة اخرى.

- «كانت الوحيدة التي احببناها جميعا»

الطرفان.. الطرفان!.. ومحاولة التحام الآخرين عن طريق المرهم المسمى بالحب، باءت بالفشل الذريع. كنت اجهل الاسباب. ما زلت اجهلها. وانت؟!.. عدلت عن نعته بالكلمات التي فقدت مضامينها. أفليس ثمة من امل في ان تسيطر ثانية معان جميلة كانت في الماضي؟!.. وها انا احلم بالوجوه الحبيبة بينما الطبيعة تنفر فجأة، وتخلي مكانها لخلجات صمغية تتدبق بالاحاسيس وتلفها بابهام غريب. وثمة وجه مهمول الحزن على صفحته ويصيبني بالغبطة. وهزة عاتية تكتسح الوجدان. يا للمجهول.. هذا الذي تحاشيت اقامة وزن له، يسمي الان عبئا ثقيلا كهذه الجبال. انه اليقين بعينه. وهو يقين مترمت في بشه تلك الاشياء الصمغية المكفنة للنفس بالضباب. ثم يذوب الصمغ وينقشع الضباب. كل شيء من جديد يتحرك. هرولات غير متزنة، وعناق، وعبرات منهمة من دون ارادة.. وفي الجانب الآخر، يتوقف العناق وتحتبس الدموع خلف سد.. كانت هناك اسرته هو معتصمة بسد الحقد. ثم تطلقه في وجهي كحجم جحيم. دائما مكثت على

جهلي بالاسباب الماسخة للابرياء مجرمين بدون مبرر. الا ان الكراهية لا بد تصنع المستحيل تماما كما يصنعه الحب. اما ان يتحول هذا الحب العذب الى بغضاء عمياء بلا سبب، فشيء يتعدى تخوم العجب الى آفاق الذهول. وهذه ثياب الحداد لم تنض بعد. وكأن لونها الوحيد الذي تستريح له الحياة مع الموت، وما عدا ذلك يبدو كهراء. باطل الاباطيل قال الجامعة.. كذب الجامعة. فالمأساة لا يمكن ان تدخل في عداد الاباطيل.. وانقشاع الاشياء الطيبة؟!.. وانتصار هذا اللون الاسود؟!.. والبصقة الحاملة خلاصة فلسفة الحياة وهي تحط على وجهي المتغضن.. تصهرني؟!.. وانا تمثال على وشك ان يتهاوى ساقطا على الارض كومة من تراب.

- «مجرم.. سافل.. دنس»

وامسح البصقة عن وجهي.. انظر اليها.. شقيقته الوسطى.. العا...
تماسكت لثلا اتمادى في الضياع. اليوم، تقف امامك في هيئتها المجردة من الزيف.. ما امر الحقيقة؟!.. والناس يجنون لأنهم جنباء.. كلا.. بل الحقيقة هي التي تثقب العقول وتجوفها.. الحقيقة، ضالة العقلاء.. ابدأ لن يعثر عليها قريبك هذا.. ويقتنصها الآخرون فيقتنصون نسرا جارحا.. ويجن الناس لأنهم عقلاء!

- «مجرم.. وغد.. سافل»

وتجوف التمثال واشرف على التداعي. قفزة قهرية الى ما وراء الشهور الستة المنصرمة. الشيطان بذاته لا يستطيع ان يمنع هذا. والبصقة الدنسة البشعة الحاقدة تستحيل مرة اخرى الى رضاب ثغر يشتغل بالشهوة. كان بلا شك تغريرا. وقحة سواء احبت او كرهت. لهيب لا يخبو. ولم تقف السنوات الاربع بيننا حجر عثرة. على ضوء القمر الفضي، تحت اغصان سنديانة هرمة في منأى عن اعين الناس، كانت تعريني من الطفل، وتنزع من احشائي، المراهقة. وجهها في الظلام كان احلى. وهسات انفاسها المضطربة مسموعة تتردد في اذني مع صعود صدرها وهبوطه. انغاما منسجمة يعزفها قيثار الحب الرائع. ورويدا رويدا تخدرني مع احلام الليل وحفيف الشجر واللمسة اللجينية القادمة من السماء صادرة عن بدر يضحك. وكان يخيل لي ان ضحكة القمر لا تمت الى غيرنا بسبب. و.. الاجساد تتلاصق. يهبط الفم عن جبيني حتى تستقر الشفاه على الشفاه. ساعتها تنقشع الهواجس والمخاوف باسرها. اوقن بأني رجل. ليس ثمة امومة ولا طفولة، فكل ما هناك، رجل وامرأة يتعانقان.

ثم التمثال يتحرك فجأة. والفم المتحجر يصدر صوتا اشبه بضحكة صرصار، يحرره في الفضاء. وفي موضع البصقة يحز شيء وهي مثل جمرة.. مؤلم موجع حارق. وقحة في جها وكراهيتها.. اما الحب فواها كان ولذا انتصرت البغضاء المقيتة.

وكذات مرات، في الغابر اللابعيد، والبعيد جدا، ولأسباب هي النقيض اصم اذني براحتي واغمض عيني واغلق حواسي، اموت، لاجابه الموت بالموت.. وشتان ما بين البصقة والرضاب الشهدي. والنار تدفئ وتحرق في الوقت بعينه. وكذلك النهر الذي يروي

ويغرق.. وقالت المرأة المتشحة باثواب الحداد، والنبع المتدفق من عينيها يتصبب بغزارة

- «لا تكثرث بما يحدث.. فديتك»

لثماتها تمسح اثار البصقة عن وجهي.. لا تمحوها ابدا. وانا، اخرون يحيطون بي فاشعر بطوفان الحب يغرقني لكنني لا البث موزعا بين هذا الحب وتلك البغضاء.. الشعور الثقيل الحزين، شبه دفين يغمرني بكظة روحية، وبكآبة. وأتأمل اللون الاسود، واتساءل - «كيف حدث هذا؟»

تقول

- «ليتنا نعيش العمر الذي عاشته»

ابدا. معاناة مجابهة السؤال الاعظم جحيم. وأنفجر كأنما بتأثير فرقة قبلية من الانفعال

- «كم كنت اود رؤيتها قبل ان تموت»

بأسى تعود وتقول

- «اهدأ.. يكفي ما قاسيته»

- «ماتت وهي لا تدري باننا احياء»

فقلت امي، تكاد تستسلم لدموع عنيدة ظالمة كانت تقاومها حتى الان - «انما استجاب لها الله. كانت بعد غيابكما ما انفكت تدعو الله ان يسميتها ويبيكك حيا»

كان الاخر يجلس بين اهله بعيدا في الطرف المقابل. تساوره امه وشقيقته الكبرى. هي، كانت تحرق بي. رغم بعد المسافة، كنت اتفرس في طلعتها. ثمة ظل رغبة حقيقية للفتك بي. يومئذ كانت رغبتها ايضا حقيقية. هي وحدها نجحت في المحاولة. محاولة انتزاع جذور الكراهية المتأصلة.. هكذا توهمت. الباكون كانوا يتظاهرون بالشفاء. وغمغمت كما في حلم

- «كل محاولات اصلاح ذات البين ضاعت وأأسفاه»

فقلت

- «انت بحاجة الى الاهتمام بنفسك، فلا تشغل بالك بهذه الامور»

- «مظهركم ومظهرهم لم يبشرا بخير وانتم تدخلون»

صمتت. تنحدر دمعة طرية على الوجنة المخددة. دمعة، ليست من تلك الدموع التي امتزج بها الف معنى جسيم. هي من نوع وحدها. تحمل معنى جديدا وخاصا هو الاخر. اللعنة.. انني اتخيل اشياء قاتمة ذات اظافر تخز..

- «يبدو انكم عانيتم منهم كثيرا»

تبتلع اللوعة ثم تصعدها حسرة

- «ستعرف ذلك في حينه»

- «كلا. اريد ان اعرف الان»
- «اتوسل اليك..»
- «بل ارجوك..»
- سهم تثقبه تنهيدة. وقالت
- «ماذا يمكنني ان اقول؟!.. الذي حدث لا يمكن ان يتصوره عقل»
- «اللعة.. خبريني بربك»
- ترددت. الالهة تلح عليها.. والكلام لا يريد ان يخرج.. الالهة.. بركان ذو الف فم.. الكلام..
- حمة متلاطمة متحشجة بين الافواه الالف.. واخيرا
- «اغاروا علينا بأجمعهم.. حطموا وشتموا وضربوا»
- «اللعة!»
- «ثم افتروا الف فرية. اوقفت خالتك واوقف خالك، وكل المعارف والاصدقاء. لم ينج منهم احد. جاءوا بجميعهم من اقصى مكان في الارض»
- اللعة مرة اخرى.. حرقت الارم في لحظة غضب هوجاء.. كنت ساعتها اعجز الناس
- «وكيف يحدث كل هذا بغياي؟!»
- «نحن ضعفاء.. ولأبنهم الاكبر معارف.. وظهير في الشرطة»
- اذن، اكتملت الحلقة. وهذا هو الشقيق الثالث، اكبر الاخوة، يأخذ دوره في الملهاة.. في المسأسة. والكل فعل من موضعه كأنها وفق خطة مصممة بمهارة. الا ان الاكثر ماثرا للدهشة، ان يدخل الاخ الاكبر مسار الحلقة الملعونة. كان هنا قبل اي منا. جاء ليتلقى علاجاً من مرض حار الاطباء به. كان ابي ينعته بالحكمة، وبالحكمة هذه كان يتحاشى دخول معمعة البغضاء التي احتدمت في وقت اجهله ولاسباب اجهلها بين طرفي الاسرة. وحين وصلنا، ووصل اهله اسرع يلحم الصدع الدامي المفتوح كجرح غير مندمل في جسد واحد. قال، فلتطو الصفحة القاتمة ولتبدأ صفحة بيضاء. وابي ميال للسلم بالفطرة.. رَحَبَ بالفكرة.. وضع يده بيد شقيقهم الاكبر.. كان يتخيل ان الصفحة الناصعة البيضاء قد بدأت تظهر بالفعل
- «كيف نسي كل شيء.. الماكر»
- فقال بتوسل
- «ارجوك. لا تشغل نفسك بهذا.. ما دمت هنا، فالكل يهون»
- «اغتنموا الفرصة، اذ ابي يرقد في قبره، وانا بعيد وفي حكم الميت، مغلول اليد والحرية»
- «لو كان ابوك حيا، لما حدث شيء من كل هذا»
- هل كان سيمنع الصدفة؟!.. لعبة البشرية؟!.. من يدري. افلا يجير اليأس احيانا الى الفاجعة؟!.. لكنكما يومئذ كنتما تضربان صفحا عن المتاعب كلها. اجازة من الحياة على رابية مخضرة باشجار التين. يا للسخرية.. والجبل يقهقه هائذا. رفعت عيني اليه وحدجته

بعتاب.. بضغينة. يومئذ، ما كان يجب ان اهبط بهاتين العينين، لاستشرف هذا الموضوع. ويومئذ، قال الجبل، لا شك، في نفسه يتوعدنا «سألقيكما الى هذا الوادي عبر رحلة مداها ستة اشهر، هي اغرب من كل خيال». وكان يخشى ان يلقي بنا الى احضان الدرك الاسفل في دفعة، مباشرة وغير مراوغة، كي لا نتحطم وتغدو اجسادنا اشلاء. قال بيقين «الجسد يتقن التستر على اشلاء الذات، ولهذا لا بد من ان يبقى ويحافظ على هذا المظهر، سليما من كل سوء» وانتصرت ارادة الجبل. مرحى!.. حقا ما انفك الجسد يبدو سليما ومعافى. وانتهت الزيارة مع حلول الظلام. وفي هذا الظلام احتجب الجبل وغدا عدما الى حين. وكان مفروضا ان نعود الى ززانتنا داخل الموقف. فالليل يحبسنا داخل جدران وقضبان حديدية. وكان يبدو لي ولأول مرة، اني افلح في ان امسك باسباب المماطلة في اطلاق حريتنا. واذن، فهنا ايضا ثمة اتهامات واعتقالات وتحقيقات. واستغربت ان كان يكفي ان يتهم شخص ما بتهمة ما كي يُقضى عليه تماما، ثم تبينت سخف استدلالى. فقد كنت اثق بالعدالة ثقة عمياء. لكن المعاول عادت تضرب في متاهات النفس المجهولة. والاشباح بدأت رقصاتها الهمجية على ارض اثيرية خراب. كل الاشباح، التي لم يمض وقت طويل منذ كانت راقدة مخدرة بهدوات امل واعد بتجديد الحب والحياة. واستيقظت الاشباح فجأة. كانت تمتلك اعنى قوة على استحضار كل ما هو منتم الى عالم الفناء. وتعتور الحياة لفحة غشائية مصنوعة من رعب ومشاعر باردة مسمومة. والتدمير كالصرخة الممزقة لكل احساس طيب. فجأة، وعلى غير توقع، تتلبسني كراهية فظيعة دخيلة، يركبني هلع..

- «اذن، وضعوا القرية على لسانك.. اعموا عينيك ببريق الزيف من جديد»

فيتبجح، مصطك الاسنان في حقد اسود

- «لم تعد لعبة الخونة تنظلي على احد. كان لك من يحميك هناك.. اما هنا فلم يبق لك الا الموت»

- «تصورت كل شيء، الا ان تصدق كل ما يوحي اليك بدون تفكير وبصيرة، وكأنك عقل آلي يعمل بما يريد له سيده المتحكم فيه»

ثانية قهقهة. لم اكن متفرغا للحكم عليه، حكما نهائيا، رغم سقطته الجديدة هذه. كان الاشتمزاز والمرارة الكلمتين الاخيرتين المنطوقتين بعفوية في كل ما يحدث. وكنت اسمعه يغغم وحيدا، من خلال غشاوة مظلمة توشح حواسي وتبدها

- «لم اعد وحيدا.. العالم كله يقف الان بجانبى. وسأنتقم. لقد مرغتني بالقاذورات.. جعلتني اصم ذاتي بالحقم والتفاهة، ولن يتكرر هذا بعد الان.. اني اعدك.. سيقطع من جسدك الدنس هذا جزء على كل جريمة اقترفتها.. وسيرمون بأوصالك المقطعة للكلاب.. لن تنجو هذه المرة.. ابدأ لن تنجو»

تمسكت بالقضبان الحديدية، ابثها رعدتي المتصاعدة. لقد هياؤه للجريمة. اعدوه لها اعدادا فذا. لم يتركوا له من نفسه خلية واحدة يمكن اعادته الى نفسه هذه من

خلالها. بمجرد ان رأهم اختطفه البريق. بكت امه، وبقينا حشته اخته الكبرى بالمفرقات. عندما اراد ليلة السرداب ان يستبق الاحداث، كان لا شك يهفو الى الاحتماء بهذه القوة الزائفة المستمدة من حمقى يكرهون الحياة.. وها به قد تقمص القوة هذه.. القوة التي نفخت به جنون الحمقى مرة اخرى. وكنت اخشى ان يمضي بقوته المجنونة هذه فيخمد انفاسي، او يطفىء عين الشمس. وكنت حريصا على افشال اندفاعه، ليقيني، بأن الغد سيذيب الفقاعات ويبدد كل اوهام البغض الحمقاء. ولذلك، كنت مضطرا الى طلب النجدة.

صاح الخفير بزجر متأفف

- «يكفي ازعاجا، واذهب الى فراشك»

لكني كنت قد صمت

- «سأظل اصرخ حتى انتقل الى مكان آخر»

ورمقني الخفير برية واستغراب، وكان قريبي مقرصا في زاوية صامتا، كالح الوجه

- «بقاؤك مع قريبيك اولى من ان تقضي ليلتك مع احد المجرمين»

فصرخت محذرا

- «لن تنقضي هذه الليلة على خير، وانتم المسئولون»

- «انتظر اذن»

وما ان مضى الخفير، حتى عاد قريبي وتحفز. وقال انه سيقضي علي قبل ان اتمكن من مغادرة الزنزانة. ولأن المجرم يجب ان يموت، ولأنهم يريدون موتي لأني مجرم، فإنه سينوب عنهم في تنفيذ هذه المهمة، دون خشية من تقديمه الى المحاكمة بتهمة القتل. فهو انما سيخلصهم مني، وانهم جميعا يقفون في صفه، اما انا.. فليرحمي الله.

وبدأت المشادة قبل عودتهم، وعندما جاؤا كان يمسك بخناق، ويشد على شعري، ويضرب رأسي بالقضبان الحديدية ضربات متتالية. وفتحوا الباب بسرعة، فسقطت على الارض خارج الزنزانة، وكان قريبي ما زال ممسكا بي، فسقط فوقي. ادخلوه الى الزنزانة بعد ان فصلوا بيننا، اما انا فقد ساقوني الى زنزانة اخرى بعيدة، فتحوها فدخلت، ثم تركوا الباب مفتوحا واختفوا.

وفي البدء سهيت عن رائحة كريهة كانت تعبق هواء الزنزانة. ثم شرعت الرائحة تلك تخترق خياشيمي وتلسع رأسي ورثتي. وفي الزاوية القصوى من الزنزانة شاهدت بقعة بنية كبيرة تنحدر من اسفل الحائط نحو الارض. كانت هذه البقعة مصدر الرائحة الكريهة. بول قد جف ومضى صاحبه. انهم يمضون جميعا، لكن البعض يترك اثارا تبقى. وذاك المجهول الذي ذهب، اثر ان يترك هذا الاثر. غامق وكثيف وله رائحة بغيسة. وكان يمكن ان يعبر عن بغضاء او ربما عن شيء آخر.. مجرد كسل او اضطراب. وهربت من البقعة متلافيا الغثيان، بيد ان هذا الغثيان كان حضورا لا سبيل الى التحرر منه. وفي الزاوية، حيث قرفصت، لم التق بغير القذارة والتراب والهواء الخانق الكريه.. غثيان لا

بد منه. وامام عيوني تضحك البقعة الكبيرة، او تن، او تعبس من خلال واقع قد انطوى.
مخلقات حقيرة صغيرة لحق الانسان. وتصطبغ الحياة بهذا الحمق فتتمثل على شكل بقعة
بول جافة في زنزانة عفنة رطبة، تسلب فيها حرية الانسان وظلاله. وقربي يسهر الليلة
وحده منقبا عن وسيلة تطيع الحياة بحماقته الذاتية بعد عجزه عن اخاد انفاس الحياة
المسكينة هذه. ويشمخ في الخارج الجبل ومن فوقه الطبيعة رائعة كما يزعمون. ها قد بدأ
التين ينمو من جديد على اشجار القرية، بتلقائية تعسة ومن دون ارادة. وينمو ايضا
الانسان ويشيخ ويكره بلا ارادة ويحب. وكانت الطبيعة جامدة وبلهاء وصدى محضا
لحس هذا الانسان العاجز الاحمق. وقريبك في زنزانتة عينة صادقة لهذه الآلية، من حيث
ان العقل والارادة والاختيار اشياء حكم عليها بالاعدام بنفس الآلية المجرمة تلك.
وتعيش الغريزة البهيمية التي منها انطلق الانسان الى انسانيته، ثم ينبعث فجأة عواء
مخيف مزعج. انتفضت على صوت العواء وعمت ثانية فوق السطح. وتبينت بعد قليل ان
الصوت المرعب حقيقي بيدر من الخارج. كلاب تستغيث على لساني رجلين. وأنتهما.
والاحساس بالغثيان تصاعد حتى الذروة. وكان عدد من رجال الشرطة يدفعون الرجلين
صوب زنزانتى وهما يعويان كالكلاب.. ويكيان بكاء طفوليا كان يعلن عن ان جسديهما
العملاقين ليسا الا مجرد وهم. وعلى وجهيهما شعور شائكة مسترسلة مكونة ذقونا
سوداء غير مشجبة. وغابات الشعر الاسود على الوجهي عاجزة عن اخفاء الرعب
الجنوني المبعوث هناك بشحنات رهيبية.. يكيان ويتوسلان. واحذية الشرطة الثقيلة
تركليهما باتجاه الزنزانة.. وهما يقاومان بدافع الغريزة وحدها، ثم اخيرا يسقطان تحت
قدمي ممرغين بالتراب وبالبول الذي تراكه ذلك الانسان المجهول. وتطبق القضبان على
الزنزانة، ويستدير المفتاح داخل القفل دورات متتالية ثم لا يبقى من حولي الا البكاء
والعويل.

كان يجب ان اعلم كيف يمكن للرجال ان يبكوا بهذه الصورة، الا ان الذهول كان اقوى
من الفضول. امعنت النظر فيهما. لو كفا عن البكاء لكانا مثالا للقوة بعينها. وزادني هذا
رعبا. والمفاهيم باسرها تهاوت الى درك سحيق. وقلت

- «تصرفاتكم لا تليق بالرجال»

احدهما، هفا الى بروعه ودموعه وجزعه. تحرك في اتجاهي بكيان صاد الى شيء مجهول.. ثم
في بغتة لا معقولة تداعى الى يدي يلثمها وهو يش انين حيوان مثخن بالجراح
- «استحلفك الله.. دعنا نبقى هنا..»

سحبت يدي من تحت شفاه المسعورة بحركة صارمة. تسمرت انظاري فيه والتصق
عقلي بكلماته الغامضة.. ماذا يعني؟

- «أهدأ وخبرني بما حدث»

تحككا بالارض التربة كخراف جرباء.. وكان من الواضح انها فقدت السيطرة على ما بهما
من إنسانية، كل شيء كان بيدر في تلقائية الرعب الاعمى، وقال احدهما

- «اقسم اننا لم نجن شيئا»
- «لا افهم»
- «غدا سنسلم (للجانب الاخر)، والمشنقة في انتظارنا هناك»
- «لماذا؟»
- «لم نفعل شيئا.. اقسم اننا ابرياء»
- «من اين انتما؟»
- «من هناك»
- «لكنكم هنا»
- «ولهذا حكم علينا بالاعدام هناك»
- «لماذا؟»

فقال احدهما بتوسل

- «بالله عليك لا تدعهم يسلمونا لحبل المشنقة؟»
 هل فهمت؟!.. ابدا. الصورة، كانت واضحة لكنها شديدة الغموض.. تضيع الافكار احيانا في غيبيات لا جدوى منها. وفنجان من القهوة الساخنة، اللاموجودة في هذه الساعة، ما كان بامكانه، رغم افتقادي اياه، ان يحل الالغاز. ثمة رجلان من الطرف الاخر، موجودان في هذا الطرف، ومحكومان في الطرف الاخر بالاعدام بسبب وجودهما في الطرف هذا، ويعيدهما الطرف هذا للطرف الاخر لينفذ فيهم الطرف الاخر حكم الاعدام.. لماذا؟!.. واية جريمة اقترفها؟!.. واقسما، ان جريمتها الوحيدة وجودهما في هذا الطرف، ولماذا هما موجودان في هذا الطرف؟!.. لا شيء خاص.. أحسبا ان هذا الطرف افضل.. ولهذا حكما بالاعدام؟!.. واقسما مرة اخرى على انها لم يقترفا اي جريمة.. وضعت بمتاهة.. وحاولت ان ارسم الصورة من جديد.. كان هناك العديد من الاحتمالات.. احتمال الكذب في ما يقولان.. ربما لم يكونا بريئين كادعائهما.. ربما اقترفنا ذنبا عظيما.. جريمة.. وعاد القسم يؤكد على براءتهما. وكنت اميل الى تصديقهما، ليس لانهما اقسما، بل لان قسما اخر اخرس كان يلعلع على وجهيهما ويؤكد على صدقهما. لكن لماذا يسلمهما هذا الطرف للطرف الاخر، والطرف الاخر في نظر الطرف هذا «اعداء»، والرجلان، متهمان بخيانة الطرف الاخر، اي بخيانة «الاعداء»؟!.. لم افهم شيئا. لكني تذكرت اننا ايضا اثنان، والطرف الاخر سلمنا للطرف هذا، فلا بد من تسليمه اثنين عوضا عنا.. لكن الامر يختلف، فالرجلان سيموتان حتما لو اعيدا الى الطرف الاخر.. وتهت مرة اخرى.. لم افهم ماذا يحدث، وقال احد الرجلين يتوسل مرة اخرى

- «بالله عليك لا تدعهم يلقيان بنا الى اشدق الموت»
 وابتلعتني ضحكة بلهاء.. وخيل لي، ان اشياء جديدة كانت تحوم حول رأسي، لكنها مشوشة مضطربة، ومن خلال دهشتي، واشمئزازي، وغثياني، ومرارتي، وحيرتي، كان طوق غليظ من خوف كامن، ربما لا اساس معقول له، يطوق ذاتي كسوار من حديد...

كانت الاشياء لا معقولة، ومهما حدث، فهذه الحكاية الغريبة، المستعصية على الادراك
ستظل تخيفني.

الفصل الرابع

ساعة جديدة في معصمي. أرفع يدي قليلا فأجدني في اللحظة التي انا فيها. احيانا، يحلو للانسان اللهو بظنونه. في تلك الساعة من الصبح الباكر كانت مشاعري ممتازة. أكلت بشهية واستهنت بالجبل، والاغرب من هذا أني احببته. اليوم، كنت ممتلئا بشعور يربطني بالاشياء. وما دمت قد استيقظت على حب الجبل، فأني شيء يمنعني من حب قريبي مرة أخرى؟!

ايام ثلاثة تقضت ونحن لا نتبادل كلمة. منذ ان فصلونا وانا اشعر بالذنب، كما لو كنت انا الذي اساء اليه. اني لم اقلع عن الحديث معه بدافع كبرياء، فالغالب انه لم يكن يرغب في مبادلتي الكلام بدليل وجهه الذي كان يوجه الي اقدح السباب كلما حطت عيوني على قسماته. قلت، انها ازمته ولا بد انها ستزول، كما زالت من قبل ازماته الاخرى. ثم تماديت في الثرثرة مع نفسي، فقلت كذلك، ان الانسان ليس دائما مسئولا عما يصدر من كلمات عنه، وعما يشعر في بعض الاحيان. وهذا جعلني اعتقد بأن حقدي المتكرر عليه ليس الا نزوة من نزواته بالذات. فصفت عنه بأخلاص، لكني لم البث ان ضعفت بعد ساعات عندما اشتد العواء داخل المبنى الاصفر الكبير. رأيت على الجبل الذي احببته فجأة، رجلين مشنوقين. هبطت الى الوادي. انقض سرب من غريبان على جثتين مطروحتين في العراء على الصخور. اغمضت عيني، فانتصبت خلف جبيني انشودة المشنقة وكانت تتأرجح في الريح بفمها الواسع كالدينيا. نفضت رأسي لكي اتخلص من البقعة. اني لا يمكن ان اسقط في هفواته. صحيح ان الوقت قد انسرب من القرية المشنوبة منذ خرجنا من السرداب، لكن المستقبل ما زال جنيينا في بطن هذا الزمن المنداح. دأب هذا البطن ان ينتفخ ثم يجھض. وبين الانتفاخ والاجهاض يتربع المجهول.

تجولت بين الروابي قليلا. الان، وليس كما في الصباح، استوعبت مشاهدها بنصف وعي. كان النصف الاخر من وعيي منفتحا لاشياء اخرى، كثيرة الالوان، لكنها مضطربة

ومبلبله وغير متناسقة ابدا. ثم انتهت كلها اخيرا عند حقيقة فيها شيء من التعاسة. ان الشرطي «اسحق» يكثر من اهتمامه بقريبي، ويتجاهلني عن عمد. في البداية كان مجرد انسان عادي. لولا بزته الرسمية لامكن القول انه رجل يقبل على الحياة والطرب والناس. كان يحبنا كولديه. عزم لنا على عوده وغنى كذلك. قال، انه في احد الايام كان رقبيا ثم نزع رتبته عنه لخطأ ارتكبه وتسبب عن عجز دائم لشخص بريء. شاهد ليلة شبعا يسري في العتمة، ادركه خوف طاغ على حياته فاطلق النار من دون انذار. قلت له

- «في الواقع انك لا تصلح للمهنة هذه، لكثير من الاسباب» فضحك وسب رؤساءه ثم قال

- «لست عدوانيا. ولا اعمل حبا لسواد اعينهم. انني ارتدي البزة هذه لأعيش. وقد اصبت ذلك الرجل من اجل أن ابقى حيا ايضا، الا ان الحادث سبب لي ألما ومهانة» ومن قبل ان أتأمل ما قاله امسك عوده ومضى يعزف ويغني ويهرج... يتجاهلني الان عمدا. واهتمامه بقريبي يتزايد. وهذا يعني انه ينحاز.. فلماذا؟!.. علمت من امي في آخر زياراتها، ان هذا الشرطي شوهد وهو يرتاد منزل قريبي أكثر من مرة. لا شك اذن، ان اهل قريبي دعوه لزيارتهم، لأغراض تتعلق بي. انظلت الحيلة عليه. ففي منزل تكثر الاناث فيه، يدخل الرجل ليخرج من بعد رجلا آخر. خصوصا لو كان ذلك الرجل، «اسحق» الشرطي. واذا كان الاناث.. كلا. فالأحرى انها مناورة تستهدفني. شقيقته لا يمكن ان تبذل مع غيري. رغم العاطفة الطائشة المتأرجحة بين الحب والكراهية بنفس الحدة والعنف والعشوائية. مع ذلك فقد غمرني اهتمام الشرطي بقريبي، بغيرة عمياء عليها. وفي لحظة تائهة في بحر الزمن المنساب، رثيت لجميعنا دون استثناء. وتلك التي احببتها يوما بكل وجداني لم تكن الا الوهم. وتزوجت الكهل لتفرض نوعا آخر من هذا الوهم. ثم تشرق الشمس على قشرة الصقيع الشتوية الصباحية لتبدده عما قليل. الأخرى وحدها كانت الحقيقة المحضة. بين القبلة المتهالكة والبصقة المتهالكة ايضا. والحقيقة هذه، عقرب يسري بين شفتي وخدي بدبيب له قشعريرة تثقب الامعاء برعب محو القسمات، وتمتد يدي نحو خدي لتقطف منه البصقة وتعيدها لفمي. اني امتصتها. قطعة من حلوى شهيدة امتصها بشغف. اليوم وقفت امامي عارية من الزيف ومن الحقيقة. شع ندم في تلك الدعوة الصارخة من عينيها. وشفتاها مرهفتان ومقلصتان. وابتسامة حبيسة خلفها وتحاول ان تفلت منها لتقصدي.. كلا.. لا تطلقي الرصاص القاتلة، بل فسري اولا هذا الجنون.. استأذنيهم في اللعنة المسماة بالصفح. البصقة الأولى ابتلعها، فلا تحاولي استعادتها من قبل ان اعرف ما معنى هذه البصقة الأخرى.. هذا الشرطي الذي يحب الحياة و «الناس» معا...

بعد ان ذهبوا جميعا، حاولت ان اتحدث اليه. كنت اخشى ان يرتكب الشرطي في بيته حماقة

بسببي. وما بدأ منذ شهور ستة ويزيد، اخلى طريقه مجدداً لشظايا امور قال المنطق واجزم على انها تعفنت وانتهى الامر. الان، بعد ان ثبت لي ان المنطق ليس دائماً الصادق، اكتسبت الاشياء الممزقة تلك، حياة جديدة ففاحت منها رائحة عبير وردي. علاقاتنا قد حيكت على اسس حياتية بحتة. جبالها متينة. ليست من صنع قرابتنا، بل حصيلة ساعات خلواتنا الطويلة وصبانا ومعاناتنا المشتركة، واحاسيسنا الغرة. والقنابل يمكنها تفتيت الاجسام، لكنها تخفق في تحطيم الاحداث.. الماضي.. ودعوته ودعوت قريبي. اشاح عني باستهانة. وبسبب مشاعري الطيبة اليوم تنازلت عن رغبتى بسهولة. اذ لم اشأ تعكير صفو احاسيسي الممتازة مرة اخرى بصفعة اتلقاها من نزوته وهي ما عتمت في ذروتها. ودخلت الزنزانة، فاكشفت اني توغلت قليلا في نفق المستقبل الذي كنت اتحاشاه.. وقلت، لا بد سيزول عن تلك السحنة العابسة الغاضبة لون حريقها الملهب الناري.. فثمة شيء واحد ثابت من دون الاشياء.. الزوال. في الزنزانة هذه، شمت رائحة الزوال الحريفة. اين صاحب البقعة القذرة المرتسمة على الحائط والارض؟!.. والعواء البشري تبدد في الخلاء ثم تورأى.. لا.. من قال انه تلاشى؟!.. لولا انه طن في اذني لما تذكرته. في صباح اليوم التالي زال كل شيء الا طنين هذا العواء. كان عاصفة تزار. يخترق صفيها الثقوب والثغرات وينفذ في ارجاء العالم.. يحطم جدار الجبل الشامخ فيتهاوى الجبل فتاتات ويتساوى مع الوادي. عاصفة. في كل مكان عاصفة. والمذيع في الطرف الاخر يردد، وبصفاقة، اعلان تنفيذ حكم الاعدام بخائنين يدعيان عبد الفتاح راشد وجميل قدرى، لانهما اجتازا الحاجز الى «الطرف الاخر» هذا..

وصرخ عبد الفتاح وهو يمرغ جسده الضخم بتراب الزنزانة، وببول الرجل المجهول.. لثم يدي وهو يعوي ككلب مسعور

- «اقسم اني برىء وزميلي»

وهدر العالم بزعة جميل قدرى الصاعقة المنفجرة المتساقطة كذرات شيء متفسخ

- «بالله عليك.. قل لهم ييقوننا.. اننا لا نريد الموت.. لا نريد الموت!»

وضحكت الضحكة البلهاء مرة اخرى.. مرة لم احص عددها بين السمات. حقاً. المعجزة الكبرى ان يبقى الانسان حياً.. ان يعيش هذا الانسان.

وقال الحارس وهو يفتح الباب ويقدم الطعام

- «كل بسرعة وجهاز نفسك. فبعد ساعة ستغادران هذا المكان»

وامتثلت رغم رائحة البول التي كانت تمنع الشهية وتصيب المرء بالغثيان. وكان دوي

العاصفة يتحطم على صخور الجبال الشاخمة. ثم يسقط صريعاً بين الحفر والاخاديد. وكان

شيء مقته منذ ستة شهور يحاول اغوائي، لأغفر له وارحب به. مرة اخرى.. المستقبل..!

وقال لي وهو يضحك خيالي بعطر زهور وبآمال «اقلب صفحة جديدة».. لكني فكرت

بقريبي. وكنت اتمعن في وجهه وهو امامي خافض الرأس. وسيارة الشرطة المكشوفة

منطلقة بسرعة، وتهزنا وتقلع قفزاتها منا الاحشاء. وكنت ارسم في وجهي ابتسامة حيية.
ثم بعد لأي افلحت في ان اهمس له

- «اطمن!.. فكل ما حدثني به عن التحقيق هناك، سيبقى طي الكتمان»
ورمقني بازدراء، ثم تفجر شيء في وجهه ففرقعه صداه في استنكار في لهجته العصبية
- «اتهددني؟»

من حسن حظي، انه مثلي مقيدة يداه. ولعلمهم وضعوا الاكبال في ايدينا كي لا تتكرر
المشادات الجسدية. وكان يبدو الآ خطر من المشادات الكلامية ما دمنا مقيدين.
وقلت بصدق وبرود

- «لن انسى صداقتنا.. اما انت فحر»
لولا عنادي، لانتزعتني صحكته الساخرة المتشفية مني، من موقعي نحوه. كان، وكأنها
يتخيلني وحشا قد قلمت اظفاره فغدا كلبا ممتنها. واذاف بنزعة تلك
- «لا يملك الكلب الا ان يلحق ويتذلل حين يعجز عن ان يعرض.. اما انا، فسأفرغ كل ما
في جعبي.. سأدمرك.. سأقول..»

من دون قصد، اخفت بقية تهديداته. يقينا ان الفضاء سمعها عني.. فأنا لم اعد اجلس
حذوه بعد.. ستة شهور وبضعة ايام.. لم يمض على الرحلة الا اسبوع واحد.. طوار
طويل يخترق مبنى المحكمة العسكرية في «الطرف الاخر». في مؤخرة الطوار على اليمين
باب قاعة المحكمة، وامام الباب حاجز حديدي من قضبان.. خلف القضبان جنود
موقوفون يحدثون لغطا.. يتحدثون عن تعلم اللغة الانجليزية وعن التطوع في الجيش..
نحن مبتلعين بينهم. الغرفة فسيحة ونظيفة وكثيرة الضوء نهارا. من العجب، ان الدكة
الاسمنتية كانت تجثو هناك كذلك. غالبا ما نمنا عليها وحدنا في الليل. اما الجنود فكانوا
يتغيرون بالساعات. ليس معقولا المقارنة بين برودة دكة الموقف في المحكمة
العسكرية والدكة الاخرى في سرداب الامن العام، فالنوم على تلك الدكة لم يكن
متيسرا فقط، اذ كان المرء يجني منه بعض المتعة بفضل رطوبتها المنحدرة الى
الاجساد المحرورة. يومئذ كان الخريف. والطقس يتأرجح بين الحرارة والبرودة. والطعام
فاخر ويقدم سخاء. حين اخذوه مني، كان قد فرغ من توه، من تناول وجبة الظهر. عدة
حبات من الكوسا المبحشة بالرز وقطعة لحم دسمة وكمية كبيرة من الخضار المسلوق
مع موزتين كبيرتين. وانتظرته ساعات طويلة. لم يرجع. ثم اوشك الليل على
الانتصاف. لم يرجع. وادركت ان علي ان اقضي هذا الليل وحيدا. اقنعت نفسي بأنهم
سيعيدونه في الصباح الباكر. ثم حين لم يرجع في اليوم التالي كذلك، عانيت من عراء
رهيب. كان اشفاقي على مصيره ينمو مع الوقت وغيابه. وقال الذين سألتهم عنه
- «لا تخش. سيعود في فترة وجيزة»

- «لكن لماذا اخذوه؟»

- «لانه اكبر سنا منك»

- «وماذا يعني ذلك؟»

- «يعني ان التحقيق سيعتزل مع بالذات»

- «واين يقيم الان»

فقالوا بهدوء

- «اطمن.. انه بمكان آمن وسيعود اليك بسرعة»

لكني مكثت مع الخوف. لم اسيء الظن بالناس قدر ما اسأته في فترة غيابه عني. ومصيره ذبابة تحوم في رأسي وتزن في اذني وتشحني بوساوس. خدرني التعب واليأس فاسلمت بدني للدكة الاسمنتية واوليت الدنيا ظهر وعيي وادراكي.. هربت الى ملجأ الانسان الاعظم. وحين استيقظت، ابتلع كياني مشهد احذية بمواجهتي تحت الدكة تماما.. اربعة احذية.. زوجان.. والاحذية من نوع اعرفه حق المعرفة. والتقطت اذناي كلمات قربتني خطوة عملاقة من هذا العالم الذي كنت فررت منه. ومسحت عيوني ونهضت. كان ثمة شابان يجثمان بجواري على الدكة. وبادرتني احدهما قبل ان التقط انفاسي

- «انت من هناك!»

- «كيف عرفت؟!»

ضحكا. اشار الاخر الى حذائي، فشاركتهما الضحكة. قال الاول في ثقة لا تتزعزع - «لقد فررنا. اهلنا الحقيقيون هنا.. سلمنا انفسنا في الصباح. وتجري الترتيبات الان

لاطلاق سراحنا قبل حلول المغرب»

الا أن الاخر اضاف بشيء من شك

- «قد نقضي ليلة واحدة هنا، في اسوأ تقدير.. وانت؟!»

قلت بعفوية تامة

- «انا؟! لا ادري شيئا ابدا»

ورعشة خفيفة سرت بمفاصلي وكانت رغم خفة وطأتها لزجة يصعب التخلص منها. وكان لسان بذيء قد بدأ يهتز في رأسي ويسب هذا العجز المطبق على خناق الانسان.. انسان دون سواه.. اصل هذا العجز يكمن في القوقعة العظمية الانسانية القذرة المطبنة بقاذورات، ضخمت نفسها واوهمت الانسان بانه صاحب الامر المطلق في هذا العالم. قاذورات اطلق عليها عفوا اسم العقل، وهي اعجز عن ان تكشف ما يجري الان خلف هذا الحائط. حشرة حقيرة منتفخة بغرور. ما ان يدغدغها المجهول حتى تنكمش وتفوخ. انها الان منظوية داخل الجمجمة وعلامة السؤال تمتد بشكل سلك فولاذي يطوقها من كل جانب. بكرة جافة تتقاذفها جدران الرأس الفارغ فتخشخش مع كل سكتة. ثم يأتي هذان الشابان المتعجرفان فيضغطان على تلك البكرة.. ومرة اخرى فرقعة ثم صمت لاهث متحشرج.

وكان في الخفاء خوف يتفاقم. وفي خلال ذلك كله نفق تمرق اللحظات منه وتمر

الدقائق والساعات والايال. ونفق آخر يسقط الطعام فيه ليلقى الانسان.. وانفاق اخرى تقذف فضلات هذا الانسان، لكي لا يتسمم ولتتم اللعبة المسلية لاناس مجهولين. ثم تستقبل المعدة وجبات اخرى. والجسم يفرغ سموه وفضلاته مرات. والعجرفة تصدق في الظن. ينتعل عندئذ الشابان احذيتها. ينطلقان للحرية عملاقين من صنع غرور منتصر حاكم. وانا خلف القضبان، دودة تلفحها ريح صرصر. نفخة الخوف تطوحني حتى عن ارض تهاوى عليها كل الاشياء المهشمة الميتة. اترنح بفزعي على مصيره. واحتضن الارض الرطبة. التصق بها في قوة لأظل قطعة من هذا الوجود النافر المتبريء. وحذائي بمحاذاة انفي.. خبيث اصفر. الملح فيه افواها تنفرج عن بسمة عقرية عبقرية المكر. انه صنو تلك الاحذية المنتعلتها الحرية الساعة. لكن الوجد سار بي الى هذا الدرب الاخر الوعرة، ووقعني في تهلكة لا ريب فيها. ويغمر الاصفر الكائنات برمتها، ثم يغمر ويتخثر فيغدو غيمة ضبابية تتكاثف في سرعة حتى يعم سواد حالك.. واللاشعور.

ثم حين استيقظ، اجده بجواري. كانت فرحتي برجوعه اكبر من ان توصف. لقد كان هذا يعني اننا نجونا ولو الى حين. مع ذلك استغربت. لم اشهد فرحتي بعيونه.. اني حقا لم اجتز تجربته. يومان من التحقيق المضي، ليلتان من النوم المقرف يتخلله لسع البق في زلزلة متأكلة خشبية بشكنة جيش. لم يكن من ذلك اي مناص. كان لا بد لقريبي ان يمر بهذين اليومين.. اما انا، فكنت في نظرهم طفلا، لا يعتد به.. بيد ان ما مر في رأسي في هذين اليومين قفز بي نحو عشرين عاما.. فكنت رجلا بكل معنى الكلمة. وهنا، مشاهد خضراء ما عتمت تركض في اعيننا. متى واين سنثقف؟!.. والحديد البارد يعود ويوجد حول المعصم. لقد كنت نسيته حيننا. الان، كانت تضربه الريح فتجمده فيشبعني لسعا. واكثر من ذلك، انه عض يدي بفضاظة عندما حاولت ان ارفعها كي اطرد عن عيني خصلة شعر القتها الريح من رأسي ومضت تصفع بها وجهي. ولم يكن ثمة جدوى من اعادة الخصلة الى رأسي، فبمجرد ان هبطت يدي اعادتها الريح الى وجهي. والحقيقة انها كانتا يدي وذراعي مع اصفادي الباردة، مجتمعين. كان ذلك كله لا بد وان يعمل من اجل انجاز تافه لن يدوم لاكثر من لحظة. لكن شعر قريبي كان جعدا منتصباً لا يهبأ بهبات الريح.. كانت اشياء اخرى، تزعجه، لا شك. ولم اعرفها فقد كانت متخفية في جوفه. وكان لا بد يحملق في جوفه هذا بعد ان قذفني بالكلمات التي لم اسمع معظمها.. هكذا، لم يكن قادرا، وكما خيل لي، على تلوين وعيه باللطخات التي يكشفها لنا الزمن من خلال طبيعة تطويعها العربية عدوا. كنت اشاهد هذه اللطخات الان بوضوح، بعد انعتاقي من قبضة خرافة.. هراء. انا لا يمكن ان احيا خرافاته. فما وقع هو اليقين الوحيد الذي يمتلكه الانسان. كان لا بد اذن، ان اصحح غلطتي كي افهم البون الذي بيننا، واعثر في فرجة هذا البون على الاشتمزاز. ان بيني وبينه غثيانا يصعب فهمه.. وقد يصاب المرء بالغثيان من ضعفه او من قوته، او من دوافع فيه يعجز عن كبجها. وقد

تكون هذه الاشياء تعمل بي مجتمعة كمزيج من عناصر مختلفة يستحيل فصلها. على ان الذي ما من شك فيه، انني كنت لا ازال افر من شيء ما يتعلق بالمستقبل. وروعت اذ الفيت اني انزلت تلقائيا في اتجاه ما سميته حتى الان خرافة. كان هذا الشيء موجودا رغم اصراري كله. كان كالقطرات ويسيل مع المناظر المسرعة بجنون. ومنذ ليلة السرداب، ملأت هذه القطرات دنا عملاقا. طفح هذا الدن وساحت قطراته على الارض دون حياء. وهو الان يسبح في بركة ويصبح دين. هذه، وجهة نظر اخرى تتضمن الكثير من الخطورة. مثل ناقوس يجلجل ليوقظ المجهول، ويفتح له فاه. ثم لا شيء يبقى الا الشدق التنيني الفاجر. اما الوجه فيتلون في تشكله مثل دخان. قسما مائعة تتموج.. تتعرج.. تتكور.. وتتماسك.. ثم تنتشر. اشكال حلزونية تنقبض وتتمد، ثم تتلففها هبة، فتتلاشى في غمضة عين.. الا الهوة. هذا الثقب الأجوف الذي تمر من خلاله كل الاشياء.. مليء هذا العالم بالثقوب.. وهي برمتها تفضي الى شيء واحد.. وكان في هذه العربة الطاوية لمشاهد الطبيعة اكثر من ثقب. وكان الثقب الذي يحتوي قريبي ديجوريا دامسا فوق كل تصور. وأنا في ثقب اخر اغمض عيني واشل اقدمي واصنع من نفسي حجرا تحركه يد الزمن الجبارة. وكلانا يجتاز معا الثقب الثالث الذي لا يمهلنا بمعالمه الكاشفة عن ذاتها مع ذوبان الطريق الخاطف. ولا يقين مذ بدأت الرحلة الجهنمية قبل شهور، وتتابع معها علامات الاسئلة بسرعة لم تتح للاجوبة ان تتضح او تتبلور. الا ان اشياء فرضت نفسها، مع ذلك. اشياء مخيفة.. باردة وصفراء. اشياء تنتمي كلها لعوالم ابليسية، في حين يصاب الجمال الملائكي بسيولة فوارة ثم يتبخر منجذبا لعوالم اخرى مجهولة. انه لا يصمد.. بل لا يتمهل. تلك الاشياء الجهنمية تفترس الجمال الملائكي بمهارة.. وخوف فظيع آخر ليس ابدا بالطاريء. ان له اسبابه الوجهية الصلبة، في كل الاحوال. أسبابا لا ادري لماذا يستقي بعضها اصوله من اعماق رأس هذا الذي كنت قبل لحظة فقط، اشذب من ماضيه كل تنوءاته المؤذية كي ابقيه كما كان يوما، جعبة في مقدور الانسان ان يفرغ فيها طيبة احساسه. الان، ايمانه بأنني لا امتلك شيئا طيبا، اضحى عقيدة. سألقي كذلك، بالرغم من اني لا يمكن ان اخون شعوري فاترك لسريري، ان تسيل امامهم وانقلب زقا مثقوبا. رغم كل البشاعة التي تصمني بها اوهامه وحقده، لن اتفوه بكلمة تسيء اليه. وكنت موقنا من هذا مع ان حقيقي «البشعة» في نظره سوف لن تتغير في الارجح. وتتوقف افكاري عند عمارة كبيرة.. صفراء. كل المباني هذه كبيرة وصفراء. وتبدو كتوائم. لقد صبت جميعا في قالب واحد. وهي منتشرة على وجه هذه الارض كالجدري. وبين كل منها مرحلة يقطعها انسان ملعون بائس. مرحلة ارتفعت فوق عبث الدنيا بطريق معاناة مبرحة ويقتطع قصوى. وتصطبغ عيني باللون الاصفر. هذا الذي توقفت الاشياء عنده. وتناهى صوت أمر - «انزل»

وصاخني الاضطراب الى زناتي الجديدة داخل العمارة الجديدة الكبيرة الصفراء. لم

يكن شمة بقعة بول، ولا تهويمات لعواء آدمي، ربما مضى مصدره الى غير عودة. لكن الارض كانت اكثر ترابا ورطوبة. وعندما تكومت على سجادة التراب المفروشة فوق الاسمنت، ادركت أن قريبي لم يهبط معي السيارة. غادرني واياها الى مكان آخر. افسيطلقون سراح قريبي؟..

كان جواب الخفير عند باب الزنزانة، يقشع اوهامي.. واذن، فلم يتمخض استباق الاحداث عن عودة الانسان لمكانه الطبيعي. من ثم، كنت الان وحيدا تماما. مع جدران وقضبان وروائح تراب ولسان سليل يثرثر داخل قوقعة عظيمة. وها هم يبترون خيطا كان يربطنا خلال تلون وتعدد الاشياء. للمرة الاولى.. كلا.. بل الثانية لو لم نستبعد حادثة الفصل المروعة هناك في المحكمة العسكرية. ورسمت على التراب خطوطا مشوشة، ثم لم البث ان تزبدت. افكاري اضحت اكثر لينا وطواعية. ها انذا فكان يحاولان الاطباق على الواقع من كل اطرافه.. ماض.. حاض.. ومستقبل. ماذا حدث؟!.. وها انذا ايضا انتصب في قلب هذا الخط الممدود الى ما لا نهاية.. خطي انا.. قدري. والمعالم تحاول ان تسقط بأكملها. عارضة. كانت نظريتي ووسيلتي اليها، غاية في الدقة، مؤخرا. واذن، تتعالى الامور على كل التوقعات وتسخر. قال احدهم من بعد ان تسلمونا كبضاعة

- «يومان او ثلاثة ثم يمضي كل الى حال سبيله»

فجأة اذكر. ان اضعاف هذه المدة تقضت. إستجدت احداث. تطورات وقعت لم تكن في حسابان. وامور اخرى غامضة تجري من حولي. فجأة، صرخت بخفير الموقوف. لم اعبأ ببرمه قدر ما كان يهمني ان أعرف بالضبط

- «لماذا انا في هذا المكان؟!»

رغم نظرتة العدوانية قال بهدوء

- «اجراء مؤقت ليس الا. وغدا، في وقت مبكر، ستنقل الى مكان اخر»

مرحلة. هو ذاك. أفيدلون هنا «الطرف الاخر» في هذا؟!.. ما اكثر المحطات هناك؟!.. وسمعت صوتا ما زلت اذكره بوضوح

- «يا ابني.. ليش هالشرشة وهالبهدلة؟!»

وقتها، مكث السؤال بلا جواب. صمت قريبي، لأنه لم يعرف الرد. وافحمت انا، لأن هذا الرد لم يكن ليحمل اي مغزى. لقد كان يجب ان يغمر السائل الاصفر هذا العالم، لتبان حقيقة هذا الرد. وهنا تتطور الامور بسرعة. وشمة تحقيقات لم تبدأ بعد. والمحطات كثيرة. وقال «سأحطملك»!.. فليفعل لو يقدر. لكنه كان يعرف اشياء لا تعرفها انت.. اما المعلومات القيمة المخزنة في جوف قوقعتك العظيمة المسكينة، عنه، فلن تتقيأها ابدا.

ومن خلال التراب والظلال والصمت، حاولت ان اعرف الوقت. ولم يكن شمة نسبة بين ما تشير اليه ساعتي الجديدة، واللون القاتم الملقى بظلاله على كل ما يتحوطني من

اشياء. ومرة اخرى اعترضت على المعالم التي كانت تريد ان تمحو ذاتها.. عندئذ بانث عجز شمطاء شرعت ترفع عنها ثوبها البالي.. ماذا تبغي منك الساحرة اللعينة هذه؟! وتناهت من بعيد اصداء اغنية عذبة. وعلى مدى لحظة، كانت العجز الشمطاء تتحول عذراء فاتنة تكشف عن محاسنها، ثم على حين غرة، اختفت الاثنتان ولم يبق الا حفيف صمت ميت اخرس.

وكانت «اللحظة» ما زالت تتلبسني، حتى بعد ان تم نقلي الى مكان اخر في اليوم التالي. فخرس في رأسي ذلك اللسان الصلف بعد ان دوخني باستلته. وكانت الاشياء لا تني عن انحصارها في عفوية. ولم اكن معنيا بعد، بالرغم من اعراض الامس النفسية الخطرة، في ان اسحب الخيط الممدود الي، لأخمن. ابقيت من ثم لنفسي، مشاعر متضاربة وثمينة لاني تريت في اتخاذ الموقف من كل الاشياء. ففي مثل هذه الحالة من الغموض لم يكن ما يبرر اتخاذ المواقف، في حين ان ما كان يخالجي من قلق او خوف، قد لا يعدو ظاهرة ترجع اسبابها في الارجح الى فترة وفاة ابي. اذ حصل ذلك بطرؤف مفاجئة. ثم حين الفيت نفسي وقريبي قبل شهور ستة مبتلعين في باطن تلك الرحلة المشثومة، فأن الظاهرة هذه، امست شبه ظاهرة مرضية. اذ ادركت ساعتها ان الانسان اعجز من ان ينظر الى ابعد من انفه. او يتعرف على لحظته الآتية، في ثقة واطمئنان. هكذا، كان لا بد ان اتلقف، والعربة تنهب الارض بي ماضية لمكان اخر ما، المناظر الخالبة التي قذفها اللحظات الى داخل عيني. كتل جبلية خضراء. اشجار مصطفة على حوافي الطريق منتصبه بشموخ، وتثير العاطفة الجياشة عن دون عمد. وانت تثير في غيرك حقدا وكرهية ولا تفقه شيئا، تماما كالأشجار. هذه المعضلة التي خيل لي في وقت ما انها في غاية الوضوح. ايدا، إن شيئا من هذا لم يتضح البتة. فما معنى الغضب القاصدي من كل اتجاهات الدنيا؟ وبصقة شقيقته الفوارة؟!.. ولماذا كان وعيده ينث شررا وبصيصا يلمع؟!.. ومقابل هذا كله، كانت عاطفة الام ومحبة الانسان الخير. والطبيعة الساحرة هذه. والحرية. وكان حاجز متين ماكن يفصلني عن كل هذه الاشياء في وقت تداعت الجدران فيه بين البشاعة وبيني. اذن، اني استرق جمال الطبيعة من دون حق. وفي ليلة السرداب كذلك، حاولت ان استرق الحب المحظور من امرأة جمعي المصير بها في ظرف اقحمت اليه. فلماذا تحظر الاشياء الجميلة عليك وانت لم تحظر على احد شيئا؟!.. لماذا يستلبون منك الواقع وانت لم تسلب من احد حتى اوهامه وكرهيته لك؟!.. وانفجرت الساقان. خطوة ساذجة داخل بستان فوق جبل. صخرة واحدة.. ذات الارض. وذرات تراب متماسكة متحدة وتلتصق بأخاء ومودة. والارض لم تصرخ او تحتج. لم تسمر اقدامك.. لم تصرح فيك «حتى هنا وكفى».. خيرة ومسالمة الارض فأين الشر اذن؟!.. وكانوا طيبين فأين الظلم؟!.. وتلتهم الدرب كل الحقائق والمغالطات. هنا، تتشامخ الجبال وتفسح احضانها للانسان، وتضمه.. مدينة وسط جبال. وبين احضان المدينة والجبل، عميقا عميقا، تتراءى البحيرة كمرآة صافية اقرب الى الاستدارة.. وكنت مشتاقا

لرؤية السماء وهو يغسل جراح السماء ويمتص دماءها. الا ان ذلك كان قد تم في وقت ضمت انا فيه بين الالتباس الواقع بين الحقيقة والمغالطة. وعندما سيحل الظلام، سأكون قابعا في جحر عتم دامس، بمجد الحس ضمن هيمنة اللحظة التي وهبتها ملء حريتها. وتكررت اللحظة. بأعداد هائلة تكررت لتصوغ الاحداث. اساطير مغذاة بتفاهات وجدت لتريق على العدم شيئا اسمه الادراك. وأدرك فجأة ان المحطة الجديدة التي لا يختلف مظهرها الخارجي عن سواها من المحطات، تختلف حتما. فهي تستوعب في داخلها حشود بشر. مكتب استقبال في مدخل بناية داخلية مؤلفة من ردهات وزنانات ومرافق. يمرق المرء اليها عبر حديقة متعددة الالوان. وهناك في الداخل، افواج سجناء وسجانين. ولا يمكن في كل الاحوال التمييز هنا بين المجرم الحقيقي، او رجل القانون.

باب ثالث يفضي الى مكتب، ينتهي الى قبر جماعي. عند هذا الباب الثالث فاحت رائحة عفونة قاتلة. التقطتها حاسة مجهولة بعد ان تعطلت حاسة الشم الى حين. ونعب بوم دميم بمواجهتي بالضبط. جناحه رفرفنا. عيناه المظلمتان تبهللنا. حاول الانطلاق نحو الفناء لكن الجيف في رأسي كانت. ورائحة العفن والرعب. جاء اليها. حاولت ان اذود عن جمجمتي محالبه الناشبة في عقلي، وهي تنبش. لكن سبعة ابواب عملاقة استغرقت كياني في لمححة. تقيأتني الابواب السبعة منذ قرابة ستة اشهر. الان تبتلعني الابواب الجديدة هذه. وحدي. أهى حقا مجرد محطة؟!!

نظرت الى العريف الجالس خلف المكتب المشرف على هذا القبر، ثم خررت صريعا في تجويفات عيونه. ثمة هوة بداخلها ينقلب المبصر اعمى. والحياة استعيدها لاسارع بالخروج من باطن الهوة. مثل هذا الوجه كثير من وجوه تزدحم بهم الذاكرة.. وليس من الحق ان نطالب الطلعات العبوسة هذه، ان تنفرج او تضحك. وتذكرت موقف كلينا من الاخر فعذرته ثم سألته

- «متى سيفرج عني؟»

ودهشت اذ خيل لي اني اسمعه يضحك

- «لا. بسيطة. غدا ستكون في بيتك ان شاء الله»

ومن قبل ان استوعب ما قال لافرح به عاد واستوقفني صوته. وكان الان جافا مثل عظمة.. صرخ بي

- «اسمع. كن مهذبا عندما تخاطبني.. يسمونني العريف (كوبي).. واعلم اننا سنتقابل كثيرا، وانا اكره التغابي ككرهي للتذاكي تماما»

صوته وفرحتي. نشبا في بلعومي. كلاهما تلك العظمة الجافة. واستهنت بهما وبه. للمرة الالف اردت ان اخضع للمنطق. ان الغرور كربه، بيد ان التعامل مع المجرمين والقنلة، قد يبرر تصرفه هذا. فالبراءة والاجرام يصعب تحديدهما في هذا المكان بالذات. وقرصنتي احشائي. اني بعد لحظة سانخرط في سلك هذه الفئة الضالة مثلما اختلطت بها

أكثر من مرة في سياق هذه الشهور النكدة الحظ. لم يكن فوق جبيني اية لافتة تجاهر ببراءتي او تعلنها، مع ذلك عرفوني. اذ منذ دخولي اول باب قابلي رجال الشرطة بالترحاب. قال احدهم

- «أهذا أنت؟.. اهلا وسهلا»

واضاف ثان

- «مرحبا بك في منزلك»

والثالث قال

- «شرفتنا وانرت الموقف كله»

مزاح؟!.. تهكم؟!.. سخرية؟!.. ما اهمية الحدس ما دامت الحقيقة ساطعة كالنور؟!.. اما العريف كوبي فيقول «سوف نتقابل كثيرا». الان فقط دوهت، في هذه الساعة من جمود اللحظية بي، وثبات المنطق اطعن في هذا المنطق، فيذوب جمود اللحظة. الان، اطلق العنان لنظرتي فتتخطى انفي وتتمعن في رحاب زمن يمتد الى ما بعد اربع وعشرين ساعة. وعندما ارجأنا احدهم ساعة استلمونا كالبضاعة، يومين أو ثلاثة ايام، لم يكذب. فعله لم يستطع التكهن بما استجد من امور. هذا العريف الصلف لا يكذب ايضا. لقد كان يريد قول اشياء كثيرة عن طريق المناقضة. اما السموم التي هدد قريبي بنفثها، فلا تغطية لها. انها من ثم، لن تخدم احدا، حتى كراهيته الملتهبة.. ما دام هناك عدالة! نفس عني. كنت شديد الثقل باحاسيسي. عدت الى العفوية. في الردهة الكبيرة قابلتني عينات متنوعة بشرية. وكلمات بذئية. واستهتار. هنا، ليس ثمة من مجرم عريق يغتصب الزعامة ويفرض النظام. كما كان الحال في «الطرف الاخر».. هنا الكل زعيم.. شريطة ان تتوفر القوة.

كانت الفوضى شديدة. وفي الباب ينتصب شرطي هائل الجثة ويراقب عبث السجناء بوجه تعلوه بسمه. وكان يخيل لي ان الشرطي هذا اما انه يفرق سأمه في هذا العبث المتهتك، او يشارك فيه من خلف القضبان. الان، حين الجمع اكتشفتني، تحولت الانظار الي. فجأة حوصرت. ورؤوس لا تحصى تتحلقني في لبنات السور البشري الضارب من حولي نطاقا لا يمكن فصره. ولا تناسق في الاحجار البشرية المتراسة في هذا السور. رؤوس عالية ورؤوس منخفضة.. اجساد ضخمة واجساد ضئيلة.. بشرات سوداء واخرى قمحية وبيضاء.. كهول ورجال وصبية في مقتبل العمر.. وفي الحال ضربتني انفاس كريهة كأبخرة تتصاعد عن غوائط طرية. اني اختنق.. وتململت داخل بؤرة القاذورات. بؤرة ذات شبه هائل بأغوار عيون العريف كوبي. وحين حاولت تفحص كياني المتناثر فيما حولي، قصفتني تجشأة اطلقها حائط صلب من عضلات. برهة غاب كياني في نتن تجشؤته القاتل، ثم اهتزت الردهة بعاصفة تصفيق وهتاف.. كانوا لا شك يحيون صوت الرعد البجح هذا المنطلق في وجهي.. وتحطمت تحت ضربات مطارق ثورة مكبوتة. انتفضت، الا ان سواعد مفتولة من حولي هبت تمسك بكتفي. الانتفاضة خمدت. وبشمالة

ادراك انصت الى اسئلة تنهال علي من كل صوب

- «آية تهمة؟!»

وخرست.

- «خداع صبية ساذجة مغرورة؟!»

الحرس يستفحل. والسجين العملاق يحك رأسه. ثم يدفع حنكي نحو السقف. كان يضحك بقذارة - - -

- «لماذا تحجل؟! قل.. اهو اغتصاب؟! سطو؟! قتل?!»

عندئذ كان سجين شاب ونحيل الجسم، يشبه وجهه جمجمة مغطاة بغلاف جلدي رقيق، يفج الكتل البشرية ويتقدم.

- «اي قتل يا رجل؟! هل تحسب كل الاطفال رجالا-مثلي؟! هذا لا يقوى على قتل ذبابة.. فلا شك انه ضائع طفلة رغما عنها؟»

وحشر الهيكل العظمي وجهه في وجهي، واستطرد بطنين حشرة سامة

- «هل كانت حلوة يا طفلي؟!»

لو حقا اغتصبتهما لما تلقيت البصقة النارية. وتدلّ قضيب لحمي متصلب من داخل حلقي الى احشائي.. وطعن جوفي. والرغوة اللزجة انقلبت بركة قوامها ماء اصفر فقاعي السطح وكانت الفقاعات تفش شيئا شيئا. والابخرة تتصاعد من البركة الصفراء. وتدور مثل دوامة في الفضاء المفتوح، ثم تنتصب ماردا مسخ الخلقة. وينفخ الشيطان.. عاصفة. وانا ريشة عصفور منزلة في عجلة نحو المستنقع. كانت اظافري مقلمة واصابعي تخط على ارض ليست موجودة خطوطا متصلة اطرافها بالسائل الاصفر.. الثقيل.. كرصاص. ثم اهوي للاعماق.. هشا.. متعصفرا.. متسيلا.. في حين يبقى القضيب متديلا من ساء غارقة بضباب.. يتأرجح جافا محتقنا ليس في ثقبه قطرة واحدة بيضاء.. ولا صفراء.. وفجأة يتراخي فيمتد.. حبل غليظ يستدير الى حلقة.. الحلقة انشودة ملتفة حول عنقي.. تنحكم القبضة.. انضغط عنقي.. روحي.. وسمعت صوت الهيكل العظمي منضغطا ايضا.. منسربا من بين اسنان منخورة صفراء

- «ألا تريد ان تتكلم؟!.. اتحسب انك جئت هنا لكي تصمت.. كلا..»

وما ان ارتفعت يدي لتزيح اصابعه المطبقة على خناقي، حتى كنت اهوي الى الارض. كان ذلك رأسه.. الجمجمة المغطاة بقشرة رقيقة تمتلك كل القوة الخارقة هذه.. هائلة الدفع. تنفذ في لكمة على وجهي.. اللكمة تقضي على بقية وعيي.. وعلى الارض التربة، استرجع هذا الوعي بسرعة.. اني لا ارغب في فقدانه. اتشبث به رغم الدم السائح من انفي وفمي. واصر على التمسك فيه. وسط زوبعة قهقهات وقحة تهب علي ساخرة من شيء بي اخفقت في ان اجده. اني محال ان الصق بذاتي فرية الضعف من اجل ان اعثر على ذلك الشيء المجهول الذي يثير بهم استهانتهم وهزأهم بي. لقد كنت قويا. وقوتي ليست زائفة كقواهم، بل هي حقيقة، ما من شك في ذلك. ولم يكن باستطاعة هؤلاء فهم هذه القوة.

حتى قريبي قد يعجز عن فهمها بعد تحوله الى آلة مجرمة حسب. وذلك الشرطي الواقف في الباب، هل يعجز هو ايضا عن فهم هذه القوة؟!..
زحفت في اتجاه الشرطي قاطعا ارض الردهة على اربع. كانوا تفرقوا الى جماعات صغيرة وقفت ترقب خطواتي القادمة بفضول. وعلى الارض القذرة تركت قطرات من دمي امتزجت بتراب متراكم، فتخثرا معا وبسرعة. كان انفي لا يزال ينزف، وهو مشبع بآتربة الردهة وبآتربة اخرى تنفضها احذية موصومة برجس قوة وهمية. قوتي انا كانت حقيقية في الارجح. وكان ينبغي ان استخدمها الان لكي ابقى عليها. واستعنت بالقضبان فوقفت. والتقي وجهي المدمم بطلعة الشرطي البلهاء وكانت مبتسمة غير مكترثة. وصرخت

- «اريد الخروج من هنا حالا»

قال بهدوء

- «لماذا لم تدافع عن نفسك؟!»

- «اريد الخروج حالا»

ففتح الباب وهو يهمس

- «هديء من روعك»

اصبحت خارج باب القضبان. رأيت، اذاك، ارتعاشة يدي وسمعت لهائي. كان هذا، هو الغضب والسخط. والخفير ما انفك يبتسم ببرود وبلا هواده. كان كل شيء الان يستعسر على الفهم ويغمض. حتى تجارب الشهور الاخيرة تصطدم الان بمفاهيم جديدة وتتحطم. واخيرا، قال بشيء من رقة

- «انت تنز دما. الحمام امامك. دونك اياه فاغسل وجهك ويديك، ثم نبث عن حل»

وفي الحمام، امام المغسل، كنت اقف وجهها لوجه امام نفسي. مرآة زجاجية، ثمة، تحت تصرف قتلة. وانا في داخلها ارشح دما وغضبا. لماذا؟!.. وسقط ردي مع الباء والدم وابتلعه حوض المغسل قبل الكشف عن ذاته. اما الطلعة في المرآة فكانت غريبة. رغم نمو شعر الرأس الى حد ما، كان الوجه غريبا. وترثت من اجل ان اتعرف عليه.. واجبه. هو، مهما يكن، يختلف عن ذاك الوجه الذي انعكس على طلعة قريبي المشعثة.. يختلف بالتأكيد كذلك، عن الوجوه المخيفة في الردهة. انه يبدو وديعا ما زال، بالرغم من كل ما كان. يبتسم ايضا، وعلى مقربة منه كان وجه آخر منفرج عن ابتسامة هادئة هو ايضا. التفت بسرعة. الرجل بجوارني فارغ وحليق الرأس.. ابتسامته عنيدة متأصلة الجذور في وجهه وكأنها خلقت معه. وفي الحال كان يسند مكنته الى الحائط ويقول بنفس واحد

- «اسمي محمد.. من الشمال.. من «الطرف الاخر».. اقضي فترة طويلة لسبب تافه.. نزيل

قديم في هذا الموقف.. اشرف على التنظيف.. واقيم في (حجرة) خاصة بي»

نسيت المي. كان يقول «الطرف الاخر»..

وضرب احدهم يده على صدره وقال بشهامة

- «هما ضيفاي الليلة.. ولا احد يعارض»
وبسط الخوان وامتلأ بأصناف المأكولات. ثم في المحطة التالية، في الغد، تكررت الحكاية. وكان النزاع بينهم عنيفا حتى انتصر اقواهم شكيمة. والباقون بحياء انسحبوا.
ويوماً قال لنا سفاح ذو شارين كثيفين مديين كقرني وعل
- «يا شيخ حاجي حيا.. انتو ضيوفنا.. وحنه من اهل البلد وانتو دراويش.. اخذوا مصرياتكم.. واحنا عم نلعب بالمصاري لعب.. وعيب عليكم تخيونونا رجا»
كان قريبي يأكل حتى يتخم، ثم حين يأوى لفراشه يندب حظه ويكيل التهم لي. وكنت انشغل عنه كي اتأمل هذا التناقض الفذ الراسخ في الانسان. تتملكني تخمة ليست ابدا تخمة أكل.. المعروف.. وبدا الان بارقة امل.. ترى هل ان الفرصة ستسبح لك برد الجميل والمعروف؟..

وشددت على راحته بقوة. همست

- «ابلغك تحيات «الطرف الاخر»»

بلهفة قال

- «وهل كنت هناك؟»

وأومأت برأسي. ثم عاد يملؤني احساس باهظ. الرجل العملاق كان بصمت يبكي..
وهمست

- «لماذا؟»

مسح دمعة وهو يقول

- «سأجذك فيما بعد.. وسنتحدث»

وفي الخارج كان ينتظرني الخفير. واستعدت غضبي بمجرد ان قابلته. هذه الطلعة البلهاء المبتسمة ما مهمتها في هذه البؤرة الموبوءة؟!.. وقال من دون ان يبذل اي مجهود لتغيير ملامحه المنفرجة

- «الان تبدو احسن حالا»

بادرته

- «جد لي مكانا لأني لن اعود الى هناك»

- «كان يجب ان ترد على اسئلتهم»

- «لماذا؟»

- «او تدافع عن نفسك طالما لم ترضخ لارادتهم»

تفجرت بالضحك وبالسخط. إني لست مجرما محترفا ولا حتى هاويا. اني ايضا لست احتكارا لاحد. وقد قال العريف كوبي انه يكره التغاي، فهل يتغاي الخفير هذا ام انه غبي بالفطرة؟!.. عدت اقول باصرار

- «لست معنيا بأثارة المشاكل، ولن اعود الى تلك الغابة مهما حصل»

وربت على كتفي

- «أنك جد طري يا صغيري.. ومن الخير لك ان تتأقلم. مع ذلك باستطاعتك نقل فراشك الى احدى الزنانات»

عرض مغر. والزنزانة، بفضل العادة امست موضعا يثير الحنين احيانا. ظل يرقبني حتى فرغت من تنظيم مرتبتي على ارض الزنزانة، وحينئذ قال - «ها قد اثبت لك حسن نيتي، اذ لن تجد عند اي خفير آخر اذنا صاغية لمطالبك. اسمي يوسف وبامكاننا ان نكون اصدقاء لو شئت ذلك»

الفصل الخامس

أصفر المصباح بلون البول. يبصق نوره الشاحب في جنبات الزنانة. وباب القضبان موارب، من بين فتحاته يتسلل احساس توأم الاحساس الذي تطفل ليلة السرداب. نوع من حرية متبجحة بالوهم. وفي الجانب المقابل كوة صغيرة تكاد تلتقي بالسقف، وتشرف على حديقة الموقوف، الا انها في هذا الوقت من الليل تغدو قطعة قار سوداء، ثم يمكن بعد جهد أن يكتشف المرء على ارضيتها ثغرات لماعة مصدرها السماء. وانا رزمة منطرحة في ركن. قطعة من هذا اللحد الصامت، لكنها تتحدى خرس الجمود الاعجم بافكار مناسبة على ورقة. كنت ادبج رسالة. حاولت الاقتصاد في الكلمات قدر الامكان. عرفتهم بمكاني وطلبت ثيابا داخلية لمحمد. رغم كل الاشياء عادت قصته وطفت فوق السطح. امتزجت بالافكار المندلقة على الورقة. عندما قرفص بجواري قبل ايام ومضى يروي حكايته، اوجست تشاؤما. كان كل شيء في قصته عاديا الا نهايتها. اذ كانت خاتمة صاعقة وغريبة وتثير اعتراض العقل السليم. قلت له

- «لا بد ان تستأنف الحكم»

فقال

- «حتى الليرات العشر لم احظ بها في النهاية»
ورغما عن انفي التقيت بزوجته وبأطفاله. الصورة مشرخة وبلا اطار. لا يمكن ان تغطى معها حاولت ريشة الاشراق اضاء رتوشا مضئة عليها. وكنت على استعداد لأن اطلب له مع الثياب، محاميا جديرا غير الذي تطوعت السلطات بتوكيله له، الا انه قال، ان الرسائل لن تفلت من هذا الجحرم لم تمر برقابة دقيقة، وهكذا عدلت عن ذلك من حيث انه كان سيسيء لكلينا. واذن، فلا مناص من الانتظار حتى يأتي احد منهم، فابلغه الامر وجها لوجه.

حين طويت الرسالة وواريتها داخل المطرروف، تبين لي اني اسلم بأمر لم تقل لي صراحة. وتراث ذكرياتي الغضة وتجاري الاخيرة رجحت الكفة للاحتمال الاسوأ.

رسالتي كانت تعني انني لن اغادر هذا الموضوع في غضون اربع وعشرين ساعة. تلك، كانت كذبة حقيرة صفع بها العريف كوبي سذاجتي ثم ما لبث غروره ان لعنها وبصق عليها بشجاعة. انه يمثل الحياة تمثيلا صادقا قحا. الا انه كان على قسط من الغفلة حين ارتضى لنفسه هذا النوع من الشرف الاحقر. في هوة عينيه الدامستين انطمست حقائق قضى عليها غرور الاعتداد بالقوة والاطمئنان الى الزيف. وكلاهما، قريبي وهذا العريف يجتمعان اخيرا عند نقطة محددة بعد التقائهما في مفترق للطرق تنكمش فيه كل الطرقات المتباعدة والمتقاربة. ذلك هو الوهم. رأيت ملامح هذا الوهم تصرخ من على الجدران المنطبقة علي بغلصة. «السجن للرجال...». «قالوا حبست وليس بضائري حسي واي مهند لا يغمد...» وسطور اخرى تلتهب غيظا او حقدا. واسماء اشخاص ابتلعهم الوهم في هذه الزنزانة ثم عاد وتقيأهم بمكان آخر ما. الجدران هذه، ان هي الا سجل الاوهام. خدوش فيها مؤلمة حفرتها اظافر مهزوزة بخداع الرؤوس وهفوات الظنون. والحيطان البريئة مشوهة بماء النار. ابدا مستسلمة بخنوع. راضخة للممجدين واللاعنين.. محتملة الرجس. مصفوعة بالانفاس المشبوبة الضالة، خرساء. ومن الهوة ينسكب همس الليل، يحمل غير الجمال المستلقي في الخارج غافي العينين موليا ظهره لجرائم الزيف والاوهام. الان، تخرج الخفافيش العمياء من اوكارها لتهميم مع الموت. وطيور الليل تنعب نعيها المفجع. ومحمد يحصي الايام الفاصلة بين الحياة وبينه. وسيظل يحصيها على مدى خمسة اعوام اخرى. وعندما سيعود، سوف لا يعرفه ابناؤه وستنكره زوجته. ان بينه وبينهم مسافة طويلة. فجوة متباعدة الاطراف.. موت.. وداخل هذا الموت موت آخر هو الحاجز الاثيري الذي يعاقب من يجتازه بانتزاعه حقه في الحياة. ومرة اخرى تتشكل الساقان وتخطوان خطواتها الملعونة.. وثغرات الكوة تزدهم بأرواح شريرة غير مرئية تتدفق الى فضاء الزنزانة الضيق.

احسست بققهاتها المكتومة وهي ترقص من حولي. اقدمها تركلني واصواتها تعوي في وجهي..

- «لكنكم تعرفون الحقيقة فماذا تريدون؟»

والارواح تجيب

- «أي غباء؟!.. انت تتحدث عن شيء لا يعرفه مخلوق.. حتى انت لا تعرفه»

فأصيح بالاشباح

- «كلا.. ذاكرتي قوية»

وتقهقه الاشباح

- «هي تحونك كل لحظة»

- «هل يعني هذا اني اذنبت حقا؟»

- «اذا كنت لم تذب فلماذا حكم عليك هناك في الطرف الاخر ستة اشهر؟»

- «حقا.. لماذا؟»

تعالى القهقهات. الرأس ينفعم بضباب.. لا رد. واصرخ

- «لماذا؟!.. وهل انا حقا مجرم؟»

- «ليس المهم ان تكون مجرماً، او بريئاً. المهم انك قد اجتزت الحاجز اللامرئي»

- «غير متعمد»

- «مع هذا، انتهكت الحرمة الانسانية.. بلت عليها»

- «هذا تدليس. الطين لم يحرك ساكناً»

- «من الطين تصاغ الاوثان.. وللأوثان تقرب قرابين الانسان»

- «ومحمد؟!.. أهو الآخر كان قربانا للوثن الذي يصوغه الانسان من الطين؟»

وخرست فجأة الاصوات. سكون اقوى من الصخب، اقتحم صفيحه الثاقب، الرأس ومضى يعصف بين جدران. وجثا محمد عند اقدام الانسان الاعلى ولثم حاشية سرواله. في القرية يتضور الاطفال جوعاً ويرتعشون مع ذبالة القنديل الشاحب واوراق الشجر الصفراء. والساء تندف القطن وتنثره على اجساد عارية معروقة، لعنة باردة بيضاء. في حين يتهياً الناس في المدينة للتزلج على الجليد.

وقال الانسان الاعلى وهو يلوح بورقة من فئة العشر ليرات

- «هذه لك شريطة ان تحمل هذا الصندوق للطرف الاخر»

- «الى اين؟»

- «لا تفزع. عند الحدود تماماً سيكون بانتظارك شخص، تسلمه الصندوق ثم تعود.. ماذا قلت؟»

حك الرجل الفارع رأسه وتفكر. طويلاً تفكر، لكن الانسان الاعلى يكره التردد. صاح به

- «قرر قبل ان تكون الورقة هذه من نصيب رجل اخر»

اسرع يعلن عن موافقته. الا ان الانسان الاعلى اعاد الورقة الى جيبه، ثم بأغراء تسمم

- «ستكون لك بمجرد ان تنجز مهمتك وتعود»

كلمة الانسان الاعلى، قدر محتوم. في اليوم التالي اكل الاطفال ولبسوا بعض الاسمال. المهمة كانت سهلة للغاية. وما دامت سببا في ان يلبس الاطفال وينعموا بالشبع ايضاً، فبديهي ان تتكرر.

في ذلك اليوم لم تأكل كثيراً، لكن يقينا انك شربت. اما محمد فلم يبيل على حرمة الانسانية. لقد كانوا يسلحون عليه. كان يتمرغ في حرمتهم الرجسة هذه ويتلطف على ارضها بقذارة الانسان.

تطوع بايصال الرسالة للمسؤولين. ولم يكن يعرف انه مدفون في طياتها، رغم تحذيره آباي من رقابتهم. احببت في الواقع ان اهيي مفاجأة سارة له. حين عاد الي، كنت اتحرر من قبضة الاشباح ومن صفيح الصمت النافذ. تحايلت عليه من اجل ان يمكث ويسامرنى. ثم حين ذهب لينام، احكمت من سد زجاجة الكوة تحاشيا البرد والارواح. وخفت وطأة البرد قليلاً بيد ان محاولتي قطع الطريق بوجه الاشباح، كانت محض غباء. وما

دام الظلام يخترق الزجاج، فلماذا لا تخترقه ايضا هذه الاجسام اللامرئية؟!

- «هراء. هذه خرافات أفتؤمن انت بالخرافات؟!»

- «طالما لا توجد حقيقة، فكل الاشياء خرافة»

- «لكنك قوي.. فهل القوة خرافة كذلك؟!»

صحيح. فرغم ضياع الحقائق، حقيقة قوتي. صامدة في هذا البحر من الالتباسات المضنية. خيل لي ايضا ان وجودي العائم في هذه البركة من القاذورات لا يمكن ان يتزعزع، بالرغم من كل المطارق المنهالة عليه بقوة، وبرغم الحرمان، والشك، وافتراءات المفترين، ومكائد الشياطين التي عادت تلعب لعبتها الدنيئة في عقلي. الان فتحت لي بابا آخر يفضي لوساوسها. حين شقيقته بصقت بصقتها في وجهي غاض شيء في الاعماق، وتربع خلف الافكار كبقعة سوداء. والشياطين همست

- «منذ اسلمت روحك لجمود اللحظة تحولت الى آلة صماء»

- «وهو؟!!.. الم يستحل الى آلة تنتج الشر منذ اسلم ذاته لمآربهم هم؟!»

وما اسخف المقارنة؟!.. الخطأ الاكبر ان نتصور ان كل الآلات البشرية.. سواء..

- «هو آلة فعالة، وانت آلة معطلة»

كلا. فمحاولة التضليل هذه لن تنطلي علي. فالنقطة الهامة في الموضوع هي الارادة.. انه لا يعمل لذاته، وثمة آياد تحولته الى دمية تمسك خيوطها وتحركها على طول الخط. - «ومع ذلك فهو يعمل لذاته. اذ من ادراك انه الساعة لا يرقد في احضان غانية من غوانيه؟!»

العريف كوبي ايضا، لا شك، يغرق الان في اغوار النفق. ويبدد في ممراته غروره الى اجل مسمى. ليحظى بمقابل ذلك باللذة. الجحور والقضبان من نصيب التعساء فقط. كذب من قال ان السجن للرجال، فالرجال الحقيقيون يهيمنون الان على العالم. اين القوة الحقيقية اذن؟!.. اين هي ورمزها يغدو مجرد خرقة مضمحلة من لحم، تنكمش داخل اثوابك، وتنسى تماما؟!.. وفجأة، يتصلب الرمز وينتشر. مدية مشحودة تبحث عن مطعن. والثقوب كثيرة لكنها واسعة. انها تبتلعك وتواريك مع المدية. والمدية تبحث عن مطعن. ثم من كوكب الزهرة تهوي شرارة لامعة ضوئية. تأتيني عبر زجاج الكوة.. ثم تحط في احضاني غادة ساحرة عارية كلحظة مولدها.

- «تقبل هديتنا الطريفة لك»

لا. هذا خداع المخليلة الهاذية المعتوهة. فالوجنات كفت عن ان تقطر رحيق الورد الاحمر. شربت الارض الدماء مثلما امتصت السائل الرغوي الاصفر. وكلاهما تلاشيا بجذور شجرة التين. التينة الدنسة الممهولة بالنقيضين تكتظ بشمار الخطيئة. وهنالك، حول الشجرة الباغية النائية تنتصب الحورية، بعد ان صعدتها الارض المرتوية بالدم وبالبول. في هذه الساعة من الليل تظهر. ويتجسد الطيف هناك، شفافا وخفيفا ومتحررا

من عبء جسده البشري، لكن الحورية ما زالت تضحك ببراءة. يداها ممسكتين باياد اثيرية لصبايا من غالم الاشباح، تتشكل حلقة من عذارى العالم الاخر والدبكة حول الشجرة الاثمة الدنسة تبدأ. يبعث انين الناي بانغامه فجأة، وضحكات عذبة تتدفق، وحورية القبر تواصل انشاد بيت العتابة، الذي قطعه ذات يوم دوي قاتل مجرم... كنت اعلم بأني سأخفق في احتوائها. وسخر الشياطين مع سخرية العريف كوبي. لعله في اللحظة هذه يعاود ارتداء ثيابه وغروره. وانا مع الالم المحض ازداد قوة.. وراقبه. تتضخم العدالة على غير توقع وتنداح. تمتليء بها كل الثغرات والثقوب المحفورة في العالم. تستغرق الكون لاعود انا في الغد عملاقا يحطم كل قيوده واصفاده.

في الايام التالية، لم تتحقق المعجزة. العملاق ما فتىء حبيس القمم. والذي تضخم وانتفخ كان الملل والرتابة. وفي الذهن تنطبع صور وجوه جديدة مكشورة. ووجوه اخرى وديعة. عند المغسل الذي في المرحاض، تلقيت تحية الصباح من محمد. كان منهمكا في غسل قذارات الانسان، وعلى طلعتة امارات رضى لم افهم اسبابه. طيب هذا الرجل وساذج، وخير ما فيه انه يستقبل الامور ببساطة. عشر مرات نقل الصندوق من «الطرف الاخر» دون ان يسأل عن محتوياته

- «كان باهظا وكبيرا. وعندما فتحوه وجدوا فيه ساعات وآلات صغيرة اخرى»
- «لم يكن ثمة مخدرات اذن»

وانتفض فزعا

- «مخدرات؟!.. اية مخدرات؟!.. ابعدنا الله عن المخدرات ولعنة المخدرات»
اوضحت له، ان الامر كان محتمل الحدوث، طالما لم يسأل عن محتويات الصندوق.
فأطرق ثم تساءل

- «ولكن ما الذي جعلها تخطر في بالك؟!»

- «الحكم الباهظ الذي صدر بحقك، يوهم بأن جريمة خطيرة قد ارتكبت»
فقال ببساطة

- «لكني اقسمت لهم على اني كنت عبدا مأمورا»
عندما الان تلقيت تحيته، عاود افكاري سوء الهضم. ساءني جدا استسلامه للجنة الكلمة التي فاهت العدالة بها بتهور. قلت على سبيل التذكير
- «محمد. من اجل زوجك واطفالك، استأنف الحكم»

وشكرني بابتسامة، وظننت انه قد بدأ يفهم، الا ان الدهشة من انه لم يحاول ان يفهم حتى الان، عادت معي الى مهجعي في الزنزانة. هناك، تذكرت ما همست لي به الشياطين. اجل. افيعقل ان يستسلم الانسان لكلمة قالها انسان آخر؟!.. أن تصبح مشيئة بعض الناس قدرا؟!.. وقريبك ما زال يكذب فلماذا لا يكذب محمد ايضا.. ولماذا لم يكذب من قبله جميل وعبد الفتاح؟!.. فكرت، بيد ان الحياة سرعان ما دبّت في جثتين متفسختين،

ثم هدرت من اجواف بطون منتفخة كقرب
- «بالله عليك، لا تتركهم يشنقونا مرة اخرى»
وفي التو كان محمد يصبح مجرد خروف منكس رأسه. وصر باب الزنانة. وكان الخفير
يوسف يحمل شحمه ولحمه وبسمته البلهاء وينتصب عند الباب. وتساءل
- «كيف اصبحت؟!»

وتسمر في موضعه قرابة الساعة. سألتني عن ماضي وابدى اسفا لما وقع لي. كان من
الواضح انه يطمع في ان يكسب ثقتي بيد ان بزته الكريهة كانت عقبة بيني وبينه. حذرني
ايضا من شرطي اشقر وجميل، كنت رأيته بالصدفة يتجول في الدهليز فخمنت ان النساء
لا بد تحوم حوله كذابا. وقال يوسف
- «لا تكشف اسرارك لهذا الشرطي»
باستهانة رددت

- «لا اسرار عندي»
- «اذن، حاول الا تشاكسه»
- «وما الداعي لمشاكسته؟»
فاجاب بهمس
- «انه يدرب كلاب الشرطة على الهجوم، وهو لا يقل عنها شراسة»
بدعابة قلت
- «وهل يتفق الجمال والشراسة؟!»
فاجزم

- «من الناس من لا تجدي فيه الا القوة والشراسة، فلو تخاذلت عنه ظن بك العجز..
فالعجز دمامة لا يغفرها بهاء الطلعة»
اجل. اظهر على حقيقتك! اكانت هذه فلسفة مادية بحتة تصفع كل محاولات تقربه الي.
قال بها بعض المعتمهين في الماضي، وغزوا بها افاق العالم المتحضر، والنتيجة
كانت ان العالم كله اصبح على شفا هاوية الدمار. حاولت، مع ذلك، الا أحمل هذا الرأي
يوسف، محمل العقيدة. كان رغم كل شيء لبقا، وطريقة حديثه، فضلا عن هفواته وزلات
لسانه، تشي ببراءة احيانا. كانت بزته العائق الاكبر الحائل دون منحه ثقتي. وهذا شيء لم
يحصل في الطرف الاخر. وكان مرد هذا الى لون البز التي لم تكن لتثير النفور هناك،
امرا في غاية السخف. فهنا ايضا لم تثر البز هذه الرهبة في الايام الاولى.. وصعقتني
حقيقة طارئة فشتت قريبي. ازدريته، وفي برهة اوجست بأن الاصبع التي تمحو
السيئات عن صفحة ذاكرتي اصببت بشلل كامل، ثم اعقب ذلك تمرد احساساتي
برمتها. واستحضرت بخيالي محمدا، لأتخذ منه مثالا للصبر. ولأخرس مشاعري الشائرة
فجأة. من ثم، رغبت في الخلوة.. حتى عن نفسي. وعلى الفراش الممدد في اقصى الزنانة
نزعت عني وجودي. كان الفيل الحاجب بجثته الضخمة الضوء القادم من فتحات القضبان

قد ولي هو الآخر. لم يبق الا خيوط من اشعة شمس متساقطة على الارض من الكوة.. ثم، بغتة، تسطع شمس جديدة وغريبة. الكوة تصبح معيناً يتدفق بالنور. اكتظت الزنانة بلمعان تبرى. وانا استحم بشعاع دافئ. ثم نبتت حولي من عدم، رؤوس بشرية مفترية الثغور. وعرفتھا ولم اعرفھا. وكانت معالمھا تتغير باستمرار. هذا قريبي يضحك لي. ثم يعبر ضحكته لشقيقته في طرفة عين. وتذوب طلعتها لتحل بمحلها طلعة العريف كوبي.. يتحول كوبي لمحمد.. تتبدل الوجة.. والبسمة باقية كخلود. في كل وجه بسمة عذبة. اني سعادة مكتسحة في بيداء البسمات هذه. ويتصلب الاثير اخيرا. ويغدو له جسد وصوت وحركة. وكانت الوجوه المتغيرة توميء الى الاثير المتخثر. انه دمية. والوجة تتحد في وجه واحد.. وجه كوبي. وانا احب كوبي.. ويبادلني كوبي هذا الحب. ويهش لي ويدعوني «يا بني!». ويناولني الدمية ويقول

- «اسرع.. فالكل ينتظرك في الخارج»

ولم اجد متسعا من وقت لاقدم شكري له. اذ قبل ان يتحرك لساني كانت نبراته الرخوة تجف. تتغضن. وهو يصفع باب القضبان، فيرجع فضاء الزنانة انين الحائط المتوجع من لكمة كوبي الحديدية.. وهو ما زال يوجه خطابه الي.. الا انه يقول الان

- «قم بسرعة.. يطلبونك في التحقيق»

بآلية فتحت اجفاني وقفزت. وكنت اتفرس فيه ثم اتعسر. غارت رمقته في اعماقي. نز دمي من رأسي وقلبي، ثم اغرق كل الاشياء. كان لا بد من ان استبدل مشاعري بسرعة كي لا اتهم بغروب العقل، ولكي اتطابق مع هذا الواقع. وكان يسيل من فم كوبي ومن عينيه، يتحرك مع اطرافه المتحفزة للضرب، ينداح من هيئته بعناصر تعصر البراءة الانسانية وتصيبها بقشعريرة مقتحمة.

وكان كوبي لا ينفك يصيح، بالصوت الممهول بكل العناصر هذه، وكأنه عواء جنون - «تحرك. قد دنت ساعة حسابك، واحد لن يشفع لك في هذا العالم»

الفصل السادس

اخذوني الى غرفة التحقيق...

في الطريق اليها، عبر حديقة الموقف، سطعني نوران. نور بريء، والاخر ملفع بالحيث والرياء.

تجلد النور الاول، واكمد بمجرد ان دخلت الغرفة. اكتشفت، انهم كانوا، وفي اكثر من مكان، يستلبون منه براءته ومعها سخاء الشمس الذي لا حد له وعدالتها الرائعة. هنا مكث النور الاخر. نور حقيقة يتضخم غموضها ويستفحل فيها الشك، كلما ازدادت امعانا في الاشياء والسحنات. ولم تكن هذه الاشياء، بأكثر من ملف انتفخ الى حد يثير التساؤل والاستغراب. هذا الملف، كان مثل جبل يربض فوق طاولة، ووراء الطاولة جلس شرطي بدين لمعت على كتفيه كواكب ثلاثة وهي تعكس بعضا من وهجها على وجه المحقق العابس. في هذا المكان انطفأت البسمات ونسيت تماما. والشمس في الخارج احتجبت وراء غمامة رمادية. لكن هذا لم يكن مهما الان. اذ كان ثمة فضول يزحف بسرية وكتمان مطلقين مع اللحظات. فضول يعيش لأول مرة مذ مات المستقبل قبل ما يزيد على ستة شهور. لكنه بعث الان فضولا متأنيا لكانها تهديء من روعه هدهدة حذر اضحى مزمنا في اعماق الذات. فضول ملتصق باللحظات، يدب معها، من دون ان يشذ او يفقد مساره، ويحاولان معا الكشف عن وجه تلك الحقيقة المغلفة بأكثر من قناع.

هكذا، لم يبق الا الماضي واللحظة الراهنة. واللحظة هذه، لم يعد بإمكانها ان تسقط في جب، او تبتلع في فضاء شبكة. وكنت اعلم بأنهم سيسحبونها. وانها بفضل مشيئتهم القدرية ستتكاثر. باستمرار وبلا هوادة ستتكاثر ثم تموت لتغدو مجرد نفاية يرفضها التاريخ. لكنها في ذمة تاريخي انا ستظل. هذا التاريخ الذي احرق واطيل التحديق به، فلا افهم. ولا حيلة، بعد، في وضع اللحظات القادمة داخل ثلاجة، منذ اضحت لحظاتهم هم، وليست لحظاتي ابدا.

وكانت نعقة الغراب الان، نعقة حقيقية ومريعة.
وانا جالس بمواجهة الوجه الصارم الكالح. عيوني مجمدة بالملف المترهل كرشه،
وصاحب الوجه المقطب يشير اليه، ويطلق اول صيحة منكرة له
- «كلهم هنا.. فلا تحاول الانكار!..»

ها قد سحب اللحظة. وعلى يديه تكاثرت. وليس وحدها، فالانسان تكاثر ايضا. لقد
كان في نعقة الغراب مخلب يندس في قلب المخيلة، ويفعمها بصور بالية وممزقة، لكنها
حقيقية في الارجح. وفي غمرة الخرس العاتي، كان الملف بدوره يحاول ان يحرك لسانه
وينطق.. يهمس بأن شمة جريمة قد اقترفت. وهذه الجريمة تتكاثر ايضا مع اللحظات
والانسان تغدو جرائم عدة. كلهم!.. واتساءل
- «من هم؟!..»

وهو يسحب المزيد من اللحظات ويسحبني معها.. يدفعنا الى بئر عميقة من
الالتباس، لا قرارة لها. وهو يغغم بفحيح حشري، ازيزه تيار لدبيبه قشعريرة لا تختلف
عن قشعريرة ما قبل الموت
- «اقبتم بلدا واقعدتموه، ثم تسألني من هم؟!..»

الماضي يزاحم الحاضر. ماضي انا وحاضر اولئك. والذكريات المشوشة تصارع
بأذرع مقطوعة هذا الالتباس الذي يريدون ان يتمادوا فيه حتى يغدو مطلقا لا متناهايا.
وكم كنت صادقا حين تحاشيت استباق الزمن؟!.. ها هو الان يتكون وفق ارادتهم نقطة في
اثر نقطة، يتبلور ويتضح في شكل لم يكن اخصب خيال ولا اكثره عبقرية ليقدّر على
خلقه. لكن الماضي مقطع الاوصال ينتصب الان امامي ليجاذبهم رغما عنهم هذه اللحظة
المفترية الموغلة في كذبها على احداث التاريخ.

وأطلقت شقيقته بصقتها. والبصقة استحالت الى عقرب. والعقرب استطال فصار
افعى. وعلى رأس الافعى ظهر قرنان. وفي فمه برزت انياب. وتدلّى من ذلك الفم لسان
ونفث شررا. وكان التنين مهولا، مذهبا لأصلب عقل، حين بدأت المرأة الموشحة
بالسواد، تبكي وتتحدث..

وهم كانوا من دون رجل. رجل الاسرة مات، واختفى الابن الاوحد. والخير فناء لا
جدران له. واقتحم اولئك الحرمة. شتموا وضربوا.. لماذا؟!.. لا احد يعرف. ولد العدا
القديم في غرة من امر المنطق والعقل. كان عدا لا يمكن تصوره بين اقارب.. عدا
حقيقيا ربما سببه الاول هذه القراة بالذات.

والاب، كان طيبا سمحا جانحا للسلم. حاول ان يمحى العدا لتبقى القراة وحدها..
ومات الاب، فانمحت القراة واستشرس العدا.. وسألت المرأة المنتحبة الموشحة
بالسواد

- «و هي؟!.. أكانت معهم ايضا؟!»
والمرأة الشكلي، بعد ان كفت عن البكاء، عادت تجهش ثانية. وظلت صامتا لم تجب

حتى بايساء رأس. والتنين الملعون راح ينفث ناره المستشرية في اتون كياني..
«وافتروا علينا الف فرية.. خالتك اوقفت، وخالك ايضا، وكل من جمعتنا به صلة من
قريب او بعيد. احضروا من اقاصي الارض.. لم يستثن منهم احد..»
وقال مغتصبا نشوة نصر مفترى من غياهب مجهول بدا انه يحمل لهم وعدا براقا
يخيل وكأنه لا يمكن ان يخلف
- «انهم هنا!.. واذن، فلنختصر الطريق!..»

ابدا.. هم لا يمكن ان يكونوا جريمة محتبسة داخل ملف حبل احشاؤه بالزور. ذلك
تدليس وضلالة. وتبجح هذا المحقق ان هو الا كومة ضباب. وعلى الرغم من ان وثوقه
بظفره، يستمد قوته من مستقبلي هذا الذي سيصنعه بيديه، فأن عيبه، انه سيعجز عن
تحقيق ذاته من غير ماضي انا وماضي من يزعم انهم مدفونون هنا في احشاء هذا الملف
الضخم. فذلك الماضي بحقيقته الناصعة الفذة، هو ماضينا نحن.. هو ملكنا نحن. وحتى
لو تحطمت مفاهيم وسقطت عقائد، فما حدث لا يمكن ان يتغير فهو مندبق في اقدام
الزمن المنسلة مطبوع في اعقابها بملامح بارزة لا تمحى.
ومع ذلك، فأن الفكرة المستحيلة الرعاء كانت ابدا تطلق حسرتها في ارجاء
النفس.. لا تتوقف.

«آه لو يعود الزمن الى الوراء ويصوغ الاحداث من جديد!..»
عدت انا اليه. رغما عن المحقق ولحظاته عدت. كان طريقه مزروعا بالعوسج، سماؤه
مكفهر، لكن البداية كانت صحوا وبساتين يانعة نضرة، ثم في يوم ما، تلبدت الساء
بالسحب. النائمون على الحب استيقظوا على نقيضه. كان ثمة عالم اخر لا يمت
لعالمهم بصلة. اختلف كثيرا الا في النكران. وفي كل العوالم يصدقون على الحب، لكن
المهم ان يستمر الانسان. وكانوا هم، حفنة من بشر طيبين. كان في مقدورهم ان يهبوا
الغفران.. ارادوا انتزاع الشوكة من وجوههم ليزول الالم وليبقى الحب. لكنهم اخطأوا
التقدير..

قد توهوا ان للانسان حرمة.. حسبوه حرا يمكن ان يتحرك كيف شاء.. ان يمضي في
هذا العالم.. يتسكع فيه من اقصاه الى اقصاه، يدفن في ابعاده احزانه، يهرب من الاساءة
الى الصفح.. في اقصى الارض.. ربما.. ربما ثمة كان النسيان.. والصفح.. والغفران.
بيد انهم اخطأوا التقدير مرة اخرى. والرجل مات.. كان ما انفك يؤمن باساطير طيبة
وجيلة.. ومات وهو يردد «.. من اجل الحب.. من اجل الصفح.. ابتعدوا كي يأتي
الغفران!..»

في عيني المحقق حدثت. رغم انها مخيفتان وقاتماتان، كعيني العريف «كوبي»، فان
المرء لا يقدر ان يغرق بداخلهما. هاتان العينان، كانتا ذبايتين وقحتين، تحومان من حولي
في انتظار لحظة مواتاة.. لحظة تحطان فيها على اية بقعة مكشوفة من بدني، من اجل ان
تبصقا عليها قذارتهما وجراثيمهما، وتجعلها موبوءة. وادركت ان اللحظة هذه، على الاقل،

لم تكن طوع يديه. وكان جاهدا ومستميتا في خلقها من العدم. لكن اقدامه لا شك كانت تستند على ارض سائبة هشة. الاغبياء، يحاولون دائما ان يجمدوا الهواء ويخلقوا منه شيئا صلبا. وهذا الرجل، ربما كان رغم كل ما به من ثقة، احد اولئك. هذا الرجل، كان مصرا على الباس الاكذوبة الشريرة لحما وعظاما، لينفخ الروح بها من بعد. ولبرهة عابرة لم املك الا ان امتعض واوجف. ان للقمامة قدرة مذهلة، خارقة في الاخرى، على ان تخلق من عدم محض، افطع مخلوقات حشرية قذرة. مع ذلك فالخاطرة كانت اسخف من ان تنافس موقفا، كهذا الموقف، مغائرا وعلى اشد الاختلاف. وكان لا بد، في هذا الصمت الانى المعربد، من ان ادحضها وافندها في اصرار. وقلت - «لقد بددت الحقيقة كل الاوهام، وجميعهم خرجوا من غير وصمة.. ناصعين مغسولين تماما.»

وكان باردا. واصطدم الاصرار بلوح من جليد قاس.. وقال لوح الثلج - «أعدك، بأنهم سيعودون. لن يبقى فار واحد خارج المصيدة.. اعدك وسترى.» وأغرقت في الضحك رغم النفخة الزمهريرية. واللحظات ما فتأت تنسل من ثقب تفوح من داخله روائح مجهول، امتزجت بأبخرة اخيلة عفنة وكريهة. واشياء ثمة، تتبلور الى قذارة. والانسان يضحي فارا، والرغبة في الصفح، جريمة. وثمة ايضا، هذا الوعد الخبيث، يقطعه لي رجل اضحى من غير قصد تماما، وبالتواطؤ مع ملابسات غريبة، غريبا لي. وعد، لم اكن احلم فيه، قبل ان تفلت هذه اللحظات المسروقة، من حياتي وحريتي، لانني وبالرغم عن كل الاشياء، كنت لا اكثر من نفسي. ويسحب هذا الرجل اللحظات، فاذا بغمامة الالتباس الداكنة تتكاثر ثم تمطر كبريتا. وتنهمر اسئلة مشبعة بشكوك، مشحونة بافتراضات، وابلا صخريا صلبا.. «ترى أنا اصبحت كل اولئك المساكين الحمقى، الممسوخين بتدبير ابليسي مقصود.. وفي لحظة حظ جبارة سقطت في احضان هذا الجانب القادر البشع الحلقة من مشيئة الانسان.. الى محض مجرمين وفتران...؟»..

ثم هذا الوعد المغرق في خبث طويته، لماذا هو الاخر ايضا؟!.. ويقول الرجل في نفخة باردة صقيعية اخرى - «أعدك.. طالما انت هنا..»

اذن؟!.. كلا. فالمغالطة كانت منذ قبل الامس تلعب لعبتها المفرطة في القذارة هذه. هنا، او أبعد قليلا في الداخل، تتستر على اكثر من هاجس، وتغلف كل الظنون بغلالات عازلة، لتهب اللحظات المجرمة لهؤلاء، وهم يتلقفونها بجوع كاسح ليصوغوا منها اقدارا ومصائر، وليشكلوها دمي لغيلان، تكمن في ذات الانسان الذي على صورته وهيئته تصور باريه. فهل كان بالامكان ان استعيد من ايديهم اللحظات القادمة؟!.. نذرا منها على الاقل؟! في هذه الساعة، كان كل شيء مشكوكا فيه، الا المغالطة. لقد كان ثمة السحنة هذه، للمستقبل التي بدأت تتضح. وهي سحنة بشعة يرسمونها بخطوط

لحظاتي المغتصبة، وهي في أيديهم. وكنت انا مستميتا في تحطيمها. لقد كان يجب ان اعترف بهذا اعترافا كاملا، من بعد ان نث المحقق نفخته المسمومة الاخرى - «انت ستعيدهم.. لانك مستند الاثبات».

وصرخت

- «بل سألحق بهم، لانهم مستند البراءة»

وضحك. والغرفة قعقت بالاصداء. بيد ان هذه، لم تكن مجرد بسمة تطورت الى ضحك. البسمات في هذه الغرفة كانت ميتة. والضحكات الحقيقية لم توجد فيها مذ اضحى لها سقف وجدران. هذه، العاتية المقهقهة، كان صفعة. وللصفعة انياب تعض بقوة. تنهش في البراءة وفي الحقيقة، فيختل ثباتها، ويتذبذبان تحت وطأة رعدة حنجرته القاصف. ويكشر الوجه المترهل بالشحم، في قلب غياهب عتمة دامسة عمياء. - «لن تتغير الاشياء بكلمة ينطق بها مجرم»

- «ولن يصبح البريء مجرما بكلمة ينطق بها من يرى الناس كلها تسبح في بركة اجرام».

ظل يتفحصني. وبدل ان يثور، استعاد هدوءه. وكنت مصطادا داخل وجود ثابت متحجر. لحظة.. وطاوله.. وملف ضخم.. ويد عملاقة تعبت بقلم.. وفي داخل هذا الوجود الشرقي، يكمن شرك اخر لا مرئي تتلاطم في احشائه امواج عكرة متشابكة عاصفة - «اعترف قريبك، ونكرانك محض مضيعة للوقت»

قريبتي؟!..

ووخزة الم في القلب. ومضيعة للوقت حقا، ان اتفحص عيني هذا الرجل البدين، كي اتحقق من ارتفاع السمحول الى قرص الشمس. يقينا، ان ذلك التافه، قد فجر قنبلة الخرافة والزيف. لقد شحنوا رأسه الفارغ بالقاذورات. ملأوه حتى اختنق. ثم، بدموع تماسيح، وبضرام جنون حاق لا تبرير له، اشعلوا الفتيل، وهناك.. ونحن غريبان.. وبحر الملابس يطفح ويهيج. والغريبان قستان في مهب ريع عاتية، وحاول ذلك العاجز التافه ان يفقد القشة.. ان يقتل.. ان يغرق في بحر اجرام حقيقي، مقابل كلمة ضالةقرأها في رسالة. واليقظة كانت اسرع. انقذت نفسك وانقذته من هلاك محتم. اليوم تكتمل افرغ حلقة. تنسلخ حقائق، وتتألف في مواضعها حشود زيف. والحق.. والرغبة المتهالكة في تحطيم الشمس.. والالم، وخزة يشوبها شيء من خوف غامض. فها بالحشرات جميعها تخرج من ثقبها بجوعها المتهالك، منسربة في طوابير طويلة، بحثا عن طعامها. الجيفة، اذن، لا مناص من ان توجد. وللأشياء، ينبغي ان تموت حقيقة مدفونة في احشائك، كي تصبح انت القوت الذي يبحثون عنه. هذا الموت.. برائحته الحامزة المتهالكة مع اللحظات المختلسة من انسان، يتحفز وبغلمة يرهف كل كيانه، في انتظار ان يعبق الكون برائحة الجيفة. وان تذبل ورود وتتلأشى عطور، ولا يبقى في العالم، شذى يفوح.

وللمرة الالف، تطل الاحداث من قبورها، بعد ان يتصلب الحاضر ويتوقف. واذن، هل

لا بد من المقاومة؟!.. ثمة ايضا، حفرة الحقيقة المردومة بغبار الدقائق المنتزعة منك، ساعة اعترفت للزمن بقوة المفاجأة، وخسرت اللعبة مع الايام.

اللعبة، كانت وما عتمت مغشوشة. لعبة خداع اتقنها الزمن منذ كان. سنة.. سنة.. سنة كاملة، انفرطت منذ ان مات ودفن. كان يتفسخ في مثواه، وانت من داخلك تتفسخ ايضا. لا وفاق مع الموت!. النسيان، حقيقة فيما نريد.. خرافة فيما لا نبغي. كلا.. فالارادة هنا، تسقط عاجزة مسلوبة الارادة. وهو كان بمثابة الله. ومات، والحياة اضحت فارغة. والذكرى مرض مزمن وميرج. في الايام الاولى، هيمن ظل الموت الاسود على الكائنات. فقدت تلك الكائنات ظلالها وشخصيتها ومغازيها. في الخارج وفي الداخل اشباح.. فيها رفض قاطع، تشاكسه كوابيس اليقظة المستقيمة اصولها من عالم اخر محاط بهالة اسرار، قشرتها ترشح رهبة. ممسوحة القسماط، فيها ايضا، هواجس وخيالات مثل انفاس تتصاعد من اعماق اوقيانوس شرس في هياجه وجبروته. ثم انزاحت قبضة عاتية، عن حجر جامد. دهم الحياة، اذاك، بكم وصمم وعمى وكساح. صوتها لا يسمع، ولا حتى ترجيع صدى. الحياة خدعة، ولا حقيقة الا جريمة الموت... وتسلمت داخل الشبكة الضيقة المتقاربة الاطراف. الطاولة.. والملف.. وجدار من لحم.. واقوال تسجل على ورقة.. وعيون مبخلقة تترصد في محاولة لا تياس للعثور على المقتل. لماذا؟!.. طالما لا حقيقة ثمة الا الموت؟!.. والارض الطيبة لم تغضب ولم تحرك ساكنا. رسموا عليها خطا ملعونا. بدماء رسموه، ثم جعلوه فخا يصطاد الحياة، وسلاحا بيد الموت، الحقيقة الوحيدة اللعينة المنكودة. أفحقا عرفوها؟!.. اعظم صفقة خاسرة تبرمها البشرية! هل يعقل انهم عقدوا مع هذا الموت، هذه الصفقة الرجسة ضد انفسهم هم؟!.. والالهم؟!.. والاشباح؟!.. والكوابيس؟!.. والنصب المتكاثرة كجراثيم تنتشر دون هواده، شاهدة على طبع الموت وجبروته.. الموت.. عدو الانسان.. وحليفه الاعظم.. وشريكه الخائن المداهن، الرابع؟!..

ويتساءل

- «وماذا بعد؟!..»

وكان على وجهه انفراجة. ظل ابتسامة ايضا، زائفة وتعتدي على حقائق. كذبة في باطن كذبة في امعاء كذبة. وكلها مستخفة. لا يمكن ان ترتفع على ذاتها المتمرغة في تراب خداعها الذاتي. مستمرئة ذل السقطة البشرية، كي ترضي نزوة مستعصية خالدة في جبلة الانسان. غارقة في فضلات انانيتها، وفي حضيض قمامتها الحاجب للنور الشاحب تقبع. ما الفائدة؟!.. ابدا. فالملاح التائه، في بحر من ظلمات، ما زال يمر، متحديا الزوبعة الشريرة. شامخا ينتصب في وجه جبال الموج العاقي، غير مستسلم.. وحتى النهاية سيظل.. ينجو.. او يفنى ويضيع.

تلك التي تزوجت كان بوسعها، لو لم تتزوج، ان تفتت الصخر وان تفجر في اعماقه ينبوعا. رغم الخدعة السمجة لجأت اليها لأواصل اللعبة المغشوشة. كنت فجا ومراهقا.

مجرد طفل في الرابعة عشرة. وطريق الناس عامودية، تنفذ من خلال ثقب في انبوبة مجارير. لا يمكن ان تتسبب. عندما لاحظ اهلها اهتمامها المتزايد بي، زوجها. دفنوها في حوض شيخ مرتعش الاطراف. فالطريق المحصورة في تجويف الانبوبة العامودية غير قابلة للانشاء او الانعطف. والسهم المستقيم المسدد، والموجه عبر المجارير، استقر في القلب المصخرج. لم يكن ثمة نبع ولا قطرة ماء. كان هنالك خلاء جديد وظلام.

والاخر احب كذلك. ليس لينقذ وجوده، بل في الارجح تقليد. وقع في الفخ. عاطفة عشوائية مختلفة الاتجاهات كأهله. مزيج من مازوشية وسادية.. حب تعذيب الذات والغير كذلك. غرق في الشراب والقمار والدموع. انقذته الى حين.. توطدت بيننا العلاقات. كنا على طرفي نقيض وعلى تمام الشبه.. كنا في الواقع اثنين، في نفس الزورق.

هكذا تبدأ السقطات. اختلاس، او سرقة ومجرد تسلسل، كالموت والمعاناة والفشل. ثم تأتي البقية الاقطع. اني الان اتمعن في اللعبة المغشوشة، فيخيل لي ان خيوط الجريمة قد حيكت بعبقرية.. حبكت من دون تدخل مباشر لانسان. ونحن عميان اقحموا الى درب مليئة بالعقبات والحفر. والحول دار بسرعة. لم يبق غير اسبوع واحد على ذكرى السنة الاولى. واذاك، جاءني بالفكرة.. فكرة السفر الى القرية الملعونة في اعلى الجبل.

فقال بخبث

- «وإذاك ايضا، تبلورت خطة الهرب..»

تجاوزت عن ملاحظته هذه وعن وجهه المهيأ للصيد. كنت غارقا حتى رأسي في الملابس هذه. هي في الواقع ورغم غرقي فيها ملكي.. كماضي تماما.. ولا احد يستطيع انتشال احدا من الاخر.

جاءني بالفكرة قبل اسبوع واحد من ذكرى موت الاب. له في تلك القرية، اقرباء لمعارف.. تصور.. اقرباء لمعارف لا اكثر. وانا، ليس فقط لم اكن اعرف مثله، احدا فيها، لكني لا اعرف ايضا اقارب احد فيها. وفوق ذلك فلم اكن متحمسا للفكرة، لكني وافقت عليها. ففي غضون سنة واحدة، وقعت هنا جريمتان. وإذا فقد كان الابتعاد عن موقع الجريمتين، ولفترة يومين او ثلاثة ايام، ربما يحمل فرصة للنفس..

صرخ

- «الفرصة في ارتكاب الجريمة..»

قلت ورأسي مطأطيء في اعماق الملابس الملعونة

- «كانت الجريمة الثالثة، تتربص بنا هناك بالفعل»

- «جريمة حقيقية هذه المرة.. اعددت لها بذكاء، ونفذتها بذكاء.. لكننا اذكي من كل المجرمين يا..»

لا يا سيدي!.. ان دعوتي «بجرما» فأنت، غبي وابله لانك ستتحمس لفروض سرابية ستعجز معها حاولت عن لمسها، الا ان تلمسها في اعماقك.. فذاك شيء اخر، فأنت في الحالة هذه اشعبي في النزعة، تبني لك اطماعك قصور هواء فتصدق عينيك، وتطير اليها بأجنحة من وهم.. لا تفكر ابدا في السقطة التي ستعقب ذلك.. الارتطام بالارض الصلبة حيث ستتشم مع احلامك المتناهية في قذارتها. وقلت: - «يعجز ذكاء العالم كله، امام خبطة الزمن الفضة هذه» فغمغم بسخرية:

- «تابع رواية اسطورتك الممتازة».

في حياتي، لم اشهد قرية مضيافة كتلك القرية. كانت مع اهلها، دون ريب، جزءا اساسيا من اللعبة.. الطعم في صنارة صياد ماهر. وثمة اشجار التين، تملأ عين العالم.. وثمرته التي احببتها ناضجة وتقطر شهدا.. أرايت كيف يحكمون الفخ ويعدون للايقاع بداخله.. لقد احببت ثمرة التين مثل عذراء طاهرة ونقية. كانت هذه الثمرة حتى ذلك اليوم، هدية بريئة تحمل مع طعمها العذب حلاوة عطاء الطبيعة والخير بيد اني في الليلة الاولى عفتها وبعد ثلاثة ايام كرهتها الى حد الموت.. اشماززت منها الى حد الغثيان. لقد استحالت التينة الهشة البريئة الطرية، في ايام ثلاثة الى مجرد جيفة كلب منتفخة تطؤها الهوام او تحوم عليها ذئاب وصقور آتية من كل مكان. - «كيف؟!..»

- «لقد اتضح انها الاخرى، المسكينة البائسة، لم تسلم من الجريمة.. ماؤها كان دم الانسان، وغذاؤها بوله وفضلاته وقذارته».

يفقد اعصابه شيئا فشيئا.. عاد وصرخ في امر قاطع

- «تركز في الموضوع ولا تتفلسف. انت تضع وقتي عبثا».

معذرة!.. معذرة يا مولاي!.. ستفشل في ارغامي على المرور عبر الانابيب العمودية. يمكنك، من ثم، ان تتهمني بجريمة اخرى.. ربما ستعاقبني ايضا على طريقة كلامي وتفكيري، لكنني اؤكد لك، ولن اراجع عن تأكيدي على ان التينة المنكودة اضحت بعد ايام ثلاثة، خلاصة رجس العالم. عليك اذن، ان تصدق ايضا، ان القرية كانت غاية في كرمها وحسن ضيافتها. لكنك، ستفشل، مرة اخرى، لو حاولت اقناعي بطيبة تلك القرية. حسنا. انت بنزعتك «الانسانية» هذه، يستحيل ان تفهم. اذ كيف يمكن ان يكون الانسان مضيافا وكرما، لكنه غير طيب؟!.. لكني اعود وأؤكد، ان كرمهم غمرنا الى ما فوق الرأس. الى درجة الايمان باشياء كثيرة تؤمن انت بها. مثلا، ان بالامكان ان نغفر للموت.. ربما نصلحه. ربما، نعقد معه معاهدة وئام وشراكة.

كانوا اربعين عائلة. ونحن سنعود بعد ايام ثلاثة. بعد تلك الايام كان العام سيكتمل.. واحياء الذكرى لا بد منه. انت تحيي ذكرى اعز ما عندك.. وعلى حساب سذاجتك، تتكون جريمة اخرى. جريمة ثالثة، الان وفي هذه الغرفة، وفي عينيك يا

سيدي، وفي طويتك، يصبح ضحيتها، سببها ومرتكبها الاول. والجريمة بدورها تتشعب لتغمر هذا العالم. وهذه هي يا سيدي الجريمة الاساسية، من مجموع الجرائم المرتكبة بحق طيبة وسذاجة الانسان.. لكنهم كانوا اربعين عائلة مضيافة. وتنافسوا على اضافتنا.. والايام الثلاثة ليست كالجرائم الثلاث تتسع لكل العالم.. ولهذا تنازعوا على حق الضيافة.. والامر سوي اخيرا، فوافقوا على اجراء القرعة. وبأن تسهم كل عائلة بقسطها في نفقات الحفلة التي ستحييها على شرفنا القرية السخية المضيافة.. البريئة من الطيبة الى حد الحبث.

وفي الليلة الاولى اقيمت الحفلة. والجبال هناك كالانسان تنافس بعضها بعضا. يقفز احدها على اكتاف الآخر، وفي شموخ وغرور يتعالى فوقه. ونحن على جبل، لكننا نبدو في حضيض. ففي الطرف الآخر، وراء افعى الطريق العامة السوداء، تعود الارض فترتفع خلسة بين اشجار التين المتشابكة. قليلا قليلا، وبحذر تام ترتفع، ثم حين تتأكد من انها أضحت في مأمن، تمتلك ثقتها الذاتية، وتسرع في ارتفاعها بشكل حاد، وعامودي احيانا، حتى تتشامخ من فوق، في ابهة عملاقية، جبلا أشم تتمرغ تحته القرية، كما قلت لك، على صخور القاع.

وهناك، بين اشجار التين، حيث الارض تغافل الانسان وتصعد، وضع هذا الانسان، الحاجز الوهمي.. وكهربه بشيء يسمى.. العداء..!

بستان التين وراء الشارع المتعرج، مشطور. نصفه في هذا الطرف، ونصفه في «الطرف الآخر». لكن البستان في كلا طرفيه خير ومعطاء، وثمرته رغم حماة الانسان، لا تختلف في الطعم واللون والحجم. وفجأة في مكان ما من ذلك البستان، تتدخل يد الانسان وتعتدي على الطبيعة. تشطر عائلة التين الواحدة الى قسمين. في ذلك المكان بالذات طعنت احشاء الارض. والبستان هناك، ينز دما بشريا، وثماره تتشرب بهذا الدم وتغدو رجسة ومحرمة.

في الحفلة، تحدثوا طويلا عن ذلك «الطرف الآخر» من البستان. جنة تسكنها عفاريت واشباح. العداء شيطان يوسوس في النفوس. يملؤها ريبا وشكوكا ومخاوف تستفحل احيانا حتى تصبح جنونا لا يمكن ايقافه او شكمه. ترتفع اذاك، بنادق في جوف الليل. وبين الفينة والآخرى، ينتفض الظلام المتوجس، على صوت جلبة مشبوهة تنهاى من هناك. ثم تدوي طلقة نارية، تشق قلب السكينة الليلية.

في الاونة الاخيرة، عربد الشيطان. بشكوكه وخوفه وجنونه عربد. وبكل ذلك ضغط على الزناد. في العتمة المطبقة، اخترقت البستان، الى «طرفه الآخر»، شرارة نار، اشتدت الجلبة. وسكون الليل عوى عواء ذئب مشنوم، لم يلبث ان اعول. في هذا الوضع لا يمكن ابدأ ان تنجو البراءة. ثمرة الجنون ضحايا. الضحية كانت، في المرة هذه، صقعة تحتاج الحجر الكامن في صدر الانسان.. صقعة لحمقه.. بصقة في وجه العداء الوقح الآثم! شابة كانت في ليل خطوبتها. جاءت مع صحبة صبايا، يحيين حفل الفرحة والحب.. يرقصن

حول تينة، واذا بالطلقة الهوجاء النارية تطلق صيحتها من اعماق جنون الانسان الشرس الهائج.

والموت مرة اخرى. في صخب الغناء والفرحة يعوي. غادر متوحش، مجنون خطر لا مواعيد لنوباته، وانت الان تتحرش بهدوئه الطاريء وتثير هياجه، والنوبة تنتابه شرسة مدمرة. انت اذن، تلعب أخطر لعبة.. تعاث الموت نفسه.. تحرره من قيوده وتقول له، انطلق!..

هكذا، سترى، ان احتفاء القرية بنا، لم يبرر طبيعتها. فهي كانت شريكة حمقاء في لعبة العداء والموت.. انت تقول «كانت القرية في موقف دفاع» وانا اقول، «انها كانت في موقف غباء مطلق.. لا مبالاة مزرية».. فهي اندفعت في تيار النزوة، لم تحاول ان تفعل شيئا لتصحيح اخطاء الانسان.. كانت جزءا منه.. جزءا من هذا الطرف ومن الطرف الاخر ايضا، جزءا من العداء، وحليفا للموت كالأخرين. اذن فسوء طويتهم لم يمحى احتفائهم بنا، هذا الفخم المرموق، وتحدثوا عن الطرف الاخر من البستان، ورووا ايضا قصة هذا الموت الاخير. وكان يبدو انهم يتحدثون عن شيء اصبح معتادا.. هذه المسلمة التي لا يمكن ابداء التسليم بها، تضحي في القرية شيئا، من قبيل شربة ماء، او ان انصفنا، فمجرد كبوة، يكفي ان تنفض ثيابك من غبارها وتنساها. واذن، فالشيئان كانا ثمة في الحفل، شيئان متضادان ابداء، لا يمكن ان يجتمعا. هل تفهم ذلك الحماس في الاحتفاء بك الذي ولكي يبهجك ويسليك، لا يتورع ايضا عن أن يحدثك عن الموت الطائش الملعون، الذي اصبح محض عادة؟!.. كنت اذاك، اشعر بألم حامز. الصفو طفت فوقه عكارة كدر، عزلت احساسى عما يجري. فهل يمكن اذن لهذا النوع من الكرم، ان يميز لنفسه، ولو عن غير عمد، تعكير صفو ضيوفه؟!.. مع ذلك فأنت ابداء لا يمكن ان تفهمي ما دمت تفكر على الطريقة «الانسانية» المعهودة:

ويقول احد ابناء القرية المضيفة، فجأة

- «غدا سندخل البستان، نجتازه الى «طرفه الاخر» ونبول هناك»

اقسم لك. وانا لا ادعي ان ذلك كان يحمل سوء نية ابداء. فالحق كان يحمله عنه. وكذلك العادة الغريبة هذه. اغلب الظن، ان هذا كان جزءا من عدم الطيبة التي اصر انا عليها، وتعجز انت عن ادراكها عجزا تاما.

رغم كل شيء كنت طفلا. لا ريب ابداء، ان ثمة بقية من طفولة، ما عثمت تتستر في زاوية من نفسي. في تلك الساعة تضخمت هذه البقية وغمرتني. وبسذاجة، ربما حمقاء، مضت تصفق للفكرة. انا لم انفذ ابداء من طريق انايب مجاريكم السقيمة المستقيمة هذه.. طرقي اخرى.. ملتوية في الارجح، ولهذا ترتطم ابداء، باستنكار الانسان. كنت افكر في تلك اللحظة وبطفولتي الساذجة، وعبر طريقي المختلفة الملتوية، بأن ثمة وعدا، في ان نجتاز حاجز الدم والعداء. هذا الوهمي الذي صنعتموه عبر انايبكم العمودية النتنة. وانا ساجتازه احمل معي حبي الطفولي، واصبح جزءا من الارض الطيبة المشطورة، بعد

ان تغدو هي، بتحد شاذ، ملتئمة من دون حواجز، وليزول من ثم هذا الظل الابله المجنون الذي فلق الصخر، وبلا سبب فتح فوهة بركان ما زال ينث ما وصديدا انسانيًا.

طفل وساذج ومن اعدى اعداء الموت. والبول لم يحمل ساعتها اية دلالة غيبية. كان محض تعلقة.. عن طريق التناقض، يمكن ان تبلغ احيانا الطريق السوية.. واقول لك، انني قبل ان تتزوج تلك، كنت ايضا اتعمد البول في المرحاض المقابل لبيتها. وكان ذلك يتم بسرعة، لكن النظرات كانت تلتهب، والحب في الاحشاء يتأجج.. رأيت اذن كيف يمكن ان يعقف التناقض تلك الانابيب المستقيمة الرافضة للانشاء ويطويها؟!.. - «حسنا. يبدو انك قررت اخيرا ان تختصر الطريق. امض.. واوجزا..»

نظرت اليه. كانت تمازج خطوط وجهه، علامات رضى. بيد انك يا سيدي مسكين!.. فأوهامك ما انفكت لا ترحمك. تغرر بك، كما تغرر بجميعنا اللعبة القذرة. انها لا تهادلك لحظة. لكني اعلم، ان مثل هذه الامور لا يمكن ان تهادن الانسان، وانا اعذرک على هذا، مع اني لا اغفر لنفسي. ففي تلك الايام كانت الاوهام ذاتها تتبجح، ولكن عن طيب نية. لا يصح للانسان ان يستنتج من كل ظاهرة أموراً غاية في السخف ومع ذلك فانا لا اشركك مع نفسي، لكي اغفر لك. ذلك ان السخيف دائما يبدو متناهيًا في منطقيته، شريطة ان يتطابق مع ما نهفو اليه. ولهذا كان الشعور، للأسف طيبًا في اليوم التالي، من بعد ان تحقق الوعد. توغلنا في البستان. لم يكن في ادغاله الداخلية غير سلام وصمت. مع اصوات مكتومة لحشائش يابسة تتكسر تحت الاقدام.. او.. او تتحطم حين كنا ماضين في الطريق الى اختراق الحاجز. لا جدار.. لا سلك.. ولا حتى علامة. لم يكن ثمة اثر للحاجز على الاطلاق.. بيد انهم وعلى حين فجأة، توقفوا جذلين. كان هذا يعني اننا اخترقنا الحاجز اللامرئي فعلا.. هم يعرفون هذا، لان الحاجز في الواقع، مرسوم في قلوبهم هم.. في قلوب الطرفين معا. وحين اعلن الرجل عن اننا في الطرف الاخر، وان موعد البول قد حان، كنت انا اسقط في بؤرة دهشة عميقة. سألت نفسي، وانا انسلك عن بهجة تحدي البغضاء وحتى عن احساسى الموارد بالحاجة الى البول، كتعلقة، نفس السؤال المفضي الى ما استنتجته وانا احدثك قبل قليل. «كيف؟.. واية علامة تهدي القلوب الى ذلك؟» وساعتئذ اكتشفت ما اكتشفته.. اجل.. اني ارفع صوتي في وجهك يا سيدي، وأؤكد ان العلامة في نفوسهم مرسومة.. عميقا كانت محفورة بأظافر وحشية وسوداء كالليل.

ابدا.. لن اطيل عليك. انك عدت تضيق بي ذرعا.. انت تتملل.. اعصابك الفولاذية تكاد تسيل. كان بودك، قطعًا، لو تجعلني صوت وجدانك الصادي المتلف الى امتصاص انانيتك من جسدي.. إن عقلك، المحشور داخل الانابيب، ممددا بداخلها في استقامة وتعسف لا يمكنه ان يجلس او يتحرك او حتى ينفذ ظهره، كان يسعدك اكثر لو قلت لك انني مجرم.. اكبر مجرم في العالم.. وانني اخترقت حاجز العدا عن سبق اصرار مورطا معي غلاما يكبرني سنتين. لو اقول لك، اننا القينا انفسنا في احضان «الاعداء»

مدنسين الشرف والكرامة بادراك صادر عن كامل قوانا العقلية؟! آسف يا مولاي!.. فلو زلزلت الارض، لن تسمع مني هذا. ذلك امر لن يحدث رغم كل لعابك السائل داخل فمك وجوفك، يصدر عن رغبتك الملحاحة في وضع المفاهيم «الانسانية» موضع التنفيذ الشامل، وبألا تحدث استثناءات.

حقيقتي هي اخرى.. لن اتحلى عنها رغم مصرعها.. تماما كأبي. كان ما انفك يتمسك بأيمانه بالاسطورة حتى حين كان يحتضر ويموت.. الاسطورة.. حق الانسان في ان يتنقل.. في ارضه.. في الكرة الارضية بلد الانسان.

ومع ذلك اتناقض أحيانا. اكره. حسنا. جدير ان يُكره من يشهر معوله بوجه النور. لكن هذا عبء باهظ. حينئذ، سأنقض ظهري.. سأكره تسعة اعشار العالم.. سأصبح اطلس، او الثور بقرنيه العملاقين.. حسنا.. اني لا اخلو من نزوة.. نزواتي كثيرة ايضا.. لكنني لن احتمل اكثر. ولهذا اراجع.

انت يا سيدي، لا تعلم، بأن في قرارة رأسي اصبعا عجيبة في استطاعتها ان تحقق سيئات العالم. لا تعلم، كم من مرة، سترت هذه الاصبع سوءات من تهددني الان باعتراقاته عني. وأنه جدير بأن يبدو الساعة اكثر استحقا للحب والعطف، وما دمت تحدفني يا مولاي، بهاتين العينين المتوقدتين وبقساماتك التي تقسو وتستحيل الى قبضة مشهورة تتهددني هي الاخرى، فسوف انقذك من غيظك، واختصر الطريق.

الايام الثلاثة، اسرعت مثل ماء زلال يهبط من منبعه العالي نحو المنحدرات. للأسف، ان احدا، لم يدرك ساعتها هذه الحقيقة. اعني هبوط الهاء الزلال الى حضيضه الازلي. لقد كان، على اية حال، ثمة اقرار اعترفت به تلك الايام، بوجود اشياء جميلة تزامم ذلك الحشد الهائل من نقيضاتها وتحاول ان تترك انطبعا ما. وكنا متأهبين للعودة، يتخمننا الكرم، وترهق ايادينا سلال التين. والباص، واحد لا ثاني له، ويغادر المكان في وقت مبكر. وفجر ذلك الصباح، ولسبب لا يدركه انسان، قرر ان يبدو ساحرا وودودا ويحمل براءة تعد بالامان والاطمئنان، كل الكائنات. ومن عجب، ان الظلمة ذاتها، المنهزمة أمام أطياف النور، كانت في ذلك اليوم مسالمة ايضا. وفي الجو صمت يمكنك ان تسمع لو ارهفت اصغاءك فيه، اصداء قبلاات ينثرها نسيم مضمخ بالنداة وبرائحة التين والجبل، على وجوه منتعشة بلمسته حين يمر عليها لينفض عنها غبار النوم. ثمة، يستسلم المرء لاحلام منبثقة عن وعد وردي يفتح في اعماق النفس اشداقا متفائلة نهمة لالتهام احداث اليوم الاتي بشهية.

خرجنا الى الشارع. كنا نحمل سلال التين. نحمل ايضا نصف ساعة من الانتظار. فالباص، لا يمكنك ابدا ان تزحزحه عن موعد طلوعه الثابت، وتجعله يخرج قبل هذا الموعد، حتى بدقيقة. الانسان تعلم النظام الصارم، عن ظواهر عالمه، بيد ان الطبيعة العارية في ذلك الصباح كانت عجيبة في فتنها، ولهذا اضاع الانتظار لوعته ومعاناته، اذ غرق في متعة متابعة مولد صباح جديد منزلق من احشاء افاق هذه الطبيعة الساحرة

البريئة وعما قليل سيقلنا الباص العائد الى السهل، الى قلب الحياة الفارغة.. الحياة التافهة. القاسية. والفرصة نفذت. كل شيء ينفد اخيرا. وهذا الشعور، بالتهديد الذي تطلقه النهاية كشيء مؤكد الوقوع، يغرقك بمخاوف غامضة تفاجئك حين تكون في ذروة انتعاشك ونشوتك. وفي تلك الساعة، كان هذا الشعور على ما يخيل لي، يدس انفه. وتمر عشر دقائق في محطة الباص. وفجأة قررت الجريمة الثالثة، ان تبدأ عملها. قلت له - «اشعر بحصر البول».

- «انا ايضا اشعر بالشيء ذاته».

- «لا استطيع ارجاء ذلك. ست ساعات اخرى»

قال

- «امامنا عشرون دقيقة كاملة»

حقا متسع من الوقت. في عشرين دقيقة، يستطيع انسان واحد، ان يأكل ويضاجع، ويستمتع، ثم يفني العالم اذا شاء! لكن هناك كان البستان وكان حصر البول. ونحن سذج اغرار. نخجل من الا نستر عورتنا. وتجربة البول في البستان كانت ما عتمت برؤوسنا طرية او قل متحجرة.. واهون ما يخطر للمراء، اشياء ليست في حاجة الى اعمال فكر او ابداع. اذن، فالفكرة كانت مستلهمة من احداث الامس او ما قبل الامس. في مثل هذه الاحوال، حين تحاصرك اشياء، حين تسقط رغما عنك في قبضة مفاهيم انسانية لا يمكنك ابدأ ان تبدع. وهكذا فالعملية غاية في بساطتها. في غضون دقيقتين ستنتم. هناك بين الادغال بعيدا عن عيون الناس. والتربة ستشرب السماء الاصفر.. ونحن، ستتححرر من هذا الضيق الكامن في اسفلنا، الذي، كان يخبث ممتناه يجرنا الى قلب الجريمة الثالثة.

وما اسرع ما انطبق الفخ. اذ ما ان دخلنا البستان حتى استحال الى شبكة مفروشة لم تلبث ان انقبضت ونحن في اعماقها. وما كان يجري هناك، كان فوق كل عقل او منطق. فالانسان هو القانص الحقيقي.. لكن الاشياء الاخرى، هي برمتها الشراك والطعم. الطبيعة في ذروة عرائها وسحرها. ستظل كذلك حتى تغدو الفخ الذي ينصبه الصياد، واذاك تفقد كل ما كان من طهرها وبراءتها. وتكتسب نية القانص الخبيثة.

منذ الخطوة الاولى داخل البستان، كنا قد سقطنا في الاسر. يد حريرية ناعمة كانت تدفعنا الى الداخل.. الطبيعة في هذا الوقت الفجري اكثر نقاء. فهي الان فقط، خرجت مستحمة من اعماق الليل. مغسولة بالطل. قطرات من ندى ما عتمت تبلل اوراق التين، تجعلها غامقة واكثر خضرة وطراوة. والشمز مرتو بالرطوبة، منتفخا يبدو. هشا، نضرا، وشديد الاغراء وحتى الانفاس كانت مشبعة برائحة خضراء والاشياء تفيض ارهافا سحرنا، مقتحما نفاذا. وبأيدينا سلال التين.. فقدت محتوياتها، لم يبق منها غير عبء باهظ يشد اذرعنا ونحن نفج الاشجار المتشابكة، نقطف من هذه تينة، وتينة من تلك. والدقيقتان اضحتا خسا. ربع الساعة فيها كفاية، ما دمنا فعلا شرعنا ببول.

التينة التي روينها ببولنا كانت شائخة ومتينة.. عجوزًا في الغالب. واحدة، من الاف اشجار.. قد تختلف عن بعض ابناء اسرتها بالحجم.. لكنها كابناء الاسرة كلهم، صامته خرساء، تعجز عن ابداء رأي، سواء بالسوء سقيت.. او بالبول او الدم البشري. في تلك الساعة كان يكتمل رجس الثمرة. قلت ان التينة، كانت عاجزة عن ان تبدي رأيا.. ولعلي اخطأت. ففي اللحظة تلك بالذات.. كانت نفس الشجرة العاجزة الخرساء، تنقلب الى غول له الاف اذرع، تتلوى. كان ثمة مسخ رهيب من صنع آله اهوج. بعبع قد نفخ صانعه فيه روحا شريرة، تمتص الارواح الخيرة، وتسحر الجمال كله الى كتلة من قبح ودمامة. ولا تكتفي بهذا كله، اذ كانت توقظ ذلك الشيء النائم بغطيط على بساط الطبيعة لتشحنه بمغزاه ومعناه.. العداء! فجأة، ظهر انسان. كان يرتدي زيا قرويا من ازياء «الطرف الاخر». كأنها صعد من اعماق الارض. كان يقف امامنا وجها في وجه. والعالم وجل وجفل كله. الهواء تلوث بأنفاس هائبة متوجسة. تراجع كل منا خطوتين على اعقابها. ثم تراجعت البديهة مع وقع المفاجأة. وكان يخيل الي انها اقوى من موقفنا الطاريء هذا.. كان موقفا مصطنعا لا شك. زيف يحط فجأة، وبوقاحة سمجة يحاول ان ينزع عن الاشياء حقائقها الخالدة. وكان لا بد من قشع هذا الزيف. ولا مناص من وضع الامور في مواقعها، بعد ان غيرت اماكنها التي اختيرت لها. في الواقع لم يكن ثم ما يدعو الى الارتباك او الخوف. انسان يقابل انسانا اخر في محض الصدفة.. ماذا في ذلك؟!.. والفكرة البسيطة الخلوة من كل تعقيد، عادت تغمرني ثقة، وانا عدت وتقدمت من الرجل القروي ويدي مبسوطة أمامي نحوه، وعلى ثغري ابتسامة. لكن الرجل ظل هلعًا.. تراجع مرة اخرى.. امعن في التراجع.. وحين تحررت من عقدة لساني وحييته، كان ما عثم اخرس مرتجفا. في الواقع، كان يبدو انه لا يواجه انسانين مثله، بل ربما شيطانين. وكان في الحالة هذه يتخذ موقف دفاع، ويتحسس شيئا في جيبه.. وعندما عثر على ذلك الشيء، فيما يبدو، صاح بصوت يختلط فيه السخط بالرهبة

- «ماذا تريدون منا؟!..»

- «نحن غرباء.. واصدقاء..»

لم يصدق بالطبع

- «الم يكفكم ان قتلتموها؟!..»

- «نحن لم نقتل احدا.. اقسم لك»

- «كلا.. بل قتلتموها.. وهي على هذه الشجرة تغني للحب «عتابا»»

- «لم نقتل احدا.. لا نريد شيئا منكم.. ضللتنا الطريق.. دعنا نعود»

وجهه كان كصوته. خليطا من غضب والم.. رغم كل ابتهاالاتي المكتومة الى الله، في ان يلهمه الفهم، لم يفهم. كان يتشبث بالشيء المتخفي بين ثيابه.. يشد عليه بقوة..

صاح

- «ماتت قبل ان تكتمل العتابا.. وانقطعت كلمات الحب..»

ماذا دار في خلدي تلك الساعة.. اي شعور خالجي؟! في الاخرى اني كنت من غير شعور او افكار.. او اني، فكرت بالف فكرة واحسست بالف احساس. كنت لا شك في اعماق شبكة داخل الف شبكة.. موقف لا اتمناه لك بالرغم من ان افكارك «الانسانية» كانت ستساعدك، وتذلك على المخرج من المتاهة الملعونة.. انت بالطبع ما كنت ستقول للرجل القروي ما انا قلته له، ما استخرجته من قلب الحيرة، ما كان بديهيا لي، حتى في باطن المتاهة الملعونة التي صنعتوها.. كل منكم صنعها، وكل منكم قذف بي الى امعائها المرتبكة.

- «لولا عداء كما الملعون، ما كانت تنطلق الطلقة الطائشة في اعماق الليل، ولما مات احد»

بيد ان الرجل، كان من الطرف الاخر ولا فرق بين هذا الطرف او ذاك.. في المفاهيم الانسانية، المناسبة من الاناييب العامودية التنتة.. لكني اؤكد لك، ان احدا لا يمكن ان يلقي باللوم عليه.. فلقد كان مقتنعا.. بالتأكيد انه لم يفتر اقواله.. كان يؤمن بها ايمان عبادة.. كالكل.. من هذا الطرف، او ذاك

- «انتم قتلة اولاد قتلة.. وجئتم لكي تقتلوا المزيد من الناس».

ايمان كجذور الشجرة التي حلت فيها اللعنة. راسخ وناشب في اعماق الصخر.. ينهل من الدم المسفوح، وبولنا الذي ارقناه الساعة. والكلمات. الكلمات التسعة المقلمة الاظفر، كلماتي العزلاء تصارع الزمن والفخاخ المنصوبة، والاحجار عاجزة عن زحزحة الجذور الماكنة الضاربة في الاعماق. كان موقف، نتحمل فيه كل اثم البشرية تلك التي لم نشارك نحن في صنع اي منها. لم يكن ذلك الا قفص اتهام نفق وراء قضبانه، مهددين بخطر الادانة بجريمة كنا نعارضها ونستنكرها في اصرار والمحكمة غاصة بمناقضات وملايسات كثيرة في حين ان الوقت يلعب دور البطولة.. دور الحاكم بالذات.. لكن زمام هذا الوقت كان قد افلت من ايدينا. كان يمضي في حرية يسحب معه سخريته واستهائته وعدم اكتراثه.. وكان هننا الوحيد هو الافلات من هذا الفخ واللاحق بالباص العائد الى السهل.. وفي حوزتنا سبع دقائق اخرى. وكل ما في العالم من مشيئة الانسان اجتمع في تلك اللحظة ومضى يحوم حول الدقائق السبع. كان من المستحيل ان اتصور وجود قوة مهما كانت يمكنها ان تسلبني حقي في احياء ذكرى الرجل الذي احببته وعبدته. ثم على حين غرة طائشة، انتهكت الوهم. واذا بالقوة هذه، موجودة. وهي تجاذبنا بانيابها ومخالبها وطاقاتها الرهيبة. ونحن في اعماق الفخ. والافلات منه يتطلب اولا تحطيم مفاهيم.. اثبات حقائق كانت محاصرة كلها ومن جميع جوانبها باطار من دم. وكان الوقت لا يرحم.. وبدا ان تحطيم الاطار الملعون، قبل انقضاء الدقائق السبع، ضرب اخر من مستحيل. بل هي ست دقائق اثرت. ونحن حبيسا فكي كماشة، طرفاها مستحيلان. والزمن الناهب، يضحك بتشف من حق البشرية، ومن الاخطاء المتراكمة سدا ابدا لا يمكن هدمه في بضع دقائق. اه لو تجمدت الدقائق

الخمس الباقية كي يمكن هدم الحاجز.. آه لو تأخر الباص حتى يقتنع الرجل.. لو تعطل..
لو تأجل سفره ساعة اخرى.. ساعة مجهولة ضبابية الجوهر.. مع ذلك فلعل فيها يمكننا
تصحيح اخطاء افكاره.. غسل الادران الرجسة.. واثبات براءتنا.
بيد ان اغصان شجر التين ارتعشت فجأة. فرت من اعشاشها العصافير مذعورة.
العالم، اهتز على صوت فرقعة ثقت كل الامنيات والاحلام. كانت الفرقعة طلقة نارية
توالت على اثرها طلقات. وتجمدت الاطراف والافكار والامال. خفقات قلوب تسارعت
لاهثة تلهيها سياط من رعب. ووراء الحماقة الكبرى كان الزمن يتخفى ماضيا في
طريقه، يفعل كل ما يحلو له، من بعد ان انفصل عن الادراك.
صاح القروي. النجدة لم تتأخر. امتلأ البستان برجال الدورية. رجال من «الطرف
الاخر» ببز صفر. في القمة وقفت سيارتا جيب. أخذونا الى احدى السيارتين. قبل ان
نستقل السيارة، نظرت الى اسفل. كان ثمة حية فاحمة السواد تتلفت بين منعطفات
الجبال، ومكعب اخضر مستطيل يزحف على ظهر الافعى. يدب باتجاه الجنوب ولا يتوقف.
كانت تلك لحظة الصفر. الوقت انتهى. انتهى الممكن والمستحيل. نحن في «الجانب
الاخر».. في العالم الاخر.. بين العالمين يفصل خط مكهرب بالدم والعداء.. لقد اسدل
الستار على اول مشهد، من مهزلة الرجس.

الفصل السابع

الحقيقة ما كنهها؟!.. في اي كهف مهجور تقطن؟!.. في أي سماء؟!.. في أي ارض تكون؟!..

مبتلع في خطواتي العشوائية وفي هذه المعضلة. والكون من حولي يتقلص، ثم في مكان ما بداخلي يعود وينتشر. ويختلط الوجودان في فوضى ويستحيلان الى مزق رمادية تسبح في فضاء الزنزانة. هذه الزنزانة. قفص في احشائه تتبدد افكار وحرية وانفاس ونبضات قلب. ولم يعد باب القضبان المفتوح يعني شيئاً. اطبقته بكلتا يدي كي اقترب من الحقيقة. ترى ماذا تعني هذه الحقيقة؟!.. حملت في الاشياء محاولا اقتفاء اثر ما لها. والنهار لم يحضر بعد. كان وراء كوة القفص جذلا يمرح. وهناك على الجبل وفي الوادي وفوق صفحة البحيرة، يحتوي الكون بملايين اذرعه الناصعة، ثم تتطاوّل يد النهار الفضية وتمتد عبر الكوة الضيقة تحمل لي زهرة من نور. وامد يدي لألتقاط الزهرة، الا انها سرعان ما تذبل قبل ان تنتقل الي، وينطفئ النور. هنا، لا يعيش الا الظلام والشياطين. انه النهار، وانتم من فصيلة البوم والحفافيش، فكيف تتجراون على خرق القاعدة؟!.. قالوا

- «بالنسبة لنا لا توجد قواعد»

تساءلت

- «والحقائق؟!»

قالوا

- «هي ملك من يخلقها ويفرضها فرضاً»

- «حتى لو خلقها من الكذب؟!.. من الزيف والباطل؟!»

قالوا

- «ان كان يراودك الشك، فتأمل ما يحدث وتأكد»

- «ليلة السرداب كنتم صامتين والان تبالغون في الثثرة»

قالوا بتبجح

- «كلما ضعف الانسان، ازددنا نحن قوة»

افحمت. ثم في الصباح وقع قاض عسكري على قرار تمديد فترة توقيفي. وقفت بينهم مثل دمية خرساء وفكرت بالحقيقة والقوة. وكانت تجاهني معضلة منطقية مرهقة. فأني الاثنين ينتزع وجوده ورداءه من الاخر ثم ينتصب متلفعا بذلك الرداء؟!.. اليقين يتدهور. ضاع في شتات الادراك او في هوة العدم. لا يبقى الا الاطيفاف، وهوة عين كوبي امتلأت وتلألأت. كانت على سطحها فرحة ترقص برغبة بهيمية على وشك ان تتحقق. فرحة مصرة على اغتصابي «قوة» كانت «حقيقية» حتى الامس، وان تجردني من «حقيقة» كانت «قوية» حتى الامس كذلك. وكان قريبي يمتليء هو ايضا باشياء متضاربة. وتحت الكوة انهيئت مطافي وجلست بعد ان واجهتها اكثر من مئة مرة ثم ادرت لها ظهري. وكانت الشياطين تتزاحم هناك وتتحدث عن الحقيقة وعن القوة والضعف. اية ضلالة؟!.. واطلت كذلك ليلة السرداب. اللحظة المتجلدة والثدي البض المشرع والبرد. وتحت كوة الزنزانة كنت الان اكفر بتلك الاشياء وابارك للاخر رعبه المجنون وتطلعه النافذ الصبر نحو الاقي المجهول. يومئذ كنت مليئا بالقوة والحقيقة اما هو فكان متخما بالزيف يستبق به الزمن بحثا عن هذه الساعة، وتحقق الزيف وفشلت الحقيقة، وضاعت المقاييس ليستأثر قريبي اخيرا بكل الاشياء.

وانجابت عن موجه الاشباح الغارقة في الضباب، سحابة، فاتضح في اللايقين وجه ذو سحنة معروفة، وانداحت قممات متغضنة غاضبة. وأشار صاحب الوجه الى ارض الزنزانة وقال

- «في هذا المكان سوف تنتهي حياتك.. هنا ستحفر قبرك بيدك»
وسألته بسذاجة وبخوف

- «لماذا؟!»

فصر على اسنانه وهمس بفحيح

- «كلانا يعلم انك كذبت على المحقق»

فسرى الرعب في جوفي كتيارات قشعريرة، وتعثرت وكبوت

- «يجوز ان الذاكرة قد خانتني»

فقهقه مكابرا

- «ليلة السرداب اردت تذكيري بأشياء، وحن الان دوري لأذكرك بأشياء اخرى.. هل تسمعي؟!»

- «لو كنت تعلم بأني املك الخيار لما تجرأت»

- «لقد خدعتني وغررت بي، يا وغد يا حقير..»

- «لم اخدع احدا. كنت بكامل قواك العقلية»

- «.. انا وعقلي وارادتي كنا غارقين حتى الرأس في مشكلة، وعوضا عن ان تخرجني منها

- القيت شباكك في السماء العكر ثم اصطدت»
- «كلانا كان بحاجة لأن يهرب من نفسه»
- «ذهبنا الى القرية ونحن نضمر الغدر بأهلها الطيبين»
- «كيف تتحدث عن الغدر وانت تغدر بي كل ساعة؟!»
- «قول الحقيقة ليس غدرا ايها المزور للحقائق»
- «الحقائق؟!.. اين هي الحقائق؟!.. لقد ضاعت منذ عام ونيف»
- «لا تراوغ واعترف ان الخطة اكتملت ساعة بلنا في الجانب الاخر من الحدود»
- «ابدا. لم نكن واثقين من شيء ابدا حتى اللحظة الاخيرة»
- «لهذا ابرقت الى اسحق شرفنطح وطلبت منه القدوم فورا»
- «اسحق الكاذب؟!.. ضع ثقتك في المستحيل ولا تضعها فيه»
- «انت تقول هذا لأنه خذلك ولم يأت»
- «خذلني.. خذلك.. انت تهذي..»
- «انا لا اهذي.. انت سلبتني عقلي وارادتي وصيرتني لعبة بيدك»
- «لكنك تعلم بأننا كنا عائدين لآحياء ذكرى ابي»
- «لا تسس اني كنت معك.. لا تحاول ان تبيعني اساطيرك كما بعتها على المحقق ايها المفترى»
- «انك انت المفترى والمتقلب والتافه»
- «قل ما شئت، فكذبك على الاحياء والاموات فاق كل حدود»
- «انك تهذي.. تعلم جيدا بأنني اجلتته في حياته وفي موته»
- «ومع ذلك كذبت عليه وعلى المحقق...»
- «ربما كانت الفرصة كما قال المحقق، لا يمكن ان تعوض»
- «واخترعت ايضا اكذوبة حصر البول والبول»
- «بلنا فعلا قبل ان نلتقي بالقروي»
- «بعد ان تسلقنا الصخور ولهثنا كالكلاب الظامئة، من الخوف والتعب»
- «كانت الطريق شاقة. تخلصنا من سلال التين. تركناها تحت شجرة ومضينا نتعثر لاهثين متوجسين..»
- «ثم ظهر القروي فجأة. انا مت بجلدي عندما رأيته.. لكنه كان ودودا وطيبا..»
- «انا كانت جرائي اسطورية.. اقتربت منه وصافحته وهو ترحم على الفتاة المسكينة واستغفر لاهل القرية ولعن العدااء. هذا الساذج البسيط، كان يفهم الامور اكثر مما يفهمها الساسة»
- «ثم بخبثك، بصقت على تلك الطيبة.. كذبت على القروي وظلمته.. قلت للمحقق انه سمانا قتلة وهددنا بالمسدس ثم سلمنا للدورية..»
- «لم يكن يحمل سلاحا؟!.. ربما.. ودللناه على موضع سلال التين.. ثم في اعلى الجبل،

- صادفنا مجموعة من الصبايا يحملن الجرار ويمضين الى النبع.. اصواتهن العذبة وهي تلقي علينا بتحية الصباح ما زالت تعزف في رأسي»
- «تسكعنا ساعة، ثم ركبنا الباص، وعند احدى نقاط التفتيش القي القبض علينا»
- «وفي المخفر، اطعمونا وسقونا واعدوا لنا فراشا دافئا في الليل»
- «ثم احتميت انت وراء صغر سنك، وتركتني اتجرع الامرين يا وغد»
- «انت تبالغ. لم نفترق الا يومين.. وكنت قلقا عليك الى حد الموت..»
- «وبعد ان دفنونا في ذلك القبو المظلم الرطب في اقصى الشمال ستة شهور كاملة، ادركت الحقيقة واستفقت من الخداع»
- «ولذلك حاولت قتلي. اكثر من مرة حاولت ذلك.. لا.. لم يكن ثمة خداع لتستفيق منه.. بل هم خدعوك.. كلمة واحدة في رسالة خدعتك»
- فقهقه عاليا وتشدق يقول
- «كلا.. لقد فات الاوان. لم يعد باستطاعتك جري الى التسليم بحمقي وتفاهتي.. وما عليك الا الاعتراف بالحقيقة»
- «آية حقيقة؟!»
- «انك انت الاحق التافه الذي حفر قبره بيديه»
- وارتعدت فرائصي. انتفض بدني مثل غصن شجرة تؤرجحه ريح عاتية. وكنت ساقطا في قلب بحر يعج بمخلوقات جائعة مفترسة. من كل جوانبي كانت هذه المخلوقات تحاصرني وهي تستهدف لحمي. والوجود في الخارج تلاشى، فلم اشعر بمحمد وهو يقتحم علي الزنزانة ويدخل. وحين نبهني الى وجوده، كنت اقفز من قاع وسواسي المظلم واعدو الى الحياة. وبادرني بدهشة
- «وجهك ممتقع وبدنك يرتعش.. فهل تشعر بسوء؟!»
- فتمعنت في وجهه الوديح الجزع من اجلي، وامتلأت حبا وقلت لمحمد
- «انها الحيرة يا صديقي»
- وتكوم بجانبي. وكنا منحشرين في اقصى الزنزانة. كان ثمة على ما يبدو قوة خفية تدفعنا الى الالتصاق بالجدار البارد، وتود ان نندفن في احشائه الصلبة. وتساءل
- «مم؟!»
- فقلت محاولا ان اجد الدفء في احضان البرد والرطوبة
- «اني اتساءل، ان كنت وقريبي قد ضللنا الطريق حقا، ام اجتزنا الحاجز عمدا وعن سبق اصرار؟!»
- حذجني بشك وغمغم في شبه بلاهة
- «انت ادري بذلك مني بالطبع»
- وضحكت ضحكا طرب له الزيف المهيمن، وقلت
- «اكاد اقتنع بأن الامر كله ليس الا اكذوبة سمنجة من اكاذيب خيالنا البشري، مثل

حكاية جارك الذي شاهد المارد وحاول ان يقتله»
فاعترض في اصرار

- «حكاية جاري ليست اكدوبة. لقد شاهد الرجل المارد واطلق النار عليه، فاخفى المارد وجن الرجل في ساعتها وما زال مجنوناً»
- «المضحك ان تصدقوا رواية حكاها رجل فقد صوابه ولم يشهد عليها احد سواه»
فاحتج محمد

- «لا تقل وحده. كان حماره معه ورأى كل شيء»
وسقطت الضحكة الجديدة، بعد ان دوت، في مهاوي السهم. فالضربة الطائشة تفضي هذه المرة الى حكمة للحياة كثيرا ما يضل المنطق طريقها. هل يكون هذا اذن، هو الطريق الوحيد المؤدي الى الحقائق الضائعة؟!.. ربما. فاذا فقدنا الحقيقة في درب المنطق فلا بد ان نبحث عنها في درب اللامعقول.

وبرثاء تطلعت الى وجهه البرونزي المنمش. هناك حيث تتكاثر الطيبة المتاخمة للغباء، فتلوا هذه الطيبة حبلا وضعوه في عنقه ثم سحبوه الى شرك الموت. هكذا فعلت انت بقريبك ذلك الملاك المعذب بالطهر. القيت به الى هاوية الرجز واعتديت على ملائكيته. سقطات تنتهي بارتباك المنطق وضياح اليقين. وها هو محمد الطيب يعاقب على طيبته. والطيبة تولول ضارعة مطالبة بحقها. تلعلع على لسان قريبك، وتشير اليك انت. انت الشيطان المتسبب في مصرع خير العالم كله. غول اقام الدنيا واقعدها. انت واضع الحواجز وخالق الخلافات ومؤجج الحروب وزارع الدمار.. فمرحى لبولة صيرتك اعظم مجرم في الدنيا!.

وقلت لمحد فجأة

- «اياك ان تستأنف الحكم يا محمد»
وتوقعت ان تملأ دهشته الزنزانة، بيد ان وجهه نم عن ارتياح وقال ببشر وسعادة
- «خشيت الاستئناف دائها، وها بك تحذرنى منه بعد ان كنت تشجعني عليه».
- «ما الذي اخافك منه يا محمد؟»

تطلع في السقف. وتابعته الى هناك. بقع متغايرة الالوان بين الاسود والابيض كانت متناثرة على هذا السقف. اشكالها بلا نسق. لعلها ذرق غامق قذفته الشياطين الى اعلى في اوقات مختلفة، فالتصق بالجدار الفوقي منبسطا على اشكال غريبة. وكان المصباح الكهربائي طامسا في حفرة داخل السقف، ومن اسفل تطبق عليه شبكة معدنية مفلطحة، وغبار كثيف يكفن المصباح بينما ثقبوب الشبكة مغلفة بخيوط عناكب متخمة بالتراب. ولأول مرة ادركت كنه تلك الظلال الكركمية المبهوثة ليلا من السقف الى ارجاء الزنزانة، وهي تمهد الطريق لرقصة الشياطين. وقال محمد

- «زميلي الذي كان معي، استأنف فضوعفت مدة حبسه»
فوجئت. وفي السقف لم يكن غير صمت وقذارة وبصاق شيطاني ومصباح عتم وضع

ليخدم الجنون والشك. ترى لماذا دفن محمد ذاته في كل هذه الاشياء قبل ان يدهمني برده الحاضر المخزون في جهمته التعسة، جاهزا مثل كفن اعد بعناية لكل الاشياء الطيبة؟!.. وفوجئت مرة اخرى من هذا التوقيت الطائش البارع في اختيار الوقت الاكثر ملاءمة في تعميق فصام الاشياء، وتسمرد الحقائق على نفسها والقضاء على تحمسي للعدالة. وبذلك الشك بكل ما هو كائن مضيت اتفحصه. دائما لم يكن مقتنعا. بيد ان الحاحي عليه بالاستئناف، جوبه بصمته. محمد لا يمكن ان يكون داهية يتخفى بلبوس بلهاء. رغم ذلك بقي الكفن مطويا ومحفوظا في صندوقه المغلق، غائبا عن انظار وهمي المؤمنة بالمعجزات، حتى نبش القبر واطلقت الشكوك عويلها المشثوم معلنة عن موت المعتقدات بأسرها. الان ينضي محمد الكفن وبه يلوح. اي خبث هذا؟!.. بل اي ضحك على الذقون؟!.. كان الغش اذن يتسرب الى كل الابعاد.. وخشيت من ان يحرمني من هذا الانسان الوحيد الذي تبقي، فترثت في الحكم متخيلا صورة للموقف. وكان الحروف يتلاشى ليبدو من ثم شكل دمية لانسان فارغ لا عقل ولا ارادة له. وثمة يد لا منظورة تحرك الدمية وتدفعها نحو مسلك قدر بعد ان تعبثها بطاقة من الكيد واللؤم والجنون. ان البشر المفرغين يمتثلون بالجريمة. والطوايا الحسنة يدركها الفساد بلا قصد والضحية توضع في قفص الاتهام. وتحاكم. انه الزيف بكل قوته.. وعبثا حاولت العثور على تلك اليد الخفية الناشرة لهذا الزيف بدأب لا يتوقف.

- «لماذا لم تقل لي ذلك من قبل؟!»

حك رأسه. تلكأ. قال بحزن

- «خشيت لو حدثتك من أن تشك بما رويته لك من قصتي»

- «ولماذا اشك بك يا محمد؟!»

- «لقد شككت بالفعل بنوع البضاعة، واعتقدت بأن ثمة في الامر موادا خطيرة.. اقسام انها كانت مجرد ساعات»

فقلت وانا احملق بالبقع القاتمة المبهمة الاشكال على السقف
- «الارجح ان المواد المخدرة كانت معبأة داخل الساعات»

وبادرني محتجا في محاولة لدحض فكري

- «لكن الساعات كانت تعمل.. لقد سمعت التكتكات بأذني.. وانا مستعد لأن اقسام بالمصنف على ذلك»

فاحتويته بنظرة رثاء وقلت

- «اصدقك. ولكن اليس من الجائز انها ساعات من نوع لا يعمل الا بالهيريونين او الافيون؟!»

فتساءل باستغراب

- «اويوجد شيء كهذا؟!»

باقتناع قلت

- «لا ادري. لكن من المستحسن ان نبحث عن مبررات معقولة لما يحدث»
بعسر تملل. وطلعت اتضحت حيوانية وتبحلق في اشياء ليست مرئية لكنها تفرض
احساسا ثقيلا الحمل. وترك هذا الاحساس توترا ضالا ومعذبا على وجهه. ولاحظت انه يهم
بالحديث ثم يعدل عنه الى هذا الصمت الذاهل المشف كأنها عن افكار قد تصلبت او
تجمدت في رأسه. وكان يجب ان انقذه من هذه المتاهة الجديدة

- «محمد. خير لك الا تفكر او تسأل»

أطرق. انبسط وجهه محمرا في حياء. هس

- «حاولت ان افهم ما قلته فلم اوفق»

فضحكت وطمأنته

- «لا ضير في ذلك. فالانسان كثيرا ما يتفوه بأمور لا يفهمها بنفسه، وما قلته الان لك هو

من قبيل هذه الامور المستحيلة على الفهم»

وتطفل صوت مستفسر من خلف القضبان

- «اية امور تلك التي يستحيل فهمها؟!»

كان ثغره منفرجا إنفراجته المعهودة. وجثته الضخمة تقف دون قصد في طريق اذرع
النور المحاربة للعتمة، ومثل سيف باتر تقطعها. والتصقت في تلك البسمة، بسمته هو.
وهي ملتصقة في وجهه مثل انفه او فمه او عينيه. لا ريب انه شديد الحرص عليها،
واغلب الظن انه لن يتورع عن ان يفعل كل شيء من اجل الا يفقدها. هكذا، كان لا
يمكن حتى التفكير في محاولة اقتلاعها من وجهه وزرعها في وجوهنا نحن، اذ ما اسخف
الفكرة؟!.. وقلت بعد ان عدت الى نفسي وسؤاله

- «الحياة يا سيدي»

وكانت بسمته تتعمق في حين كان محمد يهم بمغادرة الزنانة. ولم يكن يبدو انه مقتنع
بما قلت، اذ لم يلبث ان قال ببساطة، «ان ثمة من يعقد الحياة بنفسه ويهبها الفرصة
لألقائه وراء القضبان، وان ثمة قواعد ثابتة لا ينبغي ان ندعها تفلت من بين ايدينا»، ثم
اضاف

- «...والاجدر بنا أن نوجد بيننا وبين الحياة تفاهما يجعلنا نأنس الى عملنا وانفسنا ومن
يحيط بنا، فها انا مثلا افهم عملي واحبه، وافهم السجناء واتقرب اليهم، واحاول جهم
ايضا»

ومكثت احده بارتياح ساخر. ورغم ضياع وجودي بين سحنته المترهلة وجسده
الفائض بالسمنة وبالسداجة، فقد كان يخيل لي ان محاولة تودده كانت مثله في السماجة
والغباء، وربما ايضا لا تخلو من النفاق، وقد خطر لي ان أسأله عن مدى استعدادده لأن
يزوجني ابنته الجميلة التي اراني بالامس صورتها، بيد أن غمامة من الافكار الكنيبة
اكتسحت هذه الرغبة الطارئة من المزاح، وبددتها.

على انني عدت وفكرت بما قاله عن الاشياء والتفاهم، كان هذا السجنان في الواقع

يقترب من حيث لا يدري نحو حكمة نادرة وشمينة وكان ثمة بالفعل شيء يُصنع بيننا وبين الأشياء. شيء يختلف باختلاف الظروف والأشخاص، لكنه في ظرفي الراهن لم يكن تفاهما أبدا. لقد كان هنا شيء ما حقا. وقد بدأت أحس بهذا الشيء واعتاده. وفي الزنزانة حيث كانت خدعة امتلاكى اللحظات تكاد تتجسد أحيانا، متواطئة مع هذا الشيء الغامض، فأني كنت وكنتيجة حتمية لذلك التواطؤ، انزلت رغم انفي الى المستقبل الذي افلحت حتى الان في قطع الطريق عليه داخل راسي. وهكذا، كنت اجابه مضطرا رؤيا الغد بذلك الشيء الذي دعاه يوسف بـ «التفاهم». لقد كان «تفاهمي» هذا مجرد تسليم بقدرتي الذي خططوه لي، مشوب بخوف غامض، لكنه أبدا لم يكن استسلاما. لقد بدأت أعيش الخدعة الجديدة مع يقين واحد، هو انني لا بد سأعود واجابه تلك الكتلة الثلجية ذات الوجه المترهل الكالح الذي سيمطري بحصباء من تهمة واهاناته ويوجه لي الاسئلة المدربة على القاء المرء عميقا في امعاء الخدعة. وعلمت شيئا اخر كذلك. فلقد كنت مهيدا بتصديق الاوهام، واني معرض للاعتراف بما وضعه طيف قريبي في رأسي بمعاضده الشياطين القاطنة في هذه الزنزانة. كنت الان في وضع اوشكت فيه ان أتبادل مع قريبي الضائع، كيانه واغدو آلة. فجأة تغيرت الأشياء. وكنت لا ازال اسأل نفسي عن الحقيقة وسط عازفة مجنونة تتطاير خلالها كل الحقائق ولا يثبت شيء في مكانه.

وواجهني الوجه الصلد ببسمة عريضة. ولما كنت عرضة لتيار الريح الهائج، فقد جابهت لحظة لم اتوقعها منذ كنت نسيت اهميته. لكن الملف الضخم الجاثم على الطاولة سرعان ما اعاد كل شيء الى مكانه من هذا الواقع الذي كفت عن امتلاكه. ادركت، ان هذا الملف لم يكن هناك بمحض الصدفة. كانوا قد صنعوا له فها وحشوه باننياب وحش وروضوه على ان ينقض علي في اللحظة الملائمة لهم. وعاد الغيم الاسود يجمل قبة السماء. وانا آلة تنقبض للغيم.. تنبسط للصحو.. تخاف.. تهدأ.. آلة من تلقائها تعمل.. تعمل لكنها لا تنتج للآخرين شيئا، فلا تكرهمهم ولا حتى تحبهم. وكانت هذه المناقضة الكبرى، التي تكاشفني تماما عندما اصبح بين ايديهم مباشرة. ساعة افقد ملكيتي على لحظاتي في غرفة التحقيق هذه، فقدانا مطلقا محضا.

- «هل تشرب قهوة؟»

وسكت. في الشعبة الثانية هناك، جيء بالقهوة دون سؤال. لم يكن ثمة ملف ضخم ولا تهديدات. كانت ثمة ورقة امتلأت بتفاصيل حياتي الشخصية، ليس هنا، بل من «الطوف الاخر»، الذي قذفني في زمن غابر الى هنا. كان في تلك الاوراق، رقم البيت، رقم الهاتف، اسم الشارع. وكنت في عمري تماما. مجرد طفل، واحس برثاء «الجلادين» لي. طفلا مفجوعا. ثم شهور ستة تمرق خلصة وتفحق الطفل. لم يبق رثاء ولم يبق فجيرة. بقي موقف.. وملف.. والأشياء التي احاول اللحاق بها وهي بمهب الريح.

- «حسنا. ستشرب القهوة ثم نبدأ.. أتدخن؟»

واجبت بالنفي القاطع. وكنت احس بأني امسك بطرف خيط حقيقة صغيرة هي فوق كل الشبهات، فادرك ان استمرار هذا الخيط لا يعني الا اصراري على هذا النفي. وعاد الرجل يسأل، وانا انفي أسئلته. وعاد يردد ما قاله.. وانا اردد ما قلته. وكنت محظوظا اذ زاياني الخوف من ان يتطفل قريبي ثانية فيضع في فمي اقوالي. وشربت القهوة يلازمي احساس متهكم. كنت اعلم بأني اتلقى رشوة. وان الراشي لن يجني مني الا افلاسه. وكان بديها ان يتأجج حنقه مرة اخرى. وامتلاً بالحقد. وحرر شحنة منه على طرف الطاولة فسمعت فرقة تحت قبضة يده. وشعوري التبس ثانية، لكني تمسكت بالخيط. وكان يصيح ويردد

- «شهد قريبك!.. شهد قريبك»

وازددت تشبثاً بالخيط

- «شهد علي.. أليس كذلك؟!»

فصاح

- «قال الحقيقة»

ورأيتها في اعماقي ناصعة كالثلج.. داخل رأسي وبين يدي.. ثم تذكرت بحثي المضني عنها، فاحترت وتساءلت

- «وما ادراك ما هي الحقيقة؟!»

عدت اليها اذ شاهده يمسك بين يديه. وقال مشيراً الى الملف الضخم

- «خيوطها هنا.. والخيوط القليلة التي تنقصها سنكشفها رغماً عن انك»

واحتشدت بدماعي خيوط كثيرة، بلا رؤوس.. اشياء مصحوبة بألم وبعلامات استغراب وسؤال.. وتعجبت من انقلاب الحب الدافق بغضاء طافحة في لحظة

- «أهي اقوال قريبي وأهله؟!»

- «وهي اقوال (الفران) كذلك»

واستطرد يتناثر من فمه زبد خائر

- «كل الفران»

وكنت اوشك ان اوقن بأني فأر مغلوب على امره. لقد دلت على ذلك الاحداث، لكن مشكلة، بل مشكلتين، اعترضتا هذا التصديق فلقد اخفقت في تعريف معنى الفأر البشري، او على الاقل التوفيق بين دلالاته المختلفة، في رأسي انا وفي رؤوسهم هم. ثم هذه الغطرسة الانسانية المكابرة على ما قد يكون وفق عقليات اسمى من عقليات الانسان، حقائق صلبة. من ثم، انتصرت العقلية البشرية بي. اني لا اختلف عنهم الا بأناببي الملتوية، أما مسألة الفأر، فمسألة أضع صوتي مع أصوات باقي البشرية ونحتج عليها. «لست فأراً.. كلنا لسنا فئران».. ورفعت الرأس اليه، ومع كل ما بي سمحت لنفسي ان ترثي له. وكان يلهث بطريقة سؤال او رجاء في الارجح

- «الا تريد ان تتكلم؟!»

- «تكلمت بأكثر مما يجب»

وابتلع لهائمه ثم عاد يتقياً حنقه

- «ثرثرت. لكن الكلمة التي أريدها لم تخرج من فمك حتى الآن»

وفجأة رقت لهجته فاستطرد

- «قلها. وأعدك بأننا سنأخذ ظروفك بالحسبان.. مما سيخفف الحكم عليك»

كانت ضحكتي الآن تعسة. بعلانية اطلقتها في وجهه. فليسيء الظن. وليغضب الغضب

الأخر. فهو لن يفهمني وسيفعل ذلك. وأنا أرثي له. ليس لنفسي أرثي بل للإنسان

الاحمق. وهو في دربه الممتدة عاموديا كمدخنة أو بئر. وهو بأنابيه الساقط فيها بقوة

جذب قهرية وبسرعة لا يمكنه أبدا أن يوقفها. ولو قلت له ما يطعم بسماعه فذلك

أهون من أن يتوقف عن خط مساره وإعادة نظره في الأشياء. لكني لو قلت له ذلك

فسضاعف من القوة الدافعة له وسأمدّه بالسرعة اللامعقولة الأخذ به للدرك الأسفل.

ولهذا فسأرفض. لن أرحم أبدا أوهامه. وقلت بأصرار

- «لن أقولها لأنها غير موجودة. أما الحكم فلن تصدره انت. انه حكم واحد ولن يصدر

بحقي حكم غيره»

كان مستشيطا. حك أسفل أنفه بيده.. أعلى شفته بأسنانه السفلى. وكنت أتأكد ان في هذه

الغرفة يوجد اصراران. اصراري واصراره. ولم أكن واثقا من نصر اي الاصرارين.. اي

منهما سيبتلع الآخر ويغيبه في أحشائه.. بيد ان اصراري راسخ، لكني ما زلت عنيدا في

تحاشي الاطلاع على المستقبل. ولم يكن بي استعداد للمغامرة ولا المقامرة.

وصرخ

- «عليك اذن ان تعلم بأننا طرفان في لعبة كرة. وسنغلب اللعبة حتما وستخسرنا انت

بالتأكيد.. خذوه!»

وأوماً للحارس بأشارة، ففهمت أشياء وانتابتنى رعدة خوف.. وتشاءمت. ولا بد ان

سيمائي كانت في تلك اللحظة محتالة. اذ لا شك اني كنت مبتسما، لا مكترثا. ولا شك

رأني العالم ودودا معه كما لم يرني منذ أكثر من عام. لقد كنت أريد الاحتفاظ برعبي

وبتشاؤمي لنفسي.. لي وحدي. وأنجابت من الزمن الاتي أشياء. ورغما عني تمنعت في تلك

الأشياء. وكانت مرتبكة وغير مقروءة، الا اني استنتجت منها، ان الجريمة الثالثة ما زالت

غير مكتملة حتى الآن....

الفصل الثامن

بر الوعد بذاته في سرعة خاطر. اذ لم تلبث الجريمة الثالثة ان دخلت مرحلة كانت تبدو حتى الامس كمجرد نكتة. وعلمت، ان النكات الحقيقية، كامنة في اننا لا نضع بالحسبان ما لا يخطر في الحسبان. وقريبي كالحلد تماما. يتخفى عن وعيي تحت الارض ويواصل حفر الانفاق. اما انت يا «محسن» فبعيد بعد حياتي المسلوخة المتعفنة في قفص صدء بارد.

ناجيت «محسن» كمناجاتي الله، وانا اعلم بأنه لا يسمع. «محسن! لا شك أنك ما زلت مشغولا برواية قصتك للمرة المليون». هناك في القبو المظلم. في قرية نائية منعزلة. في اعلى شمال «الطرف الاخر». يدخل قادم. افواج مساجين. قرويون. او من عرب «وادي خالد». كان لعاب فضولي ينهمر مع غثياني. شاهدت عشرات من انواع القمل. حتى اصبحت خبيرا بجميع الحشرات القاطنة بملابس الانسان وشعره وبدنه. وعلمت ان ثمة انواعا حمراء وصفراء وسوداء، بل حتى القمل الاخضر رأيتة. وعلمت ايضا، ان من القمل ما هو طويل ومدور. بمخالب او بغير مخالب. وبطيء الحركة واخر سريع العدو. كانت تيارات الاتين من الاعراب تثير فضولي، اعلم ان سيغزونا الليلة قمل.. لكن ما نوع هذا القمل؟! وعد اخر بار. كوعد قريبي وكوعد جلادي المهموس في اذان جريمة تتمحك بي عنوة. وهناك، دب يحجل كالسمان، او كالقمل البطيء الحركة. والدب مترهل، تهتز معه حين يدب عذوق من شحم. يتكوم بجوار اخر قادم. لا يتركه يلتقط انفاسه او يعتاد عشوة العين في القبو المظلم. والقصة تولد، مرة اخرى، كالنوار على شجرة أزلية عاصرت الانسان منذ كان.

الاحق!.. بيديه، حطم رثائي له. كانت «قضيته» تبدو منذ بدايتها حمقاء. هو نسخة معكوسة من هذا الكون. طفل في الثامنة عشرة وبليد وشحيم. صورة من طيبة لا تعرفها الدنيا، او تعرفها باسم اخر يدعى «الحق».

حين «محسن» اختلف مع والده في شأن فتاة، اقدم على اسوأ ما يمكن ان يقدم عليه

انسان مجنون. فر الى هذا «الطرف الاخر». خال محسن يقطن في هذا «الطرف الاخر» في عرف «الطرف الاخر» ذاك.

- «كان ظلام دامس. بت ليلتي في ظل جبل. واستيقظت على وجوه آدمية تحدق بي. الالوان كانت كاكية. الرشاشات مصوبة الى قلبي. فقدت صوتي. سئلت، فأجابت عني الرعدة. ضحكوا مني. اغتظت. حسبوني فيما يبدو مجنوناً. فاخذوني الى حيث لا ادري، ثم حين اعدت، لم ارغب في العودة. قلت لهم «اريد خالي». فعادوا وضحكوا مني. قلت «ابي يرغب في تزويجي عنوة» ازدادوا ضحكاً. وبكيت، فضحكوا اكثر. افهموني بالاشارة، اني كرة قد تدرجت خطأ الى جانبهم، وان البديهة تقضي، بان تركل ثانية الى الجانب الذي جاءت منه. يا ببي على ما يحدث. كنت اخشى عقاب ابي. اذ ما كان يدريني بأني ساواجه عقاباً اكبر؟»

- «اذابوا لك شحمك؟»

نكتة. ومحسن يرمقني. على قسمات وجهه تتناثر طيبة لا تدري كيف تعاتب. في عينيه يتربع ألم انسان لا يعلم لماذا تحدث امور غير مدروكة لمن لا يسأل من امثاله. قصته تتكرر خمسين مرة في اليوم الواحد. اسمعها. اسمعه وهو يرافع عن ذاته - «اقسم بالله العظيم..» وأقول

- «دعني انا اكمل قصتك..»

يعلم محسن بأني احفظ قصته عن ظهر قلب. الا ان البقرة ملتصقة في وجدانه. انه لا يشق بي. اما البقرة، فمحال ان تتزعزع من وجدانه مهما اعاد حكايته.. وكرر. وكان جذع شجرة الارز طامة قصة محسن، الكبرى

- «رياضة الصباح!.. يا ببي على هالرياضة.. الشجرة لا يزحزحها فيل. تأتي ستة ونرفعها. بالقوة.. مجبورون. لو نعجز فالكراباج سيخلق فينا القوة. ونسير الى الامام سرا.. والكراباج يلهب ظهورنا ونحن نسبح من غير بركة. نغطس في قاع بحر. يسار.. يمين.. يسار.. يمين.. فطست!.. والله العظيم فطست. انهال الكراباج على ظهري. سقطت على الارض. لا اسمع غير نباح الكراباج. وفقدت وعيي، لكن السوط ظل يلعلع وهو يضرب «تخدعنا. يابن الشرموطة؟».. ومن ذا يجيب؟.. كيف اجيب وانا فاقد الوعي؟»

افهم محسن. واصدقه ايضا. لكني من اجل ان انقذه من اعنى الآلام، اقطع حديثه، - «وما ادراك ان الكراباج ظل يضرب، وانت في غيبوبة؟»

تجربتي في إبعاده عن كابوسه نجحت، محسن يبتعد عن قلب البركان الى اطرافه - «في المستشفى اكتشفوا صدقي. لم اتظاهر بالاغفاء. كشفوا ايضا عن ضعف في قلبي. لا تغرنك السمنة. قالوا هذا طبل اجوف.. كله فارغ.. جسمه خاو وعقله خاو، ثم قبروني هنا في «حلبا». التعذيب اضر بي، ولهذا لا اقدر على صوم رمضان»

أرأيت كيف تختلف نكات الدنيا يا محسن؟.. في رمضان الفات، امتلأ قبو حلبا،

بجيوش بؤساء. كل كان يطهو طعامه، وانت يا محسن كنت الذائق. ذقت مئة نوع طعام. بالذوق فقط جعلوك تصاب بالتخمة. حين كنت تذوق، كنت تصمت. كانت تغفو في اعماقك، قصتك المسكينة. الان، ما انفك شهر الصوم بعيدا، فالدب الاحمق ما عتم، بالتأكيد، يتابع رواية القصة، ويجاهد في نزع البقة عن عقله. وانا قصتي لم تبدأ الا الان. مشوقة ومشيرة. ومسرحتها جسدي وشعوري.. كياني واحاسيسي، مشدودا امضي مع الاحداث الجارية في كتمان تام. حلقة في اثر حلقة. اتابعها. لا استهدي لنهايتها لكني اعلم، بأني املك ايقافها لو بعث ضميري وفقأت عين الواقع، لو اسلمت الكلمة، الاكسیر الشافي لانانية جلادي المكلومة، لهذا الجلال.

ومحال ان املك ايقاف الاحداث، ما دامت الكلمة مفقودة. كانت في الرعب تبرز قدامي كسراب. وانا اركض في حلبة في اعماقه. ألقى هناك الشبكة في لا شيء. وبدأت القصة، مثيرة اكثر من اية مغامرة، وأي كتاب، فهي خصوصية، تبدو كجزء من ممتلكاتي الخاصة، ثم في الحال ادرك تفاهة ظني. فانا اعانيها وحدي، لكني فيها محض مسرح احداث. اما هم فكل شيء في الواقع. يخططون وينفذون. وهم القدر العارف بمصيرك ويكتمه عنك.. ثم يعطيك منه قطرات.. قطرة تعقب قطرة. لا يفعل هذا الا حين يحلو له.. في الوقت الذي لا تختاره انت.

وبروا بالوعد بسرعة حرمت مخاوفي من فرصة استشراف الاحداث. اعادوني الى الزنزانة واقفلوا باب القضبان. كانت هذه اول خطوة. وعوض ان ادهش توقعت ان تأتي خطوة اخرى. كانت ابياءة محققي ملتصقة بمخيلتي، وهي تعني اشياء يتولد عنها قلق، وتتكدس منها في اعماق النفس غمامات سوداء. وكان هذا اقصى ما ادره. قرفصت في زاوية الزنزانة ودفنت رأسي بين ذراعي. لم افعل شيئا اخر. لم استبق الوقت. وكنت اعاني اختناقا عقليا يمتلك كل مبرراته، لكني مثل محسن، عجزت عن كل سؤال. كانت الاسباب مختلفة، الا ان النتائج في أي الاحوال لا شك تفضي لدرج واحدة، ثم لا تلبث ان تتلاقى. ولم أكن ارتاب من براعتهم، في كل مكان، في ابداع طرق التعذيب. وكان بوسعهم، لكي ينالوا بغيتهم على اكمل وجه، ان يتركوني، وببساطة تامة، مقتنصا داخل قبضة غموضي ووسواسي وانتظاري، يوما او يومين. بيد انهم، وكما اتضح لي وبسرعة، كانوا اغبي من ان يفعلوا هذا. فلم يطل انتظاري اكثر من ساعة. وعندئذ تحررت من مخالب ذاتي منتفضا على اصدقاء فرقة تأتي من جهة مزلاج باب الزنزانة.

كان هناك «كوبي» بذاته. وكان وجهه يتقعر مع عينيه الخنديقيتين. ويتضور جوعا «انسانيا» بحثا. واستعرضت حجمي. لو اني اتربع في «معدة» هذا الزوج، فهل سأفلق في ان اكفيه جوعه؟.. ام ان «المعدة» تلك، اشبه من ان يشبعها، كياني كله؟!.. كوبي لا يترك لي وقتا لتأمل هذا. انه يقف فوقني تماما. يمطرني حقدا من عليائه. حذاؤه يركل مؤخرتي، ويدق قصبة ساقي. والصوت جذوة مستعرة بالنار «الدائمة»، المتقدمة في جوف هذا البدن البشري، العادي في جذعه واطرافه ورأسه.

- «قم».

قمت. وقفت امام «كوبي». كنت اطول منه بشبر واحد، لكنه اعرض مني ببوصات. وتساءلت اخرى «كيف سيأكلني كوبي؟!»

صرخ في وجه سؤالي

- «هات يدك!».

وقدمتها اليه مفتوحتين. وعلى الرغم من انه كان «كوبي» بذاته، فقد لمعت قدمي، وبمخيلتي، صورة له عادية تماما، ولانسان عادي تماما، وكان يخيل لي اني اصافح انسانا.. اصافح «كوبي» بحرارة وبود.. وقرصني خوف فجأة.. أفكنت افقد عقلي بالتدريج؟!..

- «كلا..! اطبق راحتك وقارب بين معصيك»

وفعلت. وانطفأت الصورة السابقة، كشرارة. والصورة الاخرى برزت تحمل شيئا من صدق مع احساسي بشيء اخر مادي. زحمة حول المعصمين المتلاصقين. برودة رطبة. حدود صلبة ملتفة حولها كسوار. وكان كل ذلك احدى حلقتي القيد. و «كوبي» يمسك بالحلقة الاخرى. يملك ان يسحبني بواسطتها. يملك ايضا ان يطبقها، او يضعها حين يشاء.

وانكششت الاشياء. ومع الصورة الاكثر صدقا نتأ توجس متعقب للحظات. و «كوبي» يلتهم هذه اللحظات ولا يسمح لها ان تمرق بهدوء. كان يلهبها بسوط جوعه «الانساني» كي يشبع هذا الجوع. الا انه بهذا الاستعجال الشره المجنون للأكل، كان يبدو معي اكثر انصافا لحقيقته «الانسانية».

والتف القيد الاخر، في لحظة، حول احد قضبان كوة الزنزانة. فارتفعت قدمي قليلا عن الارض القذرة. اصبحت اطول. وقهرت علو الكوة، والغيت مهمتها. كانت هذه الكوة، مجرد ثقب تأتيني منه هبة ريح تحمل معها في الليل الاشباح. ثقب تبرز منه نهارا، قطعة سماء زرقاء، او مكسوة بالغيم. وظلام كامل في الليل تثقبه بثور لامعة في بعض الاحيان. الان، انكشفت قدمي مناظر من هذا العالم. حديقة وبنيات واناس. ومكثت احدق في الورد. وورائي يطبق باب الزنزانة. يقفل. وتحتي ارض ضاعفت من قوة جاذبيتها. فأحس شدا من طرفين متضارين. لم اعبأ. كنت اسمر افكاري مع عيني في الورد. وكان جميلا ومسلية. وله مقدرة على لفت الانظار، لكنه في هذا الموضع بالذات، كان يكتف سر في الارجح. وبصفاقة حاولت ان اتغاضى عن شد الطرفين وان اقتحم سر الورد. اخفقت. فالطوق المحكم حول معصمي لا ينفك ينشب فيها اسنانا واظافر. ولم يكن مسند الكوة بالسعة الممكنة اياي من ان اتشبث فيه. وعندئذ، كان كوعي ينزلق عن هذا المسند فتأرجح إذآك كالمصلوب، لكني اتمنى لو افقد مثله وعيي كي اتخلص من الام تتقاسم كل كيائي وتتوزع في انحاء بدني.

ثمة، كانت انواع المضايقات الروحية والجسدية مجتمعة. وتأكل في المعصمين. وعطل

مؤلم حول الرقبة وفي منطقة الكتفين. في حين ان رد فعل الجذب المتوازي من فوق ومن اسفل، كان يشحنني باحساس تشنجي عكسي. ولما كان دمي هو الشيء الوحيد الذي لا يردعه الجذب الفوقي، فقد رضخ للمغناطيسية الارضية ومضى يتجمع في ساقي، ويفعمهما ثقلا وكلاله، فيفرغ الرأس والافكار، وتتلبد العينان بغشاوة شبه ضباب. وتلحان في طلب الراحة بالنوم ضمن عوائق مثيرة ومنبهة لا حصر لها. وازاء هذا التطنان المتناقض، كان يحتدم في الصدر ضيق وانقباض. يقبع ثم، حجر هائل كحجر رحاء، والرقعة من العالم المنجلي من فتحة الكوة، تصاب امامي بدوار. تبهت. والورد القاني كالدلم لا يآثر منه غير بقع صارخة حمراء كدمامل تنتشر في افاق العقل. لكني، ومن حسن الحظ، اني رغم وجودي ضمن هذا كله، فقد افلحت في عتق كياني من افطع ما يمكن في هذا الفخ المطبق. الانتظار. وكان في عوني اعتيادي في الاونة الاخيرة، على عدم التصدي للزمن القادم. ورغم ان وضعي الحالي كان يمتلك القوة الجبارة لارغامي على احصاء اللحظات، فان استسلامي المطلق للحظة كان في متناول اليد. وكان هذا اشبه بخلاص. اذ اتضح لي اني باستسلامي الكامل هذا قد حققت معجزة من اعجز ما يعجز عنه الانسان. كنت اتيه. اهرب. انتصر بذلك على الامي ونفسي. احبط في الوقت ذاته، غايتهم الكبرى واقضي عليها. وفي هذه الحالة النادرة فقدت البديهة معناها، والقاعدة امست استثناء. اذ كان يجب ان تتفاقم معاناتي بمضي الوقت. لكن ما حدث اني تحذرت، ثم افلحت في النوم، وبلغت عندئذ ما كنت انشده من راحة المصلوب. واستيقظت على صوت جلبة مصدرها باب القضان. ورأيت ظلاما خلف الكوة. والنور الشاحب يغمر ارجاء الزنانة ويعاني من يرقان لا معهود. وتبينت ان الليل قد حل. واعاد لي وقع اقدام صارم بعضا من وعيي، ثم دار حديث. وعلمت من الاصوات ان «كوبي» قد عاد. والاخر كان «يوسف» في الاغلب. وشعرت بيد تمتد نحو الكوة، ثم تراخيت فجأة وسقطت على الارض.

بصعوبة، شاهدت يوسف يقرص حذوي. كنت منهارا وكخرقة. وكما لو كنت في حلم، رأيت الشرطي ينزع عن يدي الطوق. مقتلعا عن معصمي انيابا حادة. وشابت آلام المعصمين راحة، الا ان حالة اعيائي لم تسمح لي حتى بتنفس الصعداء. وبوهن بالغ، حاولت العثور على «كوبي». لا جدوى. لا بد اذن ان «كوبي» قد ابلغ اوامره ثم ولى. وكان العطل الجزئي في افكاري وشعوري يزول تدريجيا، فأميز بين الاشياء بوضوح يتزايد كل لحظة. لكني مع ذلك لم اتيقن من صواب تمييزي بعد. فلقد كان ما زال يترى على افكاري بالية كجميع الاشياء الاخرى من حولي. وهذا الشك في تمييزي الواضح خلت ان وجه يوسف وهو يحلق بي كان مصطبغا بتأثر. وقال لي - «اني أرثي لك. اخشى عليك. انني اعجب كيف تحتمل كل هذا؟!... انهم مضممون على المضي معك حتى النهاية. فلماذا لا تستغني عن هذه الالام وتعطيهم الكلمة التي يريدونها، وتنقذ نفسك؟»

ولم ارد عليه. بيد اني بالية احساسى وبوعىى المتزايد، كرهت يوسف في تلك اللحظة بصراحة، لأول مرة.

ولا بد ان ارتباكا كان حاضرا هناك في اللحظة هذه. ففي الواقع، ان كل شيء انكفأ فجأة على وجهه وامسى نقيضا. كنت استيقظت تماما. وكراهيتى الصريحة المفاجئة ليوسف، جاءت كمنبه طرد عن حواسى خدر الوعى، فنعتت اذاك الام ممتدة برحاب وجودى المحسوس والاخر الملموس. وعدت ابحت عن كوي. وحين بلغ صوته سمعى يقترب ثانية من الزنزانه، راودنى احساس نحوه مفرغ من كل الكراهية التى اغرقت يوسف فيها. وكان هذا، ظاهرة غريبة اخرى. مناقضة من اغرب مناقضات الانسان. الاطمئنان للجلادين!.. كيف؟!.. كان بثر الالتباس عميقا عتما. وسقطت في اعماقه. ومرة اخرى تساءلت بجزع بل في رعب «هل ان هذا بادرة لجنون يوشك ان يدهم عقلى.. كي يختطفه؟!.. ام هل اني مازوشيا دون ان ادري؟!.. ام هل كانت تولد بي نزعة الى الانتقام من نفسى، حين لم يبق في العالم ما انتقم منه الا نفسى؟!.. ام. ان المسألة لا تعدو رفضا لنفاق يوسف العذب، وترحيبا بصراحة «كوي» البشعة؟!..»

خيوط مشتبكة.. طريق مسدودة.. متاهة!.. والاحتمالات معقولة ومقنعة بأكملها. لولا انها اصطدمت باحتمال اخر صلب كجدار من فولاذ، وعليه كانت تنهشم. كان الواقع اقوى. وكان مجرد لعبة تلعبها احساساتى، لتسلينى ولكي تسعفنى في احسم لحظة. كانت تختار لي الشعور الملائم.. تحذرنى من ان امقت كوي. لقد كان خوفا منه يبرز وحده مثل هذا المقت. الا اني كنت اريد ان اتحداه ولا اخشاه. هي اذن، مواجهتى الحقيقية مع «كوي». القوة الجبارة التى اعددتها له ولهذه الساعة..

ولم احص اللحظات التى مرقت رغم انها كانت كافية لتغيير المشاهد من حولى. وانقطع جبل افكارى، فرأيت الان ثلاثة اشخاص يزدهجون في باب الزنزانه. يوسف.. محمد.. كوي. وكان يوسف كالابله، يحمل كرشه الهائل ويتنصت ويداه غائبتين في جيبي سرواله. ومحمد يحمل سطلا صدئا اسود ويحاول ان يعثر على عيني. ووجدها. وتبادلنا نظرة. وقال وجهه اشيء. وكان حزينا. من اجلي بالطبع. ووجدت بي رغبة لأن امسح عن وجهه هذا الحزن، فتبسمت له. وتحققت الرغبة. فانبسطت شفتا محمد قيد شعره في شبه استجابة متواضعة لي.

ونظرت الى كوي، فرأيت الجوع ما انفك يصرخ من وجهه. وعلى غير ميعاد حضرتى النكتة. فتخيلت ذاك الوجه، معدة حيوان مجتر. وقلت لنفسى، ان كوي اكلنى ثم عاد وصعدنى، وهو الان يحاول اجتراي. وعلى حين غرة، صرت اصلب معدن. وطواحن كوي عادت من طين. ونبتت في المعدن الصلب نتوءات مدببة حادة، وكان كوي يبتلعني وانا انغرز في بلعومه.. انشب في حنجرتي.. واختنق كوي وراح يسعل. وتألمت من اجله. وتلبسني عطف صادق نحوه فتحولت ذبابة. وبخفة، طرت من حلقه وتسלلت الى فتحة

منخاره الايمن. وعطس كوبي. فرقت من انفه، ومضيت احوم قرب وجهه بطنين مزعج.
وعطس كوبي. كان برما. وانا اضحك منه، لكني ارثي له. انه وقريبي شيثان مختلفان،
لكنهما ندان. الخلد يحفر تحت الارض الانفاق. وكوبي البقرة يجتر ويجتر. يشرق برذاذة..
يعطس. ثم تأمر البقرة

- «ضع السطل هنا. واذهب لاحضار طعامه»

ولم يكن اسهل من ان اتصور ما يحدث. الا ان «كوبي» اصر على جعلي غيبا مثله فقال
بخوار مبحوح

- «ستأكل، وتبول، وتتغوط، داخل الزنزانة، ولن يسمح لك بالخروج منها ما دمت مصرا
على انكارك»

واختفى قبل ان تهفت اصداء خواره. وراثني يهرول في اعقابه، ويتلاحقه في اخلاص.
ومضى يوسف ايضا، وكان محمد قد مضى قبلهما، فبقيت وحدي ورأيت الاشياء بوضوح
تام. الساعة، توقفت لعبة اوهام حواسي الموغلة في المتعة. من ثم، داهمني حنين حاد
للارملة المنكودة بوشاحها الاسود. تشوقت لحياقي كذلك. وتساءلت ايضا عن موضع
قريبي في هذه اللحظة. وعما سيواجهني.. عن مصيري ذاته. وضعفت فجأة. وتلبسني خوف
سرعان ما تصاعد الى رعب كاسح. هانت الاوجاع النابحة في جسدي اذ خفتت امام زئير
انطلق من اعماق كياني. واجتاحني رعدة. ثم رأيت محمدا خلف القضبان، فكتمت
عاصفتي.. وهدأت. وقال محمد

- «نسيت المفتاح. سأمضي لاحضاره»

ونظرت الى الطعام المعتاد. وعاء حساء. عدة زيتونات سوداء. ملعقة مربى.. ملعقة
زبدة.. وشطيرة خبز.

وهاجني غثياني الحاد. وصرخت من موقعي في اقصى الزنزانة
- «كلا!..»

ورمقني بنظرة استفسار، فأضفت

- «لن أكل..»

قال بتوسل

- «بل لا بد وان تأكل. فلو لم تأكل فستضعف. وستنهار.. وهذا كل ما يريدونه لك»

- «لو اكلت، سأتقيأ احشائي»

- «لن يحدث ذلك. انت جائع. كل. وسأجلب لك وجبة اخرى. ستقاوم.. وستأكل.. من
اجل الله ستأكل»

الله!.. هل تذكر؟!..

كان بيني وبين الله شيء اشبه بتصفية حساب. وذهب محمد، فجاء الله. وأراني كيف
ولدت مع غل في عنقي.. غل حرير ناعم ملعون. هل تذكر؟!.. وضحكت من نفسي. كنت
هذه الدمية الفذة المدعوة انسانا. فأنا لا ريب الناسي. وتضاعف نسياني في السنة

الاحيرة. وخشيت من ان يأتي محمد، فأفقد الله!.. كلا. جاهدت منذ ستة اشهر ويزيد، على الا افقد عهدي واياك. انك انت الناكث. حقا. وولدت مع القيد. وكان القيد حبا لك. وصلاتي تأنيك قبل افطاري كل صباح. ووصاياك انفذها بندا بندا. ثم انكشفت اللعبة الكبرى. في «الطرف الاخر» جاهدت كي لا ينخرم جبل الحب. كنت اتناول الخبز الاسود وحده واجف. وقريبي يلتهم اللحم ويسمن. وبحث عن مواعيد اعيادك لانفذ فيها كل وصاياك. وفشلت في ان اجدها.. وفقدتك. وانت كنت تريد هذا.. وسددت عني اذنيك.. وخرمت الجبل بنفسك.. وتنصت. ارهفت سمعي المطنون.. فوقعت على وقع الاقدام.. وجاء محمد وبيده مفتاح الزنانة. وسحلت ذاتي على الارض التربة، ومحمد يتقدم نحوي. فتلاقينا في قلب هذا القفص الضيق الملعون. وسألته

- «قل لي يا محمد. هل تؤمن بالله؟!»

فاستنكر سؤالي له

- «ومن ذا لا يؤمن به جل جلاله؟!»

- «لماذا اذن، لا تعطيه حقه.. فتصلي؟!»

قال ببداهة

- «اني اصلي لله في قلبي كل لحظة»

- «ان كان الامر كذلك، فلماذا فرق بينك وبين احبائك والفاك في السجن؟!»

- «تلك حكمة لا يدركها سواه، سبحانه»

وضحكت، وسألته

- «هل تتصور ان الله يمكن ان يرى ويسمع كل مخلوقاته في آن واحد؟!»

وظننت اني اطرح عليه سؤالا سيرهق افكاره، لكن محمدا لم يتردد. لقد كان يعرف

اشياء ثابتة لا تتغير. وقال على الفور

- «ما دام موجودا في كل مكان.. وهو العليم الحكيم.. ولا خافية تخفى عنه..»

وسكت قليلا. كانت هذه ثرثرة لا طائل منها. وثمة اسئلة ازلية وعويصة، تجثم

كالتخمة فوق القلب، ما انفكت تفشل في الحظيان باجوبتها. وهناك ايضا اسئلتي الخاصة

الشخصية. فلماذا احاول التقرب منك وتقصيني؟!.. ولماذا اللعبة المغشوشة تملؤ

هذا العالم؟!.. ولماذا لا يشبع كوبي ابدا من نهش كياني؟!.. ولماذا قريبي ثور

معصوب العينين؟!.. لم افهم، فتطلعت بطعامي ورأيت، بركة فيها بول زنخ غامق،

ورأيت ملعقة غائط بني، وصديدا ابيض، ونعل حذاء متقفع، وخنافس سوداء صريعة

منكمشة خامدة الانفاس. وصرخت بمحمد

- «أرفع هذه الجيفة من قدامي!»

امسك بكثفي. كان كالمصعوق. امتزجت رعدة كفيه برعشة كثفي

- «هديء من روعك ارجوك»

وتهافت. وتهافت معه. وتراجعت. وتألمت معه. كنت في لحظة، قد تقمصت روح

الجلادين.. كنت جلاده بالاكراه. وامارس انسانية الانسان بمجاريه العامودية.. ولكني الان بعد ان عدت، لم املك الا ان اجهش، منتحبا بدموع. مزروعة انظاري في الارض. ارض الزنزانة القذرة التي لا يطؤها الا الملعونون. كنت احد هؤلاء الملعونين. اخجل بالعالم، وبنفسى اخجل اضعاف خجلي بالعالم. فالارجوحة، كانت ارجوحة طفل. رفعتني الى سورة جنون، ثم هبطت بي نحو بحر ألم. استحلبت من عيني قطرات الضعف الراضخ. في غمضة عين ضعفت وتأرجحت. وجنوني افرغته بضحية مثلي. وبنفسى. وهلعت، اني اتواطأ معهم. هذا محال. فنحن بمباراة كرة. ولا يحسن ان ينتزعوا مني اية نقطة. وعندئذ ثبت لصوابي فنفضت عني خذلاني ورفعت رأسي الى محمد. كان جزعا مسكينا يتعذب. وشدت على يده وطمأنته. وعزمت ان آكل طعامهم الرجز من اجله، فقاومت غثيائي. الا ان فكرة ملحاحة كانت ما انفكت تحاصرني مذ اوماً محققى ايباءته الحبيثة، يقصدني..

«لا تأكل!.. دافع عن نفسك بالاضراب عن الاكل!» وكانت الفكرة تحفر في رأسي، حتى لحظة قدمت لمحمد تضحية لم تحظ بمعناها الا الساعة، فأكلت من اجله وحده. وقال لي وهو يرفع الفضلات

- «سأسامرك الليلة من خلف القضبان»

وتأملت القضبان التي صنعها الانسان مثلما صنع الحاجز اللامرئي. طرفان. انا في طرف وهو في طرف اخر. وكلانا اجتاز الحاجز.. بصق عليه، لكن الحاجز عاد بمشيئة الانسان، محسوسا ملموسا قضبانيا لا يمكن خرقه. مع ذلك قلت

- «لا تعني القضبان شيئا ما دمنا سنتسامر ككل ليلة»

وكنت فقط اطمع بتحدي القضبان. اذ كنت في الواقع اتمنى لو اخلد للراحة، وكان النوم ضروريا لي لاستعادة ما استفرغ من طاقاتي اليوم ولكي اتهيأ للغد. اني اعلم بأن هذا الغد سيحمل لي الوانا اخرى من التعذيب. وكنت اجهل بالطبع ماهية تلك الالوان، لكنني عاقد العزم على احباطها كلها، مهما بلغت عنفا وشراسة.

وتكوم محمد في الدهليز الضيق خلف القضبان. وتحدثنا. وادركت ان القضبان كانت موجودة بالفعل. وهي تقبع ايضا في اعماق النفس، وتحدانا بمثل تحدينا لها. تنتصب كالعقبة الجبارة، تجعلنا نقاسي حين نحاول ان نقرب ونتلاقى. وسألني «محسن» اكثر من مرة

- «اتعتقد انهم سيزوجوني من تلك، بعد كل ما حدث لي؟!»

وتفحصته. دب وبلید وشحيم. وفي رأسه تدور اسطوانة يتيمة، ابدأ لا تسكت

- «اعتقد ذلك..»

وهوي عقل «محسن» داخل حفرة، وتتهشم كل «عظامه»

- «وما العمل اذن؟!»

اصعب سؤال يجابهني في كل حياتي. وهو بيدر عن اعتاد ان لا يسأل. وحين يسأل من

لايسأل، فلا بد ان سؤاله من نوع لا رد عليه
- «محسن!.. كنت بغنى عن كل هذا، لو كنت وافقت منذ البداية»
ويحك محسن رأسه ويحملق طويلا بدياجير العتمة
- «لكني هربت الى خالي، فلماذا اعادوني وسجنوني؟!»
الحاجز!.. القضبان!.. اللعنة منتشرة في كل مكان!..
- «لأن ثمة حاجزا يحظر عبوره؟!»

فيقول ببلادة

- «ولماذا الحاجز هذا؟!.. أليست الارض ارض الله؟!»
واتيه. مثله. واقهقه. ها هو ذا قد افلح في ان يضع عقلينا في نفس القلب. كانت براءتنا
في الزمن السالف، قد فعلت نفس الشيء. اثبتنا انا مجنونان.. لن يختلف عنك يا محسن في
شيء!.. ونهرته

- «محسن!.. لماذا لا تعيد علي قصتك، وتكف عن الاسئلة؟!.. انت تسأل اسئلة حطمت
عقلي في الرد عليها دون جدوى»
وتشاءب محمد وتساءل

- «الى اين شرد فكرك؟»

فتشاءبت خلفه، وشعرت بنعاس طاغ

- «ابدا. الا اني اشعر بنعاس»

ونفض الرجل الفارع، يغغم

- «سأتركك اذن، واتمنى لك اطيب نوم»

ولمحت السطل الاسود الصده، فسخرت من امنيته وتساءلت

- «بين الغائط والبول؟»

بيد ان السطل كان يخلو من الغائط حتى الان. اذ قررت ان لا اتغوط فيه. لقد كان
بالامكان ان يحتمل المرء رائحة بوله، لكنه يعجز عن مقاومة رائحة الغائط. وكنت
اعتزم الا افعل هذا ما دمت اقدر ان اصمد. من ثم، فقد تعززت في جمجمتي فكرة اضراي
عن الطعام. وهجعت لانام مع هذه الفكرة، ألا ان حصر البول ايقظني بعد ساعة. وتكرر
ذلك طوال الليل. كنت لا شك اعاني من توتر في الاعصاب. واعاني من نومي
المضطرب المتقطع، واعاني من رائحة بولي الزنخة الملتصقة في انفاسي تغمرني
اشمئزازا من ذاتي. كان هذا نتاجي الدنس البشري. نتني. مصدر جريمتي الثالثة التي
أواصل مضیی داخل دهليزها الدامسة اعشى العينين. ولدى هذا الوهم جنحت افكاري
فتوقفت. أفحقا ان بولي كان مصدر اثمی.. سبب جرمي؟!.. لم يكن ثمة اي مستند
اثبات.. ولا حتى بيئة واهية وضعيفة. وسمعت في اعماق الليل، صوت الانصاف يجلبجل
ببراءة بولي من هذه التهمة الخرقاء.

ونفضت صباحا مع كل هذا. بول ورائحة نتن وبراءة. وهذا الشطر من نفسي يشحن

شطري الاخر بمشاعر خيل وكأنها أكثر ثقة من اي وقت اخر. فازاء براءة بولي، كانت التهمة تلتف حول اعناقهم «هم» كالأفعى. والحاجز اللامرئي، يبدو كدليل قاطع. وثمة كراهية عرمة تنبث مع نفحات النتن قاصدة اصحاب ملابستي الكبرى. وكانوا كثيرين. وهبط قريبي من صدر قائمة الرجس الى اخرها لاسباب تحتتم هذا. كان قريبي الان، مجرد الة يديرون دفتها فتسير بهم الى حيث يريدون. وبينه وبين يوسف، اتضح شبه يختلف عن شبهه مع كوبي. فالاثنان، قريبي ويوسف، مسكينان، وهما مدعاة لكراهية لا يمكن الا ان يصحبها رثاء. لقد كان يوسف كقريبي، ينافق ذاته في اخر الامر. كان يجاهر بالعطف علي وهو يعلم لا شك بأن العطف يبدأ من حيث ينفذ العدل.. واذن، فقد كان يوافقني، ويتعاون مع جلادي في نفس الوقت.

بول ورائحة زنخة وبراءة في جانب. وثورة مكتسحة في الجانب الاخر. كان هذا كل حياتي ساعة استيقظت. والزنازة ترسم لحياتي هذه صورة بريشة فنان بارع. لا ماضي في هذه الساعة. وبقينا الا مستقبل فيها. وينهمر في الخارج مطر واهن. يمتزج وقعه الخافت بزققة عصافير، ما من شك في انها تنتفض الساعة مبللة برذاذات باردة رطبة وهي تواصل زقزقتها الازلية. والورد الاحمر موجود ايضا متفتح الاشداق منطويا على اسراره وهو ينتعش بالغيث. وبدا كل هذا عبثا. وكان اعجز من ان يحمل، او يتضمن معنى. لكن ظمأى وغثياني وجفاف فمي ومرارته، اشياء لا يمكن تجاهلها. وكان هذا، مع ما اجمله في الشطر الثاني من نفسي، بمثابة اصدق صورة لحياة الانسان على وجه الكرة الارضية.. زنزائته الكبرى.

كانت الاقدام تضرب في كل ارجاء تلك «الزنزانة»، ثم تتجمد عند حاجز. والحاجز، قضبان. والحاجز اسلاك.. وهو اثر ايضا. ينتشر على اماد هذه الزنزانة الكبرى. ينتصب ايضا في اعماق البحر.. يشمخ في اجواز الاجواء. وهنا يتلبس هذه القضبان الصدئة والجدران. والارض اشبار. وهي حياتي. وهي حياة البشرية. والوقت مبكر. مطر. وثمة خارج زنزانتني الشخصية، ارض زلقة، من فوقها شمس تكافح كي تصل العالم، دون جدوى. ومحمد يغسل الان قذارة الانسان، ويزيل الغائط المتراكم في حوض المرحاض. وكان هذا بشعا. واحترت بسؤال بشع اكثر. فمن ذا الذي سيقوم باراقة سطلي الخاص؟.. كان بولي يغمر ثلثه. وارتحت اذ ركنت الى المنطق فخممت، اني سأحمل بولي بيدي ساعة خروجي الى الحمام. وكنت الان احمل حياتي المكونة في كلا شطري ذاتي، وانا فارغ الصبر. وسمعت وقع اقدام وحديثا لم افهم معناه. ثم اعقب ذلك ضحكات متهتكة غير عابئة بالدنيا. وتحفزت. ولعنت اشياء لم اعرفها. مجموعة اشياء فقدت ذاتيتها كالمستقبل واضاعت هويتها كحياة الفئران البشرية داخل المصيدة الزنزانة. حاولت تبلع ريق، الا ان شيئا لم يهبط في جوفي. وغضبت اكثر. وعجزت عن ان اعد جسدي باستعادة ذاته المغتصبة. وصككت اسناني، سأحاول!.. سأحاول!.. وطفى عطشي، حتى جف كل ما بي..

واقترب وقع الاقدام وكان يضرب داخل نفسي. يطاءً احساسى فأثور. وطالعتني وجه الشرطي الاشقر. ولأول مرة تريت عندى. وتملاني من خلف القضبان، بمكابرة فوق طاقة الانسان. وبألوهية، كان يشرب اخر قطرة من سائل اثر في بدني. وانتابني غيرة على الله. احياناً، كان الله سمحاً أكثر. ارحب صدرا من هذا المخلوق التافه المتعالي. كنت اناجي الله ويناجيني. في تلك الايام المنصرمة، حين استجاب لدعائي اكثر من مرة، احببته كصديق حتى سمحت لنفسي بازالة ما بيني وبينه من كلفة. وتدللت عليه.. وعاتبته احياناً.. ورأيت هذا الواقف خلف القضبان وهو يجذف في بحر فقاعات. ويتنفس اوهاماً.. ويحيا في دنيا آلهة تتعجرف بالزيف. واستفحل ظمأى حتى غدا مثل صحراء قاحلة لم يلمسها ماء منذ سنين. وكان الغضب يتصاعد في اعماقي كحرارة متقدة تقفز بالزئبق الى اقصى درجات المحرار. وصرخت فجأة

- «اني عطشان»

ولعلي خاطبت الريح، اذ لم اسمع الا ترجيع صوتي

- «واريد ان اغسل وجهي وفمي»

كلاً. فالريح كانت تسمع. وتغضن الوجه الانشوي ثم ببجاجة غمغم

- «ستفعل حين يطلب منك ذلك»

اذن، صدق ظني. امامي دودة تتناول على خالقها، وتتحكم بمطالب جسدي المشروعة.. تجعل من الله الحقيقي اضحوكة

- «اريد ان اشرب»

- «تشرب، حين اقرر ذلك»

- «انت لست الله، لتفعل هذا»

جن جنونه. بيد اني لم اندم على ما قلته. كنت الطف من غضبي بتحدي اوهامه وبالكفر بكفره وبتبديد الوهيته المزعومة

- «استعد اقوالك واستغفر في الحال!»

- «قلت انك لست الله وتلك حقيقة»

- «وهل تصر عليها؟»

- «لن اشرك بالله احداً»

- «وتصر ايضا على ان تشرب الان؟»

- «هذا حقى»

- «حسناً. ستشرب في الحال»

ومثل «آله» لا مرد لقوله، شرعت «في الحال» هذه تتبارى مع اجزاء اللحظات كي تبدو نفسها فعلاً. حالاً.. وارفع مفتاح ضخم من بين مجموعة مفاتيح سلسلتها مربوطة بحزامه. ثم انفتح الباب «في الحال». و «في الحال» كذلك، كان فوقى وتركني قدماء.. تسحبني في الواقع نحو السطل. وتشير اصبعه المرتعشة اليه، ويتفجر الصوت في امر

قاطع

- «اشرب!»

وقفت على اقدامي وجابهته. كان طويلا ورشيقا. مثل فتاة. وتخيلت «الله» المزعوم هذا، وهو لا اكثر من مومس قادمة من ماخور. حالا!.. وتهتك الصوت العاهر المتأله

- «اشرب.. اني آمرك بأن تشرب حالا!»

عهر والوهية.. ورشاقة وشراسة.. الوحشية شقراء و «جميلة». في الليل تخدع الفتيات الغريبات. في الليل ايضا، يمتليء دبر «الله» هذا، بأشياء صلبة تعود لرجال معتوهين.. في الظلمة يتمرغ هذا «الله» في ذلته وشذوذه. جبار بجنونه.. نجس في تفكيره.. مغمور بالبول حتى قمة رأسه.. لن يتخلص منه ما لم اشرب بولي «في الحال»!

- «قلت لك اشرب!»

- «اشربه انت!»

فتلقت لكمة. تفتق عندئذ في وجهي مزاب. وكان يهطل ماء احمر فوق الفم. وفتحت هذا الفم، ورفعت رأسي. استقبلت الواابل. وكنت الان امتلك ريقى وبصاقي.. رغم عطشي لم ابتلعه. كانت طلعة «الله» المتعجرف قدامي احق به مني. وقذفت البصقة في هذا الوجه.. فاقعة حمراء.. بصقة دم محض.. طاهر..

وتأكدت بسرعة من انه، في فقدانه لصوابه، قد عاد لصواب الانسان العادي. فكف عن ان يكون الها. فلقد كان يشمئز ويمسح وجهه، ويوشك ايضا ان يتقيأ، ولما كنت استبعد ان يتقيأ «الله»، فقد تعزز يقيني، من اني افلحت في جرجرته الى حضيضه البشري وسرى عني. اذ اصبحنا، في هذا الموقف، ورغم عدم تكافؤنا، ندين. واذن، فقد كان الان بظروفه الجديدة وتكشف حقيقته المنكودة، ينتزع عني استنكاري امره، ويزيدني قوة في مقاومته كأنسان وكوحش فاجر. وعلمت انه لن يتنازل عن «انسانيته» كما تنازل عن «الوهيته» بسهولة. مع ذلك فقد ساورني رعب، بمجرد ان الشرطي الاشقر عاد انسانا. كنت اعلم ان الله سبحانه لا يرعب. وفي الاونة الاخيرة ادركت ان الرعب قد خلق في الجبلية البشرية من اجل ان يرهب الانسان، انسانا اخر. هكذا، طالعني الخوف من هذا الانسان، الذي جردته من اوهامه وعظمته، الانسان الذي تبصق في وجهه «حشرة»، وتصر على الا تشرب ما درته من بول.

وكنت في رعبي هذا مدفونا في طيات زمن غاب عني بوجوده. فلم اشعر الا والشرطي الاشقر قد عاد يسحب معه احد كلابه (ويبدو انه غاب في تلك اللحظات الضائعة عن ادراكي)، واذاك تماكنت وعيي مرة اخرى وتهيأت.

وقال الشرطي الاشقر في لهجة تتضمن امرا ووعيدا

- «حسنا. الان ستطيع وستشرب بولك»

بيد اني لم اشرب البول. فأطلق في وجهي كلبه، وهو يخاطبه بألفاظ لم افهمها. وانقض الوحش الكاسر علي، وكان اقوى مني فتراجعت عنه، صدتني جدران العلبة. كانت

الجدران منتشرة في كل مكان. وليس ثمة من مهرب. وحياتي اشبار تتضاءل مع اندفاع الوحش تجاهي. تتقلص بين وثباته ومحالبه وانياه، وتتلاشى بداخل اصوات التحريض المنطلقة عن انسان يعجز عن ان يعترف بحقارته «الانسانية» فيواربها بوجود انسان اخر.

وتقلص رعبي الكاسح ايضا، من بعد ان ملأته غريزة جبارة في الذود عن نفسي. ولما انعدم المهرب، فأن مقاومتي اضحت شيئا مفروغا منه. الا ان الوحش ظل اقوى مني. وكان يمزق لحمي قبل ثيابي. ينشب انيابه في هذا وذاك. وانا لا انطق. لا احتج. تغرقني فكرة ان لا بد من ان اختار افضل شرين. غرقني في رجسي، او غرقني في رجس الانسان الاخر. كلا. الساعة، حين افترسني الوحش، ايقنت من ان الكلمة الملعونة، سبب غرقني في احد الرجسين، لم تخلق في رأسي. لا يعرف ان يلفظها لساني. انها ببساطة ليست موجودة عندي، واذن، كان الان هذا الاختيار الفرد وحده. ان اتمرغ في لب الحقيقة الناري، هذا التمرغ الدموي «الانساني».. وتمزقت، لكنني لم اصبح غيري. بل حتى بولي الذي انفصل عني.. لم اشربه!

وتداعيت اخيرا، فسقطت على تربة هذا القبر اروياها بدمائي. والكلب تراجع عني. اذ كان سقوطي يعني في عرف الكلب اني قد استسلمت. كانت مهمة هذا الوحش تقتصر على ان يقضي على كل مقاومة يبديها مارق حتى يستسلم. وما دمت سقطت، فقد كف الكلب عن نهش لحمي. رغم استمرار تحريضات سيده «الانسان» له في ان يمضي بذلك. وكنت اتمعن، وسط ضباب متكاثف، في باب الزنزانة. ورأيت، كما لو كنت انظر من عالم اخر، جمهرة مساجين تسد هذا الباب، وهي تتملى بأسارير منبسطة احداثا ممتعة ومثيرة، فتلذذ بها وتصفق وتهلل جذلة. رأيت، كذلك، الرجل الفارع الطيب، وهو يفج الزحمة ويدخل باب الزنزانة. لم اشهد وجه محمد، لكنني شاهدته وهو يختطف سطل البول ويمضي. وعندئذ، ورغم كل ما بي تنفست الصعداء. كنت قد سجلت لنفسي اول نقطة في لعبة الكرة القذرة هذه. وقبل ان افقد وعيي ثانية، ادركت ان اللعبة ما عتمت في اولها. فوعدت نفسي بالاضراب عن الاكل منذ هذه اللحظة. كان هذا اقصى ما يمكنني صنعه كي اصمد. وابتلعتني الغيوبة وانا في حومة قراري هذا....

الفصل التاسع

ومع اني وهنت كثيرا، فقد كان يبدو وكأنني افلحت. ولم يكن مهما ابدا ان افعل هذا على حساب طاقتي وصحتي اذ كنت افعله مختارا وبمحض ارادتي الذاتية. فضلا عن ان اقلاعي عن الطعام عزز من وضعي اللامتكافيء واوقف في نفس الوقت حملاتهم التنكيلية ضدي، بل وحولها الى حملات اقناعية تحاول ثنيي عن صومي. وكان يوسف يقوم بهذا، ولهجته كالعادة لينة وودودة وتنم، او تتظاهر، بالنصح المخلص. بل حتى لهجة كوبي اضحت تحمل شيئا يبدو كصدقة، لكنه حين اخفق في اقناعي بالعدول عن الصوم، عاد صوته خشنا يتوعد. اما محمد فكان يفقد رأيه. لقد كان في وضع لا يملك سيطرة على ما يجري واذا كان قد سلّم بظروفه الشخصية، فقد عجز عن التسليم بظروفي الخاصة، فكان في وضع العاجز هذا يختار ويسهم ثم يلعن الدنيا او يلجأ لله. وكان يخيل لي، اني في صومي اتحصن ضد المجهول. مكثت في قوقعتي يومين لم يختلفا عن ليلة السرداب بكل دقائقها لكن من دون قريبي وفتاة مشرعة الشدين، واعابشها بيدي في لحظات مرقت مثل قطرات. والقطرات كثيفة لزجة وثقيلة تتابع في بطء مثل قطرات من شهد تفل مصنوع من صبر او علقم. وانا في قرفصة متحجرة لا تتغير. مستتر رأسي داخل فرجة ساقي. غائبة افكاري او كامنة داخل المحارة. لا انتظر شيئا. احيا في لا شيء. مدسوس في لا نوم او لا يقظة. وانا فاسقط في قبضة لسان يغرقني بشرثرة مبهمه تضنني فأفريق وكأنني من صحو يشع استيقظ، حتى اذا ما استيقظت سقطت حواسي في خدري وحمولي ونعاسي... وعدت في لا نوم او لا يقظة. كان الصوم حقيقة وحده. واعتدت عليه بسرعة، فكان رفيقي ويشاطرني لحظاتي الباهظة، من حيث فقدت الماضي والمستقبل بحدودهما المتاخمة لوجودي الانني ذاته. لم يبق الا وقت امضيه ومحمد بين طرفي القضبان. يتلائم هذا الوقت كذلك مع اوضاعي، فيداخله صمت مجبول بكآبة. احترت كيف ابدد هذا الوقت. فبحثت عن اوجاع تنفثها افواه قروح بدني التي احدثها الوحش بي، كي اتسلى بتلك الاوجاع. لكنها لم تسعفني. فقد اتضح لي ان تلك

الافواه قد انسدت والتأمت من غير علاج. وادهشني الامر باديء الامر، ثم تبينت، ان الصوم قد ظهر جسدي ونقاها فساعد على اندمال قروحي باسرع مما يفعله انجع دواء. وجاء اليوم الثالث يحمل لي احدثا لم اتوقعها. وكان الوقت ضحي في الارجح. اذ ان محمدا انهى كنس الممر المحاذي للزنزانه وانجز مسحه. وهو يفعل ذلك بعد التاسعة في العادة. ومنذ اغلق علي باب القضبان كان يترث حين يصل هذا الموضع، مختلسا بضع دقائق يحاول فيها التسرية عني. وكان عندئذ، يبدو وجلا الا انه ملتصق في ايمانته بالله وحين يراني في وضعي هذا، ادرك من لهجته واسلوب حديثه، ان افلاسه مما في الدنيا يضحي كافلاس جنين هبط في التو اليها وهو في عري كامل، ساعتئذ لا يملك محمد الا ظل الله، يغلفه هذا الظل كالطبقة اللزجة البيضاء التي لا يملك سواها ذلك المولود العاري المفلس لحظة يهبط من بين ساقي امه. ويحاول الرجل الطيب الفارع مشاطرتي ويايه هذا الظل. بكل ما اوتي من قوة يحاول هذا. فتتجبر اذاك سذاجته المحضة وتغدو في نظري كالقوة الجبارة، ويرادوني عطف دافق نحوه، فأنا اعلم بأن الظل لا يمكن ان يتجزأ، فضلا عن ان الله يختار موطنه بذاته المتميزة بدبوقتها الملتصقة وبطبيعتها الشمسية في ذات الوقت، وانه كان محتجب عني ويدي قاصرة عن منعه، مذ كف عن ان يستمع لمناجاتي بعد ان قرر ان يكشف لي عن فحوى اللعبة القذرة ويلاحقني بجرائم هذا العالم. ولهذا، لم يفلح محمد في ملء دني الخاوي. ومكث الظل وحده يغطي على افلاسه ويشل يديه عن تقسيمه والجود به. كان كرمه، في نفح جزء من ظل الله لي، يصبح من ثم، نوعا من عجز المخلوق عن التصرف بخالقه الاعلى.. الطائق الجبار. وكان محمد قد فرغ من تنظيف الدهليز ومن محاولته الفاشلة في اسباغ خيمته الواقية علي، حين مثلت في سمعي اصداء نقرات تخترق الجدار القائم بين الزنزانه هذه والاخرى المتاخمة لها من جهتها اليسرى. كانت هذه النقرات تنسل عبر قوقعتي ثم تطرق رأسي المتخفي بداخلها، في قوة. ثم بعناد تتتابع. اذاك ينتشر في نفسي يقين، من ان النقرات المتعاقبة ليست ضربات قلبي الثائر، المندلقة داخل جدران رأسي. كان ما اسمع، اصواتا يحدثها شيء او في الاولى شخص موجود خلف الحائط. واطل رأسي من درعه.. وانتصبت اذانه.

ووجدت ذاتي ازحف نحو باب الزنزانه. وقبعت في جانبها الايسر بجوار الحائط.. ارهفت سمعي.. وتأكدت.

غالبت خدري وخولي بمساعدة النقرات. كنت اصيخ السمع. اتلمس، مع سمعي، اليقظة بفضول كان يخيل لي اني اضعته. لكنني حين الان عثرت عليه، كان يواجهنني بضاروته الغابرة المنسية. فأدرك ان حياقي لم تأسن في جوفي.. لم تتحجر. ثم اختلطت النقرات مع هس بشري. صوت. والصوت يدعوني باسمي من خلف حائط عازل كالكمامة. وغرقت في النقرات وذهولي. كان الخاطر اغرب من ان يعقل. بيد اني دُفعت الى قلب اليقظة التامة. وكانت بحرًا منجمدا لا يلبث ويجمدني معه. فتسمرت لحظة بمكاني،

ثم.. وبهمة، شرعت في تحطيم جهودي.

فعلى حين فجأة، انفتحت تحتي فوهة بركان متفجر. قذفني مع حممها نحو الاعلى.. انه هو!.. شب في نفسي احساس ناري.. كيف تجرأ؟!.. ثم خبت جذوة احساس الناري هذا من حيث تكشف لي طرف من مجهول كنت حتى ما قبل ثلاثة ايام اتساءل عنه. وبلغني صوته بوضوح اكثر وبألحاح. وكشفت فيه عن رهبة من يتجاوز شبه المحظور كرهبة محمد ساعة يختلس من عمله اللحظات فيحاول التسرية عني. حاولت القاء الحلفاء في آخر شرارات احساس الناري الخابي، بيد ان الحلفاء خنقت الشرارة فلم اغضب. هذا النذل التافه يضيف لذاته صفة محزنة اخرى.. كيف يجرؤ؟!..

كنت الان في قلب اليقظة اسبح في ماء فاتر. افتقد الغضب والحقد. وكان لا بد وان اصارح ذاتي بما ساورها من راحة. الا ان المنطق كان بالتاكيد يستنكر هذا الوضع الشاذ، ويحملني على استنكار شعوري. فهل كان بالامكان ان تعمل تلك الاصبع الالهية في ذاكرتي، حتى بعد اكتشاف خطأها وتخلي الله عني؟!.. كلا.. بل ان دعوة الاخر تترى وتغدو شبه دعوة فاتنة مومس لرجل نهشته انياب الغلظة حتى فقد وعيه وصوابه.. الدنس الفاجر!.. قد فجر زق قاذوراته ورفع المعول في وجه الشمس. فماذا يريد بعد هذا؟!.. هل جاء ليحقق ما عجز الجلادون عنه؟!.. ليشككني في ذاتي؟!.. ليعيد على اسماعي اقوال طيفه المحمولة الي عبر الكوة العتمة، حين منها، في اعماق الليل، ينسل شياطيني السمار؟!.. كلا.. الهمس يتوالى.. تتعري الفاجرة الحسناء امام الرجل الشبق المحروم.. صوته وانا.. شيطان وضحية.. اغراء وسقوط.. كلا.. هل نفذ الغضب من هذا الكون؟!.. في جسدي فتشت عنه.. رأيت خدوشي.. كدماتي.. مزقي.. شاهدت نحولي وغروبي داخل قوقعتي.. لكني كنت خارج كل هذا.. وكل هذا انفصل عني.. كنت مسلوخا عن كل معاناتي وعذاباتي.. ضاعت برمتها في طغيان الضعف والاغراء. لأول مرة كنت مثله.. ضعفه يجذبني.. وشعرت بأني محتاجه.. قاومت.. اذ كيف يحتاج المرء الى قاتله او يتشبث به؟!.. وهو يدعوني.. بتوسل وبروعة.. صوته يتلبس نبرة صوت محمد الانسان.. يستدريجني.. اني اتدهور.. ثم، محروما من غضبي الضائع ارد عليه. وتأتي همسته الاخرى، أكثر جرأة

- «اقترب من باب الزنزانة والصق اذنك بالخائط»

فعلت هذا. وازداد صوته وضوحا.. وكان يأتي من خلفي.. تماما خلف اذني

- «اني بجوارك. اليوم جاءوا بي.. هل تسمعي؟!»

واذ لم يأتيه ردي، استطرد

- «هل تسمعي؟!.. اني آسف من اجلك.. لم اتصور..»

على غير توقع، جاء الغضب فجأة.. عثرت عليه.. كان هناك موجودا في كلماته.. عندئذ قاطعته

- «انت احقر مخلوق شاهدته..»

وسكت. وكنت ابتلع ريقى. اسمع في الوقت ذاته لهاثا من خلف جدار عازل.. ثم تنصب في اذني كلمات

- «قل ما يحلو لك.. لكني.. لكني.. ادركت خطأي.. سأصحح ما يمكن تصحيحه»

وصرخت، في غمرة نسياني نفسي

- «أذن، ما كذب المحقق.. انت فعلت ذلك.. انت فعلته يا وغد»

وسمعت الجدران تفح

- «سأصحح كل شيء.. اقسم لك»

وتفاقم الغضب المخلوق الان طريا جدا، ومضى يهتف من تجويف فمي الجاف الملعوب

- «انت مجرد ثور مدار اعمى»

- «صدقني.. احاطوا بي.. حوصرت.. والشرطة وعدتني بالافراج عني لو القيت عليك التبعة.. وانا قد ضقت ذرعا بالسجن»

من اعماق الحزن الطاعي انفلتت ضحكة مرة مشبعة بالسم

- «الشرطة او اهلك.. ما الفرق.. انك انت الثور الاعمى»

اجاب الحائط

- «الاثنان اوغاد.. وانا ثور اعمى كقولك»

يومئذ كان الثور عجلا. وهي غانية ساحرة وصغيرة.. سمراء وزرقاء العينين. ربطته بمدار رحا. وهبته جسدا لكنها استلبت مع جسده الروح. ثم في يوم صحو نبذته. ظل يدور معصوب العين. في حانات الخمرة.. حول موائد الميسر. اني اقتلعتة من حقل الدمن.. وكان مجرد عجل يومئذ.

وهناك، غولة تتلون. تدعى شقيقته.. وتبدو، في صورة انسان. حين انظر في الوجه، ينقلب نغما عذبا. ابدا.. كان الوجه نهرا يتدفق عسلا وحليبا.. عذوبة عاطفة سيالة تنصب بحناياي. طفلا كنت. كانت الغولة شابة. نفحت بي سحرا ملعونا اخذا. تسرقني روحي. حين الطلعة اختلجت صامتة ساعة عيناها تسمرتا بكياي. ثم في الظلمة تحاول، كانت، سرقة جسدي مع روحي. والعجل معصوب العينين. والغولة تدفع يدها صعدا بين فرجة ساقي. في حركة تبدو لا شك بريئة.. بالصدفة.. تجوس. ثم بالصدفة تتوقف عند قطعة لحم لي.. القطعة تلقائيا تتصلب.. تتضخم.. حين بها ترتطم اليد صدفة. يتلبسني خوف لا يشبه خوف الناس.. اغرق في بحر من سهم يقظ مرهف.. بذهول مضطرب، افحم.. ثم تتشابك الاشياء. والعجل معصوب العينين، حين الغولة تستلقي قدامي عارية تحت ضوء مصباح اصفر. في خيمة لا يشركنا فيها الا غطيط النوم العاتي. عين الله كانت يومئذ تثقب قاووق الخيمة. نزفر مع انفاس الغولة المتظاهرة بالنوم. اسقط اذاك بين فكي الكماشة.. اغمض جفني فأرى الجسد البض ما زال يتمدد داخلها.. افتحها، فاراه امامي لا يبرح، ويقطع انفاسي. وطويلا اتردد حتى في وجل اللص اقوم.. مثله امشي على اطراف اصابع قدمي.. انفاسها تتسارع اذاك.. اسمعها تعلو.. اقترب منها.. الانفاس

تتصاعد.. تسرع.. انفاسي ايضا. اكتمها كجميع حواسي. اني لم اذهب كي اعث باللحم البض. لن اكل اللحم البض.. اني اعشقه عشقا لا معقولا.. لكني لا اقوى ايدا على قضمه.. والعجل معصوب العينين.. وانا اغطي لحم الغولة الفاتن.. في جوف الليل استره بلحاف. لا يشهدني الا غطيظ النوم العاتي، وعين الله اليقظي المفتوحة.. واعدود لفراشي. ادفن فيه وجودي المشبوب.. اسلم ذاتي للغيبوبة.. ثم احلم بالغولة. وجاء يوم. اللعبة انكشفت فيه. واذا للغولة انياب ومخالب.. واذا ثغرها ينفت سما.. يبصق ماء النار.. ووجهي يتلقى البصقة السامة الملعونة. كانت البصقة شيطانية. مسخت الشاب اليافع في لحظة شيخا مهودما في السبعين. والشيخ متوكيء على عكازه والشيب يغزو شعره من رأسه حتى قدميه.

وكان ثمة ثور اعمى.. في (خلبا) وخزته كلمة في طيات رسالة سطرها خفاش. كيف جاء بالموسى ليلة حاول ان يقطع احليلي؟!.. لا ادري حتى الان.. الا اني كشفت الموسى حين انامله كانت تتسلل معها نحو ذلك الموضع، كأنا مل الغولة. وتداركت.. وانا لا افهم شيئا - «ماذا تفعل يا مجنون؟!»

كان كالافعى.. يرشح كله زعافا. صوته مرتجف في بلعومه.. شيئا ايدا لم اعرفه من قبل - «اخصيك!.. لن تنجو مني ايدا!»

لم افهم شيئا من قوله قط. كنا حتى قبل ساعة اخوان صفاء.. قبل ساعة قرأ خطاب اخيه الخفاش.. لم يطلعني عليه.. ولحظت عليه كدرا لا معهودا. استفسرت. بدا برما بسؤالي.. نوبة كآبة اجتاحت.. قال انه حن لذويه.. صمتنا.. بعد ساعة هجعنا لننام..

- «اهذا وقت مزاح يا مجنون؟!!»

لكنه كان يحاول انقاذ موسى من بين يدي بعصبية. كلا.. ذاك ليس مزاحا ايدا. من حسن الطالع، ادركت حقيقة امره قبل ان يرتكب فعلته المجنونة الاخرى. كانت في القبو اجساد منحشرة هاجعة في احضان الموت الاصغر. القيت الموسى بعيدا عنا خلف الاجساد. غمغمت

- «انت جنت. لا شك انهارت اعصابك»

على ان قريبي لم يلبث ان ضحك في وجهي

- «هل صدقت؟!.. كنت فقط امزح.. كنت امتحن اعصابك انت»

عشا. اذ لا شيء يحملني على تصديقه. نام، فقاومت نومي كي لا يأخذني في غرة. كانت عينا مفتوحتين وتقتنصان الخطر المجدق بي في الظلمة. والزمن صنما عملاقا، اسمع في الصمت حفيفه، اسمع ايضا حشجة الصمت. والموتى رقدوا. وامام عيوني المعشية تتكاثر اذرع وسيقان. كان هناك اخطبوط يزحف في قلب العتمة ووجهته عنقي.. يقصد موتي. تلك، بشكوكي كانت احدى رؤى الليل الهاذية الحمقاء. احيانا تتكاثف في

الديجور البقع السوداء.. تتحرك. لا أؤمن بالاوهام. لكنني لم البث وزعقت في صوت هلع مبحوح. كانت القبضة تطبق حول عنقي. الاوهام تتجسد. وانا احدث جلبة. والظلمة تمتليء اشباحا بشرية. ثم شرب النور، البحر الاسود. كان هناك، مئة انسان حي يشهد. وتراجعت القبضة.. خاوية مبسوسة مرتجفة.. ونجوت.
- «كذلك انت.. لا يمكن ان تتغير.. ابدا لا تتغير»

قال الحائط

- «العني ما شئت.. لكن ثق بي ارجوك.. اني اعدك.. سأصحيح اخطائي»
لا أدري. لكنني بقناعة طارئة ما زالت ترفسها اقدام شك هوجاء، سألته
- «ماذا ستفعل؟!»

وتناهى قرع احذية تدك ارض الدهليز وتتقدم.. فتحولت الى اقصى الجانب الاخر وحشرت
كياني في زاويتي.. وتقوقت.
- «ارفع رأسك!»

كان هذا صوت الشرطي الاشقر. وكنت اؤمن بأنه في الواقع يتمنى ان ابقى مدفونا
مغموس الرأس في الدقعاء، فتحديثه ورفعت رأسي. وكان يلوح كاله حقا. كالبعل مقدود
من حجر صلد. وقال

- «اتريد ان يعتذر كليي منك لكي تتكرم بانهاء اضرابك؟!»
لعنته في سري. كالمتألهين جميعا كان. المرثيين والمحتجين عن الانظار. اله من
آلهة الرهبة. هيجيته مبثوثة في اعوانه.. وباللات دمار يصنعها بيديه.. وكان الكلب،
بطبيعته الممتثلة، عبدا للسيد المتأله.. وبريثا من حيث لم يفعل الا ما شاء مولاه.
وكنت بغنى عن اثاره جنونه البشري العاصف، فتحاشيت الرد عليه، فاشار نحو الزنانة
الاخرى وباستهزاء قال

- «وقد جلبوا لك قريبك ايضا، وجعلوه بجوارك.. فماذا تريد اكثر من هذا؟!»
ثقتي بالاشياء امست هشة. ثقتي بقريبي مهما اقسام، اكثر هشاشة. كنت يوما قد ادركت
انها كوعاء فخاري. ولقد هوى هذا الوعاء منذ زمن غابر حتى ضاعت اشلاؤه.. اكثرها
ضاع.. وعدت قبل قليل ابحث عنها.. احاول ان اجمعها بيدي.. ثم جاء هذا الشرطي
فامتد لسانه نحو ما افلحت من جمعه من تلك الاشلاء.. وضرب على يدي. ونظرت، فاذا
كل ما استجمعت تناثر اخرى في ارجاء الارض. وراودني الشك في لعبة قدرة طرية.. الا
ان صوت قريبي تناهى الى الخارج بادي الضعف لكنه يتساند بالاصرار
- «اطلب نقلي للتحقيق فورا»

ورأيت الشرطي الاشقر يلتفت نحو قريبي ثم ينسحب يسارا خطوة. وتساءل
- «ولماذا؟!»

وقال قريبي

- «عندي اقوال هامة»

- «لكنك اكملت تحقيقك وستخرج بعد انتهاء الاجراءات المعتادة»

فصرخ صوت قريبي المتهافت

- «لدى تصريح هام.. واصر على الافضاء به في التحقيق»

وتعثر الصوت المتأله الاشقر وهو يتناهى مقطوعا ومترددا ومفاجاً ايضاً

- «حسناً. سنبت في طلبك. لكني اظن ان تحقيقك قد اغلق. مع ذلك ما دمت تريد التصريح ببيان.. فسنبحث في الامر. حسناً؟»

هل يمكن ان يخطيء هذا الشرطي الاشقر.. ان يتردد.. ان يتلعثم صوته؟!.. ولماذا؟!.. ومضى يدق حذاؤه الارض ويترك هذه المعضلة لي. وكنت اتساءل «لماذا يضحي قريبي بالنسبة لهم هذا الانسان الهام الى درجة تفقدتهم احياناً حتى الثقة الالهية الذاتية؟!.. حين يضحي الخطأ شيئاً معترفاً به.. وتلعثم اللسان النحاسية ذات الايقاع الثابت بالنسبة لي مثلاً؟!».. ومرة اخرى همست من خلف الحائط

- «ماذا ستصنع؟!»

وشق صوته هذا الحائط الفاصل بيني وبينه

- «اني مصر على تغيير اقوالي»

- «أنت متأكد من اصرارك هذا؟»

- «لن يرتاح ضميري ما لم افعل ذلك»

قلت، وقد كف الشك عن رفس القناعة الطارئة باقدامه

- «ستواجه ضغوطا وعراقيل كثيرة»

فقال باصرار

- «سأرغمهم على سماعي مهما كلف الامر»

- «ماذا ستفعل»

- «تريث وستر»

وتريث.. لكنه لم يتريث مثلي. وانطلق صوته في التو يدعوهم في ضجة. وبسرعة جاؤا فامتلاً الدهليز بالبرز الزرقاء. وكان هناك كوبي كذلك. وانا جاثم في زاويتي اسمع لغطا اشبه بكلام يتساقط في سوق ملأى بالرواد والمارة. واحاول دفع فكرة حشرت رأسي عنوة، ومضت تقنعي بأن الشبه بين قريبي وكوبي قد بدأ يلفظ انفاسه في الخارج. وكان ثمة مباراة تجري بين رجال الشرطة وتستهدف اقناع قريبي بالكف عن طلبه، في حين كان ما انفك يصرخ بعبارة واحدة لا تتغير وكأنه ببغاء لا يتقن من كلمات الانسان سواها

- «خذوني للتحقيق.. خذوني للتحقيق»

ورأيت المعول يتراجع عن قرص الشمس. وابتسم الله في تلك اللحظة ووهبني ظله ايضاً. وكان اسخى من هذا اذ عاد وملأني مع ظله بالحب. وحتى قريبي عدت واحبته بحذر، الا اني كنت احب محمداً دون تحفظ. وتذكرت محسن. كنت احبه وارثي له في آن.

وعدت افعل هذا. وحضر اشخاص من «الطرف الاخر».. رجال درك ومساجين. وغرقوا في بركة حبي الطافحة التي فتحتها في جوفي الله. وكان حبي لهم خاصا مثل حبي لأبي. بل حتى الغولة غفرت لها رغم بصفة ماء النار. الا ان خيطا من اشفاق داهم احساساتي فجأة. فلماذا انقطعت عني الارملة المفجوعة؟!.. ولماذا امكث منبؤذا في هذا الجحر العتم الضيق لا يذكرني فيه احد من اهلي؟!.. ولماذا لم اتلق حتى ردا على الرسالة التي ذكرت لهم فيها مكاني وطلبت ثيابا لمحمد، وقد مر على ارسالها وقت يكفي ان تصل فيه عشرة ردود؟!.. وخامرني احساس جافل.. فهل حدث ثم مكروه؟!.. ثم انقشعت ضبابات افكاري السوداء، فرأيت الشمس تمد اذرعها من خلف سحب متكاثفة. كانت تبعث اشعاعاتها محترقة احشاء الغيم الداكن مثل مدايا، ثم تمرق عبر الكوة. وابتسمت فوق الارض الرطبة التربة، بقعة نور ساطعة الطلعة.

وكانت الجلبة تهفت في الخارج. ووسائل الاقناع قد فشلت فيما يبدو. وقريبي، ولأول مرة، يفلح بتمسكه بارادته حتى اخر لحظة. ومضى الحفراء ورجال الشرطة وهو يرشقهم بتوعد ضاح ساخط

- «اما ان اؤخذ للتحقيق في الحال، او اعلن عن اضرابي عن الطعام منذ الان» وتوقعت احداثا شيقة ومثيرة. وقلت لمحمد اذ مر في الدهليز صدفة - «استأنف الحكم»

فرفع وجهه المنمش الحائر نحوي وتساءل
- «ولماذا؟!.. افلم نتفق على ان الاستئناف مجرد خدعة؟!»
فقلت بقناعة وحرارة

- «شيء ما اقنعني بأن ساعاتك لم تعمل على الهيروثين. كانت ساعات عادية ولذا فالامل في تخفيف الحكم عليك، كبير»

رفع كتفيه وهو يهم بمغادرتي، تتمم
- «احترت، والله، معك. مع ذلك سأفكر بالامر شريطة الا تغير رأيك مرة اخرى» وفي الظهر، اعاد محمد طبق الطعام من زنزانة قريبي ممتلئا. ورمقني بنظرة من يستفسر. وكان يمقت قريبي مذ حدثته عنه. فرفعت لمحمد كتفي ردا على استفساره. ولم اكذب. الا اني تأكدت من ان قريبي ما زال يسير في هذه الدرب التي اختارها حين اكتشف ضميره بي. وهو ينفذ ايضا تهديده.
وعاد محمد ثانية، ليسائل باستعطاف

- «وماذا عنك؟!.. افلا ترحم ذاتك من هذا الصوم المتواصل؟!»
ونفخت. فاحت رائحة عفنة في انفي. ادركت ان عفني لم يستوف بعد. واني كنت في الواقع انتصب فوق ذروة جبل شامخ كي اتهور. وكيف يمكن لهذا ان يحدث في قلب الصحو الاكبر؟! وقد سئم الجلادون من جدوى اقناعي، فتركوني اتعفن في جحري.. بيد ان اضراب قريبي شيء اخر، لا ريب.

وشعرت بتخاذل الرجل الطيب وهو يحمل طعامي ايضا كي يلقيه مع الفضلات. او لتأكله عني كلاب الشرطي الاشقر كي تزداد شراستها، ولابقى انا في صعودي الجبل الوهمي واطلالي منه على خرافات.. وزفرت اخرى، فهويت لحضيضي من شاهق. كنت في الواقع معدة خاوية لا تحمل الا التتن والوهن والضعف.. واراداتي الصلبة تتبعثر في آفاق اهداف حشروني بداخلها. كنت بمشيئتهم اتحرك ضد مشيئتهم، ثم فجأة، تتضح الكذبة الاخرى، ساعة الاشياء تتخذ مسراها وتتلاءم، فينقشع الضد ولا تبقى الا مشيئة مستعبدة ملعونة..

وافحمي الاضراب الاخر.. اضراب قريبي. كنت مقتنعا بأنه من صنف يختلف رغم اني لم اعرف كنهه. في نظرهم، كان قريبي بطلا قوميا وكنت انا لا اكثر من خائن مجرم. فالشيء الواحد حين يشاؤون يغدو هذين الطرفين المتضادين. هكذا اذن، كف هو، وكففت عن ان نكون رفاق الرحلة القذرة المشنومة.. وشاء جلادي ان اصبح جلاد رفيقي فاصبحت.. وهو، ما دام الامر كذلك، كان حتى صباح هذا اليوم ضحيتي التعسة.. وتمرد الضحية ليس كتمرد جلاد.. وصدقت في حدسي. وامتلأ الدهليز بهم مرة اخرى. كانوا مذعورين. كانوا امام قريبي من دون اقنعتهم الخاصة المزهوة.. كانوا انفسهم فئران هلعة يسحقها الرعب. ليس باضرا به يتهددهم بل بضياعي منهم. وفي هذا الحرص القاتل باستبقائي لديهم، كنت ابدو مهما في نظرهم، حتى ليخيل، اني لو افلت من قبضتهم فسيضطرون الى اشهار الافلاس.

كان هذا السبب الالوجه في تفسير تضرعاتهم الموجهة له. كانوا وكأنما نكصوا على الاعقاب، ينسون الهياتهم فيجثون امام قريبي كرب يبتهلون اليه. تفعمهم اطماع في الخطيان برحمته ورضاه. وقالوا له، ان كل طلباته سوف تلبي بمجرد ان يأكل. فقال بدوره، انه لن يأكل حتى تلبي تلك الطلبات ويؤخذ للتحقيق. وبفشل هذه اللعبة الاخرى كنت اتحول شيطانا. ورجمتي اعينهم بالسخط، وواجههم بالعنات، ساعة عادوا ثانية مندحرين.

وسألته من خلف الحائط

- «ماذا لو رفضوا اخذك للادلاء بشهادتك الجديدة؟»

فقال

- «اني مصر. فاذا رفضت الشرطة ان تسمع، فسأدلي بها في المحكمة على رؤوس الاشهاد»

واعتورني اكثر من شك فرددت لنفسي

- «يبدو ان الوقت قد فات في الارجح»

وفي صباح اليوم التالي، في وقت باكر، جاءوا ثانية. وفتحوا باب الزنانة.. زنزانتني انا. واخذوني، عوضا عنه، الى التحقيق. ورغم الدهشة صممت الا اتهور. وكان الجو في الخارج عتسا وعيون السماء تبكي بصمت. وهم يتدثرون بمعاطفهم الواقية وانا بشيبي

التي مزقها الكلب. كنت مكشوفاً للمطر وللصقيع البارد ويغمري مشهد السحب الدكناء بكآبة تفيض في وجداني. وثمة خيوط مائية تسيل من رأسي نحو عيوني كضباب، ثم ينحدر السيل الى فمي ويجرف معه قذارة متراكمة في وجهي.. ودخلت غرفة التحقيق فانقلب البرد قيظاً، وكان لهذا القيظ اكثر من مصدر. كانت بجوار جبل اللحم الهائل مدفأة تتوهج. وكان وجهه جذوة ملتهبة اخرى.. وكيانه كله، غابة تلتهمها النيران.. كان حريقاً من غيظ. وبهذا الغيظ الشائظ لسعني صوته

- «انظر حالك!.. انت الان تبدو كقطعة روث عفنة»

فتساءلت، وحاولت ان يبدو سؤالي لا مكترباً

- «ألم تشأ ذلك انت؟!»

- «لماذا لا تغتسل وتحلق ذقنك؟!»

- «لن ترغمي قوة في العالم على الاستحمام ببولي!»

كنت جازماً وشديد الوضوح. واحنى جبل اللحم وجهه ثم عاد ورفعته، كان قد وارى بداخله كل حنقه المحروق

- «الديك ما ترغب في قوله؟!»

- «قلت كل ما عندي»

- «ومع ذلك، لعلك تذكرت شيئاً تريد اضافته لاقوالك»

- «لم استدع نفسي للتحقيق. انتم فعلتم ذلك»

فزفر وهو يتمتم

- «اسمع. اياك ان تتوهم ان اضربك عن الطعام سيفزعنا..»

- «هل طلبتني لتقول هذا لي؟!»

- «ولكي احذرك ايضاً»

- «مم؟!»

- «انت شيطان فلا تتغاب»

- «اني لا ادري عم تتحدث»

- «لن تنجح مهما حاولت»

- «في ماذا؟!»

- «انظر ماذا فعلت بقريبك بمجرد ان اصبح بجوارك»

- «لم التق به.. وانتم على علم بذلك»

- «كيف، اذن، تبرر اصراره على تغيير اقواله؟!»

قلت ببساطة

- «ان كان حقاً ينوي ذلك، فلعل ضميره قد استيقظ»

حملق بي كالمجنون.. كان مجنوناً بالفعل

- «سيسليقظ ضميرك انت.. اني اعدك!.. اما ان يستيقظ ضميرك، او تتفسخ جثتك العفنة

في الزنزانة

وتبلع ريقه ثم استطرد

- «وشيء آخر. منذ اللحظة، محظور عليك مخاطبة أي إنسان مهما كان»

وأعدت. وإبهااته الملعونة بقعة ملتصقة بضميري. وكان المطر قد ضاعف من سرعة هطوله، والجو ازداد كلاحه. ماذا تعني هذه الإيذاء الأخرى؟!.. واختلطت في جسدي رعشة خوف مع قشعريرة برد ناغز. ولم املك إلا الاستسلام لهما، إذ كان الاستسلام لغيرهما، لا يعني إلا استسلاما للزيف. لم اعثر على أي شيء آخر. كنت تعباً. عدت وشككت بالاشياء، وبجدوى صومي. ولم يكن الأمر كذلك فيما يتعلق بجدوى صوم قريبي بيد أن الشك اكتسح ثقتي في استمرار عزمه وفي امتلاكه لارادته الذاتية حتى آخر الشوط.

وما إن اغلقوا خلفي باب الزنزانة، حتى كانوا يسدلون على باب القضبان ستارة كثيفة كانت بطانية من بطانيات الحبس. ولم ينسوا أيضاً تذكيري بالخطر المفروض علي بمخاطبة أي إنسان، وتحذيري من نقضه. وكانوا يريدون كتم أنفاسي، إذ تحولت الزنزانة إلى قبر يسكنه إنسان ما زال يشعر ويحس لكنه محكوم عليه بالصمت.. بالموت داخل هذا الصمت. ولكي يجتثوا من رأسي كل فكرة قد تخطر فيه عن خرق هذا الحظر، فقد تعمدوا اشعاري بوجودهم الدائم ومراقبتهم الصارمة لي. لقد كان ثمة شرطي يوجد خلف الزنزانة. وكان يعتمد، بين الفينة والفينة، أن يكشف طرفاً من البطانية المسدلة علي ويحقق بي بتشيف إبليسي، ثم يرفع يده عن طرف البطانية، فيعود ينهدل من تلقائه، وتزول الثغرة، وأبقى وحدي مرتعياً في مزبلة العالم.

أبداً. ليست هذه مزبلة العالم. لقد كان المسلخ الإنساني بروائح اللحمية الزنخة يتواجد في هذه الرقعة من الأشبار. المسلخ المنتشر في آفاق الدنيا. يبني له فيها خلايا متعددة الاصناف. وخراف البشرية تنحر، وتعلق من قوائمها بالمقلوب. وبقرت بنفسي بطني بمدمية افكاري، فعثرت ثم على احشاء يابسة كعظام، ويحاول رأسي قضم الاحشاء الجافة فتتكسر اسنانه. وكانت تلك مشيئة القضاين. وكان في الطرف الآخر إنسان يحيا بأمعاء كلب، وقصابه ما فتئ يتبجح في قبو (حلبا) الأعمى

- «جئت إلى المقهى وسلمت عليه. أشاح بوجهه عني كالكلب. كان حين تغاضي عني يلعني بسكون. صمته كان يتهمني في أمي. أصبحت في نظره ابن زناء في تلك اللحظة. كان لا بد من اطفاء السبة. ومسدسي نفر من محمله تحت خصري. لم اترث. بل اشتهرته ثم جعلته يتقيأ طلقاته في جوف الوغد. مزقت كل مصارينه، وهو يعيش الآن بفضل الكلب الذي انتزعوا من جوفه امعائه ثم شتلوها في جوف الكلب البشري. إنسان يقضي حياته بمصارين كلب. وأنا محبوس في قبو حلبا، لكني إنسان كامل..»

واعترضتني امعائي. كانت قد جفت على أيديهم. وأنا كبش منحور في مسلخ الإنسانية البارة. في بيت خلاء المسلخ هذا. والقصاب يرمقني من خلف القضبان بتلذذ أكلة اللحم

البشري. وزفرت. خنفتني رائحة نتني. دوار كالدوامة هاجم رأسي، لكنني رغم هذا الموت الشاذ، كنت محكوما بحياة حتى لو كان في جوفي امعاء الكلب. وقررت، وبدون تمهيد سابق، بل في فجأة مطلقة محضة، ان انهي صومي. وكنت لا بد بقراري هذا اتحدى شيئا ما. مرة اخرى. شيئا ما اجهل كنهه واتحداه. وعلمت شيئا. كنت اغرر بمشيتهم وبافعالى المسخرة على ايديهم. فقد كانت اصواتهم تتناهى لسمعي وهي تستعطف قريبي وبحرارة ترجوه ان يأكل.. وكان يتمسك في رفضه. وعندئذ تحدت هذا الشيء المجهول. وطلبت طعاما. ووضعت مع طلبي هذا شرطا.. ان يسمح لي بقضاء حاجاتي في المرحاض، كباقي الموقوفين والمسجونين.

كان الشرط هذا، من اقصى رغباتي الآتية. كنت استفظع ان تسمي الزنزانة ثانية مستودع قاذوراتى البادية للعين. هذا شيء، يفتت ايماني بقيمة ذاتي كمخلوق يكمن فيه ظل الخالق، ويلقي بقذارة الانسان الجسدية امام عيني فضلا عن رجس جبلته البشرية. وبالفعل فقد كنت بدأت اغبط النملة والنحلة بل احسدهما، وانا ارفع بهما لمصاف لم يرقه لحم بشري. وكان هذا مثار عتاب وجهته للباري، من حيث وضع في اصغر خلقه فضلا لم يحظ به من يضع ذاته في ارقى مرتبة بين مخلوقات الكون باسره. ومع حسدي النملة والنحلة تفاقم شكى في فضل الانسان، وسخرت من هذه الفرية البشرية الذاتية.. ومن خدعة الانسان لنفسه، وتشدقه بالفضل على العالم، وبأنه ليس الا صورة مصغرة لكنها طبق الاصل من الله!

وقالوا لي «تريث» مصحوبة بجفاء، اذ كانوا منهمكين على ثني الاخر، نافدي الصبر ازاء تعنته الاسطوري اللامتوقع. وكانت اهميته تنبع من اهميتي في الواقع، ولذا فقد انصبت فيه الى حين يعدل عن اصراره. اية سخرية؟!.. هذا الجزء القذر الاخر في لعبة دنسة وحقيرة!.. فطنت اليه. تنعري اذاك مغالطة اللفظة الفخمة «الهامة». «اهميتي».. «اهميته».. اية سخافة هذه؟!.. واهميتي او اهميته لا تعني الا «اهميتهم» هم؟!.. اهمية العنصر الالهى الخادع والضال؟!.. بل اهمية «الصيد» لدى «الصيد».. اهمية مسبغة على الفخ الذي لا صيد يتم بدونه؟!.. ويقولون «تريث»!.. وانا انزلق من بين اناملهم مع شبكة فقدوها في اغوار البحر.. وكانوا لا ينفكون يبحثون عن الشبكة المفقودة كي يقتنصوها فيقتنصوا معها السمكة. فأذاك، اذاك فقط، سوف يوجد الصيد، فيوجد من ثم «الصيد».

وما دام الامر كذلك، فيما خيل لي، فقد كان يمكنني ان اترث الى ابد الدهر. لكنني تريثت حتى الظهر وحسب. وهنا خامرني شك واستغراب. وكان «الواقع» يدأب على محو كل تبريراتى لطواهر ما يتحلقني من اشياء. اذ رضخوا ايضا للشرط، وجل بمكان الشك سؤال ظل يطرح نفسه.. «فهل يعني هذا ان درب تنازلهم قد بدأت؟!.. وان الإعلان عن افلاسهم الكامل مني قد اضحى مسألة وقت لا أكثر؟!»

وأكلت الخدعة. فقد تناولني طعامي عوضا عن ان اتناوله بنفسى. ولم البث ان كنت اهضم في احشائه، فيتضاعف عجزى وفتورى وبتزايد اعيائى وصداعى، وتتكاثف

الظلمة في عيني بالرغم من ان السحب الداكنة كانت تتمزق في الاجواء. فمن الكوة تراءت بقعة سماوية زرقاء، الا ان هذه البقعة لم تلبث ان لاشاها الليل في ظهر يوم لا تاريخ له.

وكان هناك تراب ورطوبة مع عفن من حولي، ومجموعة اشبار من فضاء مصيدة موصدة من كل جوانبها، وعلي ثياب من طبقات ملتصقة في جسدي بغراء قذارة، مشققة وممزقة كهلاهل. وثمة بقع حمراء جافة واخرى بيضاء ورمادية عليها. وخليط روائح ذفرة تنبعث من قلب الغثيان. روائح دم وبول وحوامض بدنية وغبار. وقد فاحت مجتمعة بفعل هواء الزنزانة المشبع برذاذ المطر الراحل، لكنه الباقي معي في مأمن من اذرع الهواء الطلق والسنة الشمس الجادة في لعقه بالخارج. ورسوت في قاع هذا الوعي الفاجر اشداقه. وكنت بحاجة لأن اتلاشى. وكان وجودي يحارب ذاته. لا جدوى! فالحرب فاشلة كانت. ووجودي هذا يترسخ ويتوطد في بؤرة القاذورات. وهو موجود حتى خارج لحدي، وتماما خلف كفنه المسدل فوق باب القضبان. هناك يكتسب اهميته القصوى.. يضحي غاية.. ويدور في أذهان خاوية الا من اوهام قوة مشروطة، ليحققها. لا جدوى. كنت موجودا، حتى لو اقضي نحبي. فلو مت فسيبقى وجودي لديهم.. وسيمضون في التنكيل به.. ثم يغتالونه بعد الموت ويعيدون احياه، كي يبقوا انفسهم موجودين!

وتريث ايضا. وكنت لعبة كل الاشياء. لا شيء لم يحظ بحصته مني. وانا معتوه وسط هذه الاشياء. وقريبى لم يفقد حتى الان رباطة جأشه. فهو يقفز الى اول صف في الاشياء المحومة من حولي.. وأنازعهم اهميته القصوى.. في صمت تام. وبحذر هائب. وانا متريث في وسط الاشياء. وما زال امل ثم، في ان تغدو اهميته المتنازع عليها قدرا لي. ها قد حرن الثور، وانتزع البرقع عن عينيه.. افحقا؟!.. وكنت اهضم في بطن طعمامي، وعصارات سامة تفرز من حولي وتفسخني. ثم هبطت الى امعائه، وكنت احس بوضوح بشعيرات الامعاء هذه، وهي تمتص خلاصة ذاتي دون هودة. وكان هذا يتم وسط اصوات لتحطم اشياء. وكنت اجتزت مرحلة التحطم، والاصوات تنهار من خارج الزنزانة برنين لم اخطيء فيه. حقا.. انها انهيارات جسدي المطحون. كانت تتهافت بعيدا عن الزنزانة في صوت شقيقته الكبرى. الاوغاد! لا ريب استدعاها الاوغاد على جناح السرعة. وتداعيت. هي آخر فرصة لهم. وتداعيت. هي اوعده فرصة لهم.. وانهرت.. هي اخطر فرصة لي...

وكان هذا الصوت الحاقد من دون تبرير، يجلجل وهو يسحقني
- «حذاري من ان تتخاذل.. دمره!.. لا بد من تدميره حتى لو اعطيت من عمرك عشر سنوات للسجن»

لماذا؟!.. لماذا انت متفانية في تحطيمي؟!.. لماذا، يا ابنة عمي، تنهالين على تدميري وبهذا الثمن الفادح من عمر اخيك؟!.. عشر سنوات من عمره.. مقابل عمري كله؟!.. اصوات تتكسر. الموت! انه يجهر بشكره في صوت تهشم الاشياء.. في صوت «ابنة عمي» القادم من منبع طاهر مصدره جد واحد ورج ناصع الطوية. وبحث عن مبدأ

السوء، فعدت بالاخفاق. كنت تماما فوق الحاجز الدموي الملعون. ابول عليه ولا افهم كنهه. الحاجز ذاته، الدموي الملعون.. في لعنته الاخرى.. يشطرنى الان شطرين. و«هي» مع «الطرف الاخر» و«هي» مع «الطرف هذا».. وهي مع كل الاطراف تحاربني.. والكل يحارب الكل.. والاسباب لم تخلق بعد.

«دمره!.. دمره!..» كانوا جميعا يشيرون الي ويصيحون. وانا اطلق سيقاني للريح. وارادوا قطع طريقي.. زرعوها بآلاف حواجز رجسة ملعونة.. وتخطيت الحاجز تلو الحاجز. وكنت اتحداهم. وثاروا جميعا.. ثم يدك الصوت الفاقد رأسه، رأسي.. «دمره!.. دمره!..» ودخل محمد لاخذ صحنو طعامي، لكنه همس في اذني

- «قريبك يتناول وجبة غدائه»

وغاب معي في جوف طعامي. وطعامي يغدو معدة من مادة صوتية.. لها نبر ووقع ورنين.. كلمة غائرة التجويف.. وهي تتردد في ارجاء الكون، ثم تواري هذا الكون. «دمره!..» تطلقها جوقة. ألف جوقة!.. مليون جوقة تطلقها في وجهي. وهي تتضخم. يحفرها الصوت الثاقب بملايين معاول.. تسمي مغارة تبتلع الدنيا. ومع الدنيا تلتهم الجرثومة الصغرى العالقة في ذرة من ذرات المعمورة البائسة الخربة.. انا.. اين انا؟!.. وانعدمت كل هوية. لم يبق مسموح او محظور. وهربت بالجزع المعتوه الى الحائط. وقرعت الحائط الايسر بجنوني. كنت انتظر النقرة القادمة الي من طرفه الاخر، تنقذ هذا العالم ثانية من شره. وتطمئن قرص الشمس على الاتلويح اليه بالمعول. وطرشت. لم اسمع النقرة.. لم اسمع الا «دمره!..» وهي تتردد في كل مكان. وهي هدهدة طفل يهجع في مهده.. وهي تسبيحة للخالق.. انشودة حب ولهة للمعشوق.. ترنيمة تمجيد للانسان!.

«دمره» في كل مكان. ظلت تتردد حتى العصر، ثم في العصر التقطت اذاني اصواتا اخرى. ولم اكن اطرش بعد. دفعت سمعي نحو مصدر الاصوات. وكنت اتوقف عند جهة باب القضبان اليسرى. وازدادت الجلبة في اذني. كانت تأتي من زنزانة قريبي. وسمعت ضحكات. وأزددت فضولا لمعرفة ما يحدث، وتجرأت. أزحت طرف البطانية المنسدلة، شعرة ونظرت. وكان قريبي يخرج من باب الزنزانة بثياب العيد. وحقيرة صغيرة سوداء يحملها بيديه، وذراع كوبي ملقاة على كتفه.. وثلاثة خفراء، يبتسمون لقريبي بسمة النصر.

وتراخي الساعد فانسدت الثغرة. وبصعوبة وقعت على مكنن قوقعتي في اقصى الزنزانة. ورميت نفسي في احضانه. ثم غرقت في ضحكة مجنونة، لم تتركني الا مخنوقا اسعل دون هوادة.

الفصل العاشر

كان القبو في «حلبا» أرحم. في امعاء ذلك القبو مخلوقات اصبحت احن اليها كل لحظة. يتملكني احيانا شوق طاغ.. يحتاجني حب.. في الاخرى، حنين لهذا الحب. وفي مزرعة الصرائف الخشبية المهترية، تتكون في هذه الايام مستنقعات لا تلبث ان تتحول لمخاضات وحلية. هناك، «بيوت» الناس، اكواخ منخفضة، منحنية، تسجد للارض. هناك ايضا، أثرت من تناسخ تلك الارض السابق، اشجار اكليتوس عملاقة، ليس ثمة في ذاك الموضع اشمخ منها. واحدى هذه الاشجار، ما عتمت تكلكل بجوار صريفتها. اني اكاد انسى ملامح طلعتها. نسيت، فيما نسيتها ايضا، ما اسمك يا «نايف» او «نواف» او نوفل».

قال لي

- «هنالك امور اكثر اهمية من اسمي»
فحاولت ان اتذكر لون عينيها واسمه. الا انه عاد يقول مستاء
- «قد تتذكر اسمي فيما بعد. هذا شيء استثنائي، فالمهم الان ان تصحح اخطاءك بالنسبة
لها حدث لي»

ورأيت عينيها بوضوح. لونها شهد خالص. ورأيت بشرة الوجه. بيضاء ميالة الى الحمرة. وهي واقفة متجمدة تحت شجرة الاكلبتوس، ترمقني فتتضاعف في طلعتها الحمرة. ريانة نضرة. دخيلتها مصطبغة بحليب ناصع. فوق وجنتها اليمنى منقوشة اخت بغدادية في حجم الفلس، تجعلها اكثر روعة.

والح نايف او نواف او نوفل علي بأن اتذكر. أفحقا انك لم تطلق النار الا على مجرم؟؟
أفقا كان صاحب امعاء الكلب هو الياضي؟؟. حقاً. واصيب صديقك فأطلقت عيارتك النارية من اجله. انا لم يخطر في بالي ان اقتل الشيخ السارق. كنت يومئذ طفلاً فجاً. وهو لم يحطفها مني. انقذني معها من ثروة الحب الصامت. ابدا لم نتبادل كلمة. عيناها تكلمتا. وجهاها. ما كفت يوما عن ان تلتصق بي. وهي تلتفت. وتلفت معها. وهي تحكي لصديقتها. وحكيت لقريبي الثور المعصوب العينين.

الآخري، الغولة، جريئة وقحة. ألقت من فمها الكمامة. نزعـت عن معصمها القيد. حين أنت مزقت أحشاءه وضعوا هذا القيد بيدك. كنت وصديقك في المقهى. ترى هل عن لك أن المأساة حاضرة تتربض بثلاثتكم، وهل أدركت وسمعت صدى تسلسلها من بين اللحظات، وهي تتستر بغلاف هذا الغيب الملعون؟! اني، اخترق الساعة هذا الغيب، فأراها تحمل طفلا بيديها، والشيخ يطوقها. اني مخطيء لا ريب. فجدري بي أن اتفحص هذا الغيب بحذر. أن اتقن قراءة الاحداث المختفية عني. اني تعجلت. اخطأت. وهي لا تحمل طفلا بيديها. اذ ما زال الطفل يقطن في الغالب هذا البطن المنداح. والشيخ يطوقها فعلا، وهي منيمة رأسها فوق كتفه، وعلى اسفل حلقها تنهار غشيانات، تتعالى اليه احساسات ضاغطة وكريهة. نسيّتي لا شك. يداهم النسيان الذاكرة البشرية كثيرا. فاعذرني أن كنت نسييت، يا نايف أو نوفل، أو نواف، سبب تمزيقك أحشاء من يقضي الآن بقية عمره، وهو يحمل في جوفه امعاء الكلب.

حين وضعوا الطوق بيدك، كانت «الغولة» من غير طوق. كانت تحتضني. ولسانها ذرب طلق. تتنهد وتقول بحلاوة

- «رجلي أنت.. وحببي»

وتلفني بذراعيها. وأنا ارتجف فرقا يشبه فرق «محسن» ساعة في «الطرف الآخر» جلدوه. ساعة وسموا ذاكرته بالاحداث الدموية.. وسما لا يحموه الا الموت، أو لا يحموه حتى الموت.

- «ذاك لم يكن فرقا. كان شيئا اجتاز حدود الرعب»

- «معذرة يا محسن!.. وضعي لا يسمح لي بالتدقيق في استعمال الالفاظ»

- «كيف يمكن لمن سمع القصة الف مرة، أن ينساها؟!»

- «لم انسها يا محسن. اني احفظها كلمة كلمة. اتريد أن احكيها لك؟»

- «واذن، فلماذا تغالط؟»

وتدخل نايف أو نواف أو نوفل، منتهرا

- «لا بد من ترتيب الاحداث، كي لا تقع الاخطاء، أو سوء الفهم»

فضحكت من سذاجتها «المخطئة» بحق الواقع

- «سوء الفهم هذا يحدث كل لحظة. لم يعد الامر في ايدينا يا اخواني. قد افلت منا. اقسم

قد افلت من ايدينا»

وشلالات الوحل تتستر بالظلمة. كانت تعانقني ونحن نسير. يرتجف وجهها على وجهي.

يبدو في النور شلالا يختلف عن شلالات هذا الوحل. محياها جابهني يومئذ بعهد صادق

ومحال أن يتحلق من حوله الشك. تتقلص شفتاها منطويتين على نداء صارخ. فوق

الشففتين تدب رعدة سرعان ما تهبط نحو الذقن فيتكوز. يغدو أكثر حدة. ثم تبذر قبلاها

في جسدي. حتى وهي بعيدة كانت شفتاها ترشقاني بالقبلة، ثم رشقتني بالبصقة، وكانت

تحمل ريقا من ماء النار.

واشار جلادي الى ملف مثله منتفخ الوداج ومضى يهتف
- «كل الفئران هنا!.. كل الفئران!»

وقلت لحبيسي «حلبا» المسكينين المنكودين
- «أرأيتهما كيف يدغدغنا سوء الفهم بسماجة، فيبكينا ويضحكنا، في آن، ولا يتركنا نهذا لحظة؟!»

اعترض محسن
- «لكنك، تعلم حق العلم، بأن ما وقع لي قد وقع في «طرفكم» وليس في «طرفنا» ابدا»
ودغدغني استحكام غبائه، فمكثت اقهقه، وشددت على اذنه، تماما مثلما كان يحلو لي فعله، وسألته

- «أويوجد فرق بين «هذا الطرف» و «الطرف الاخر»؟!»

أفحم. بيد ان الاخر، انصافا للاحداث، ظل مصرا على تذكيري
- «كنت وصديقي في المقهى. ثم جاء الثالث. صديق صديقي كان. وكان يبدو انه من حيث لا يدري يريد ان يحيا بكيان نصف كلي. كنت وصديقي منهمكين في لعبة «رامي». اقسام لك. صديقي لم يسمع الاخر حين حيّاه. مع ذلك، اطل الحق من وجه الاخر وصرخ «لماذا تتغاضى عني؟ أسمعني قواد؟» احيانا تنتاب المرء نوبات مرح.. او نوبات مزاح. رفع صديقي رأسه وتساءل «من يدري؟». كان مسكينا حقا. لم يدر ان مزحته هذه ستكلفه كل حياته. الاخر، اغتصب ضحك صديقي بشراسة. ضاعت الفرصة في شذو غضب الانسان. وبسرعة، انطلق الموت من داخل انبوبة بارودة سوداء. نحو صديقي. رأيت صديقي الضاحك، يسبح فجأة في بركة دم. كان بطنه مفعورا.. احشاؤه مدلوقة، تضيء في وهج الشمس. جف صوابي. ادخلت الاحشاء الى جوفه بيدي. ثم ناديته. لم اتلق جوابا. كان اعز صديق لي. ميتا بين احضائي. حتى لعبة «الرامي» لم نتممها. والاوراق مضرجة بالدم وجسم صديقي. وشهقت. كنت اجهش ببيكاء ساخط متوجع. لم اتصور كيف في لحظة حمقاء فقدته. اعز صديق لي. والحق يولد الحق. كلا. كان ذلك حمقا فردا لا بد وان اقضي عليه. وقضيت عليه وانا استغفل المنطق والواقع. لطخت يدي بدم القاتل والمقتول. كنت اطلب العدل. قاضيت المجرم ثم فتحت عيوني. وفقدت العدل فاذا بي هذا المجرم الذي يقاضيه العدل»

وتأملت اقواله. ضعت فيها ساعة ثم قلت
- «لكني لم اقتل احدا. حتى ولا نملة. لم ألحق الضرر بمخلوق.. لم اخدش فأرا ومع ذلك اصبحت مثلك. لا نختلف حتى في شعرة»

وكانت كتلة اللحم المترهل والشحم، ما زالت مقتنعة بأننا جميعا.. مجرمون.. وفئران! وافتر ثغر الغولة. ومن عجب ان فمها كان يخلو من انياب الغيلان. ثمة، انتضدت اسنان بيضاء وصغيرة كاللؤلؤ. واستفتيت الفاتنة الغولة
- «هل حقا نحن فئران؟»

وتحرك رأسها يمينا وشمالا ينفي الشبهة في اصرار، ويقول
- «بل انت رجلي وحببي»
فساءلت بعذاب
- «والبصقة؟.. ماذا كانت تعني اذن حين من فمك انطلقت تغمر كل كياني؟!»
غضت الطرف. قالت بحياء.. بأسف
- «كنت مندفة.. مثله»
- «هو ميئوس منه تماما.. قد حطمني»
قالت متنهدة تغرقني بسمتها الطافحة بهاء الكوثر
- «سيأتي يوم يولد فيه الماضي. اني اريدك. وسأمسح عن وجهك اثار البصقة.. بألف قبلة جديدة»
وذعرت. اصبحت اكثر روعة
- «الماضي؟!.. أرجوك.. قد مات هذا الماضي، وتخيفني فكرة بعثه»
- «لكنك لا تحيا غيره»
- «رغما عني. حين لا يوجد حاضر او مستقبل، لا يمكن ان نحيا الا فيه»
فوعدتني واثقة ومواسية، كل جوارحها ترشح عاطفة سيالة
- «المستقبل موجود. والحب كذلك. صدقني!»
أأصدقها حقا وانا فأر داخل مصيدة موضوعة خارج كل زمن ومكان؟!.. وانا محروم من رؤية اية انسانية؟!.. حتى امرأة سرداب الأمن العام في «الطرف الاخر» كانت قبضة ريح.
وصرخت في وجه «محسن»
- «انت لا شك اكثر غباء مما يشي به مظهرك هذا!»
فتغضن هذا المظهر حتى سال كآبة
- «ماذا كان يمكنني ان افعل؟»
- «كان في حوزتك انثى. ففررت من رحمة الله الكبرى الى احضان بشر لا يدرون معنى الرحمة»
وتفكر «محسن». وكان يطمس في ارض سائبة من حزن قاصم
- «ماذا اصنع؟»
- «ان قدر لك ان تفلت يوما من قبضة البشرية هذه، فتزوجها»
كنت احده عن زمن لم يأت بعد. المستقبل!.. وهو موجود في ايديهم.. ايدي هذه البشرية. هل تدرين اني فقدته؟!.. فانا لا انتظر الا الوجبة المعتادة. عما قليل سيدخل الجلابد يحمل سوطه. وساعتئذ سأفقد حتى مخاطبة نفسي. هل تدرين انهم حظروا علي مخاطبة كل كائن؟!.. اني اسخر منهم. اتحداهم اذ اخاطبك الان، واخاطب «محسن»، واخاطب ايضا «نايف» او «نواف» او «نوفل». لا ادري لماذا لا اتذكر اسمه لكني اخاطبه بتعدد الاسماء. محمد، اضحى يخاطبني بعينييه كما فعلت في الزمن الغابر الاخرى المنداح بطنها في

هذه الساعة. بعينيه. ثم يرتفع رأسه نحو السقف. هو لا يقصد بالطبع هذا السقف المبوق ببراز شياطيني. هو يقصد شيئاً أعلى من ذلك بكثير. ابتسم هذا الشيء في أعماقي قبل أيام، ثم راوده ندم صارخ، فتلاشى. بيد أن محمداً ما انفك يرفع رأسه نحو السقف. لا ينسى أن يفعل هذا كلما جمعنا صدفه. فهو لا شك يبتهل لآلهه الشخصي، أن يعيد الفأر بشراً كالسابق. كيف يعقل أن يستجيب آلهه من بعد أن أصبحت الدنيا متخمة بالفئران البشرية؟ روبين القصاب.. كرجي م.. يوسف ك.. إبراهيم ش.. ميرز.. اسحق «شرفنطح».. عزرا خ.. وشقيقة عزرا، جوليت.. اهلي جيعا.. وانا. أرأيت كم كثرت الفئران البشرية؟ أفلا تخشى أختك الكبرى من أن يكتسح الطاعون الدنيا؟! هذا الطاعون واقع لا ريب فيه، ما دامت الفئران تفرخ وتتكاثر. فاحترسوا من هذا الطاعون. من كل قلبي احذركم!.. ازجوها اليكم اغلى نصيحة!.. كفوا عن مسح البشر التعساء البررة، فئران تجارب لألوهياتكم المأفونة.

يحتجون وذريعتهم في أيديهم

- «أخرس! محظور على الفئران الحبيسة من امثالك، ان تنطق»

لكني احذركم انتم!.. قلت له «انه من انبل خلق الله» واهتز جداره الهائل باشاً للنكته. اذ من يجرؤ ان يسم «الفئران» الاخرى بالنبل؟.. بالطيبة؟.. اولئك في القرية الملعونة كرماء، لكن الطيبة هربت منهم تعدو. وقريبي طيب، لكنه طائش، مندفع وضعيف. ثور معصوب العينين. وهي الاخرى طيبة للغاية. يحدث أن يكبو اللحم. وهي لحم طيب يكبو احياناً. وسترضيني بألف قبلة. لا تستغرب هذا.. إني متأكد!.. هذا ضعف من نوع اخر يدعى «ضعف الطيبة». ولهذا انقلب «نايف» او «نوفل» او «نواف»، القاتل حنف انفه. ولهذا نحن فئران حقيرة تتحرش بحاسة تقززكم الانساني، انفتكم البشرية المقدودة من صخر قذفته السماء يوماً على عاموراء وسدوم. وفي جوف تمثال الصخر، انقلب القلب الحجري حزناً على عصفور دقيق جرمه، في حجبنا نحن الفئران، الا ان صخر تكبركم هذا يزداد صلابة كلما اصطدمت فأراً بشرياً اخر. وسيضحى فولاذياً يوم لا يبقى في العالم الا الفئران البشرية، والبشرية صانعة الفئران. احذركم فالطاعون قادم يا من قسمت الدنيا، وجعلتم العالم اطرافاً متنافرة بحواجزكم النارية الدموية.. وبالكلمة الملعونة.. وبال..

وركعت امامي. دمعتك تصنع لك طلعتك العذبة. ورفعت اليّ الوجه. باكية مبتسمة مبتهلة. عاشقة متألّمة نادمة على ما كان منك. وقلت بهمس كالحلم، او كنسيم

- «صدقني. ستشفى الدنيا من هذا الداء، فلا معنى لأن تقتل نفسك ياساً»

بل ضحكا اقتل نفسي. فقد يسا كنا نصطاد الفئران. طفلاً كنت. وأنت غريبة. منقطعين من غير سبب. ابداً لا أجرؤ على نطق الكلمة الملعونة. والتاريخ يعيد نفسه. كانت المصيدة تطبق حين تصيد. اهرع جذلاً. لأرى الفأر مضغوطاً في قبضتها. والذنب الناحل

يتراقص وحده كالافعى حتى يخذم. قديما، لقنا ان الفأر يحمل جرثومة الطاعون. واغتلناه كي نقتال هذا الطاعون. الان، ازدادت الفئران العملاقة. كرجي م، مثلا ضخم عملاق. ويقاطعني جبل اللحم الثلجي - «كلا!.. رأيت الملف؟.. انه مصيدة ال..جرذان.. مكتظا بهم. وهذا الذي تحدث عنه بداخلها مع كل الفئران الاخرى»

تعساء!.. فمجاري قاذوراتكم العامودية، هي مرتع الفئران. امست الكلمات السحرية كظلة دنيانا المبتلعة في احشاء التجويف المحفور بأعماق كلمة شقيقته الكبرى.. دمره!.. الطرف الاخر!.. بغضاء الاهل!.. «الانسان»!.. الفرية السوداء!.. «هوكس فكس»!.. يا شهورش!.. اهيه أشر أهيه!.. الفأر.. الفأر!.. حذاري من الطاعون!.. كرجي م، العملاق مضغوط بين طرفي الصفحات السوداء مع كل الفئران البشرية الاخرى. جاؤا من احد «الاطراف». كثرت «الاطراف» بفضل السحر الاسود.. البغضاء. القوميات. المجد لي وليس لك. خيانة!.. مجرم من يجتاز حواجز «الاطراف».. سنحارب!.. النصر لنا!.. كان ابراهيم ش، يصمت. كثيرا يصمت هذا الانسان. كرجي م، مدير سابق لمحطة قطار في ذلك الطرف «الاخر»، الاخر. يحمل مكنسته. يرقى السلم الحجري الى اعلى جبل. كان يوما «مثنوى ظل الله»

- «قالوا لي، انك تخدم وليا من اوليائه. رأيت كيف؟.. أدخل الحاضرة وأكنسها. في السابق كنت أجل اولياء الله، اصبحت من فرط عنائي ابصق على القبر. ثم تنكشف لي اشياء على دفعات مثل جرعات سم موقوت. اني اكابد احساسا مر الطعم لا اعرف شيئا عنه، حتى جاء يوم. مكثت زائرة كهلة ورعة ترمقني في حزن ورتاء. ثم مدت يدها داخل حقيبتها الرثة وحين خرجت منها كانت منطوية على شيء حرصت على ان تخفيه بعناية. حشرت المرأة ذاك الشيء بين يدي وولت. وفتحت يدي فوجدت بداخلها قطعة نقدية. لحظة طويلة مكثت مرتبكا لا افهم، ثم حين فهمت اختنقت عيناى بالعبرات وقذفت القطعة النقدية الى اعلى. مال الله يعود اليه. وقلت له، (خذ صدقتك، فأنا لا اقبل الصدقات). وكنست وانا اثير من حولي ترابا اشبه بالعاصفة الرملية. ها أنذا اعاني من داء الربو، من كثرة ما استنشقت من أتربة قبر ولي الله. واخيرا ادركت اني لا اكس الا ظلي الانساني. رأيتم كيف؟!»

وقلت ليوسف ك، يوما بعد فراغه من صلاة الصبح - «هل انت حقا متدين؟!»

قال، بفعل العادة

- «كان ابي حاخاماً معدودا بين العشرة»

- «مع ذلك، فأنت تتعاطى السحر.. اعني خداع الناس»

ضحك يوسف ك، ببعض ارتباك وقال

- «النفس تواقة يا ولدي.. جاءتني يوما ارملة، فقدت البعل حديثا. قالت انها رآته في

الحلم يأكل سمكا. اذاك تذكرت ان ثمة شيئا ما يدعى سمكا. فقلت للمرأة (ان روح المرحوم مشتاقة الى اكل سمك، وما عليك الا ان تجلي لي سمكة كبيرة وتليق بمكانته وانا سأقوم بالواجب ازاء المرحوم) و.. اكلت السمكة.. لأول مرة منذ...» قاطعته

- «والله؟!.. الا تتورع عن منافقته، اولا تخشى عقابه؟» قال

- «هو مشغول. انه يندب عاقبة صنعه. عباده قد مرقوا فهو يبكيهم كل ليلة... وينتحب على فعلة الخلق النزقة الخرقاء»

يصمت ابراهيم ش. يذهل. يسحل ذاته منهوكا، في ملكوت الاحزان. وروبين القصاب متقاعد ويقتل وقته في لعب «المحبوس». يشعر انه بات كبشا مشكوكه قوائمه بالكلاب.

ويدوي صوت جدار اللحم، كصوت مروق طائرة مختربة لجدار الصوت - «اقمتم بلدا!.. فتران موتورون!»

كانوا يجتمعون. جمعتهم شوكة. في وجه كل منهم انغرزت شوكة صبار سامة. - «خلق الانسان حرا»

مير ز، يتفلسف

- «جئنا للعنينا طرعا مخنوقا. كنا ولنا مخنوقين»

كانت اسرة خ، تمتلك في الزمن الغابر، في احد الاطراف الاخرى، اراضي شاسعة خضراء. وعزرا خ، لا يبدو كالفار ايدا. بل هو شاب فارح نحيف ورقيق وتطاوع عينيه الدمعة.

يعزف على العود ويقرأ دواوين من صرعهم العشق من متييمي العذريين

- «الفتران التهمت ببادر حنطتنا»

شقيقته جوليت هي مناقضته الكبرى. يوم جُمعوا من كل اطراف الأرض والقوا في السجن، قالت جوليت لمحققها

- «هل تعلم؟!.. يوما سافرت قرابة ثلاث ساعات، من اجل هدف واحد.. سام»

قال لها، والفكرة المسمومة تتحدث بلسانه

- «اعرف هذا الهدف السامي. كان لا شك جزءا من خطة هربكم الى بلد الاعداء»

فأجابت بصراحة

- «ابدا. انما قصدت أثرا خاصا، وانا لا انوي الا ان ابول عليه، واعود!»

صرخ الشرطي بجوليت

- «اين؟!»

- «ليس هذا من شأنك. لكني اؤكد لك، ان الموضوع ذاك، كان وسيبقى احد مصادر

تعاستنا البشرية»

- «اقسم انك اروع مومس»

- جوليت خ، لا تخشى ان تصفع او ان تبصق في الوجه. مع ذلك، كان ثمة ما هو انجع.
- انفجرت ضاحكة في وجه الشرطي وقالت
- «انت كريم!.. وتريد ان تقاسمني شرف ابنتك، لكنني افضل ان ابقى بدونه»
- غضب. في الارجح انها هي التي تلقت الصفعة او كادت. لغة سكان المجاري العامودية هي الصفعات. لم تعبأ. قالت ببرود
- «ولماذا غضبت؟.. صدقي الا شرف اكبر من هذا. أفليس شرفا ان تصبح ابنتك، عاهرة في دنيا افضل شيء فيها الماخور؟!»
- كانوا يجتمعون. فئرانك يا مولاي المحقق. الناس الطيبون الابرار. يجتمعون من اجل ان ينتزعوا من على وجههم الشوكة المؤلمة المسمومة
- «لنخرج!»
- «الى اين؟!»
- «بعيدا عن بؤرة تصارع القوميات»
- «قل لي، في اي مكان لا يوجد صراع القوميات؟»
- «حيث يوجد صراع الاجناس!»
- «او الاديان.. او المذاهب.. او الالوان.. او الاراء السياسية»
- «اين يوجد الانسان، من غير هذا كله؟!»
- «ربما في العالم الاخر.. لكني لا اعطيك ضمانا على هذا»
- «مهما يكن، فلنبعد عن فوهة البركان»
- اتفقوا. ذهب كل منهم الى مكتب جوازات السفر. عادوا جميعا من غير جوازات
- «رفضوا!»
- «نحن اناس من غير هويات»
- «لكن الناس ولدوا احرارا.. لماذا لا يريدون ان يفهموا هذا؟!»
- «ان شئت الدقة، فعليك القول، ان الناس ولدوا مع خدعة الحرية»
- «اني اكره ان اكره. لا بد ان اهرب بعيدا عن بحر الكراهية هذا»
- «وهم مصرون على ان يبقى فيه.. وان نكره»
- وجه اسحق شرفنطخ يشبه وجه المسخ. غدد لحمية ونتوءات تشوه هذا الوجه، قال
- «خير طريقة ان تستأجر باخرة، ثم نلجأ للبحر»
- عادوا وافترقوا. بوجوههم ما عتمت ناشبة الشوكة. وبحر البغضاء يطفح. ثم عادوا اخرى واجتمعوا.
- «تعبت!.. ياسي يوشك ان يحرفني في تيار البغضاء الملعونة»
- «لا تضعف!.. احذر من ان تلقي بنفسك الى فوهة الطاحونة!»
- «لماذا لا يتركونا نمضي؟!.. لو كنت مكانهم لقلت لكم (ولوا. الى الف جهنم!)
- «تستعر القوميات. وهي بحاجة لوقود. الا تعلم هذا؟!»

- «وهي في الواقع محتاجة الى ماء يطفى جذوة النار المستعرة»
- «هل في وسعك ان تصبح انت هذا الماء؟!»
- «بل قل هل في وسعي ان اتحرك؟.. اني اصبحت مستودع امراض»
- «اللعنة!.. لا بد من ان نصبح خارج اللعبة»
- «كيف؟!»
اسحق شرفنطح يعود ويشترق بأوهامه، وأكاذيب إسحق، داء يجعل منه احيانا اسمج إنسان
- «وجدتها!.. سأهريك!»
مرة اخرى تفاضوا عن اقواله. ان احدا لا يكثرث بأسحق شرفنطح
- «طنجة!.. لا فرق هناك في القوميات...»
قوطع
- «بل طنجة ملاذ حثالة البشرية»
- «حثالة البشرية، من يرضى ان يمكث في موقع تتصارع فيه البغضاء القذرة، ثم رغما عن انفه، يدخل مسار هذه الحلقة المسحورة»
- «نطلب ان نصبح مواطني العالم. لا حل الا هذا»
- «نلجأ للامم المتحدة. نحن اناس لسعتهم حرب القوميات النكراء. ليكن موطننا هذا العالم»
فكرة رائعة حقا. الا ان مولاي المحقق ثابت على فكرته «الانسانية» الذاتية. انت على حق.. فمهمتك هي ان تخلق للناس جرائم. وجريمة شنعاء، ان يجتاز المرء جريمة القوميات ويغدو انسانا دوليا. انه بهذا يقيم بلدا.. لكن وصفتك مضمونة. اجعله فأرا ثم نكل به!.. والكلمات السحرية ناجعة المفعول.. خاء.. ياء.. فاء.. ألف.. نون.. هاء.. راء.. المصيدة اضحت محكمة الاغلاق. ابدا لن يفلت منها فأر مارق. وخطابهم لم يصل الامم المتحدة.. ضاع في اول الدرب.. فهل وصل امي، خطابي؟!.. لو كان وصل حقا، لجاءت تسعى الي ولو كنت في جزر واق الواق.. اين جزر واق الواق؟!.. افلم يكن افضل لو لجأنا اليها عوض البحث عن هويتنا الانسانية الدولية المفقودة؟!
تعالى معي يا ابنة عم. نيسم شطر جزر واق الواق. نحن في عصر السرعة. وسنبلغها في سرعة صاروخ. الخاطر اسرع من اسرع صاروخ. فلنبلغها قبل ان يخطفها منا صاروخ عابر للقارات. يهبط فيها فتتوارى في قاع البحر. هيا. مجرد نزهة. قرة للعين. حلم وردي يزري بأنفس احلامك. اين منه ساعة انضيت ثيابك ثم دسست ابهامي في قلب الكأس المفتوحة في بطنك؟ أتريين؟!.. ما ابداع جزر واق الواق؟.. هنا، لا نخل، ولا اشجار الارز، ولا نفط، ولا صبار. هنا، لا امطار ولا وحل ولا شمس تكافح ملهوثة كي تبلغ ارض العالم التعسة. هنا، لا حواجز، لا طلقات نارية، لا قتل، ولا فتران. فأرض واق الواق غمامية فضية. تحت ارجلنا لجات لجين متموج. في اعلانا اثير متكاثف نوراني اخضر.

يومض اشعاعات لا تؤذي العين. ونحن نتحرك. في ابعاد اربعة نسبح. ونخلق في كون
ليس فيه نار او دم. اصيخي بسمعك يا ابنة عم. من اين تتناهى الانغام العذبة؟.. اسمع
ايضا ترنيمات طيور ليست ارضية وبلابل اسطورية. واشم ضوع شذى العنبر
والكافور. واحس سكينه محروم منها الانسان في الدنيا. فأنا لا شك ميت. وفقدت ذاكرة
الاحياء.. احساس البشر الاحياء. لكننا بطلاقة نجوب هذا الكون الفاتن. حيث لا اقفاص
مكفنة قضبانها بستائر عازلة او جدران. ثم ها أنذا اسمع صفير الصاروخ. دوي يخشن..
تتكسر الاصوات كتساقط اشياء فخارية. والدنيا امست كالحة النور. في قلب العتمة
ظل اصفر شاحب. وهنا لطخة زرقاء تشبه ظلا انسانيا يكبر ثم ينتصب بشموخ حذوي.
يرفع سوطا بيديه. وسيلعلع هذا السوط، في الحال. وخسارة ان تنفذ هذه النزهة كشرية
ماء نزرة. جاء دور الوجبة اليومية. والغيوبة منتظرة في الدور. وانا منها، لكني ثابت.
وعليّ ان اهبيء نفسي، فأشيع عن جزر واق الواق وعنك، وعن كل الاشياء...
اني اذن مضطر ان استودعها.. واستودعك معها... الله!

الفصل الحادي عشر

رفع يوسف طرف البطانية وتطلع بي. حمل وجهه انعكاسة من ترتطم عيناه بأبشع منظر. كان هلعاً مبهولاً بالحزن. مفحماً متغضن القسمات. وتنهد. وكنت اتحجر في وضع استنكار منبثق عن رفض لا يتهاود. ربما اخذع نفسي.. ربما امحو الواقع وأفر الى احضان الاسطورة.. وتساءل يوسف

- «حتى متى؟!»

وكان يضغط. كان يحاول بتعنت ان يضع الواقع المسخ نصب عيني بطريقة القديسين الحاملين لخطاة البشرية اللعنة وبجانبيها البركة، او نذر الويل الصاعق مع بلسم التوبة والغفران. كانت هذه، شعوذة تسقمني فوق سقمي المتفاقم. واظافرها المقلمة تسمي في احيان، أنشب في الروح من أنياب سياطهم العاضة. وبصراحة، فأن سؤاله هذا اصبح يتردد، في الاونة الاخيرة، ويدور في خلدي مع تصعيد انفاصي، لا يتوقف. في ساعات جنوحي الى هذا الكابوس المرعب، لكنه يمرق بشعاب تفضي لدلالات هي غير ما يوميء اليه يوسف هذا. كنت أجد خلفه طمعا في رؤية مصري. وكان يوسف يلقيه، فيشير من طرف موارد نحو نهاية ما عتموا يبغون تحديدها لي في جهد لم يتورع استبعاد كل رادع يمكن ان يوجد بأحاسيس كيان بشري او حيواني. كان سؤالاً يلقيه كل منا، مع ذلك كنا مختلفين بما نضمه ساعة القائه. بيد ان اختلافنا هذا في الغاية، لم يمنع ان سؤالنا ذاته انبثق دوماً عن ظاهرة واحدة، وحقيقة لا يمكن ان تنكر. وكانت الظاهرة والحقيقة تقيمان معي في هذه الزنزانة منظورتين باديتي السوء، لا يمكن اخفاؤهما مثل بطن الحامل. ومثله تنتفخان بمرور الوقت. لكن احدا لا يعلم ماذا سوف يتمخض عنهما. وكانتا عالقتين بي منبثتين بكل خلاياي وبروحي وثيابي ايضا. ظاهرة تعسة وحقيقة شريرة، وتشيران سؤال يوسف وسؤالي كل لحظة.

ونكت باصابع ناحلة كالخوص غباراً امسى كل حياتي. وبدون ان ارفع من قوقعتي رأسي، غمغمت

- «محظور عليّ الرد عليك»

- «انا لست أي انسان»

حقا!.. فأنت معدود على الذين حظروا، بيد انك مع هذا ما زلت احيانا تنتزع شفقتي عليك. اما ان كنت صادق المخبر، فذلك يعني ان كلينا يلعب الان لعبة هذه الشفقة.. كلا.. بل دعني كي أدعك، فأنا لا اقوى على هذا...

لم يتركني وشأني فاستطرد

- «صدقني اني اخاطبك مثلما اخاطب ابني.. وثق اني اخشى عليك من عنادك هذا»
هل ينبت في هذه الزنانات «ابناء» ليكونوا اكباش فداء؟..

تحاملت على نفسي فقلعت عيوني من الاسمنت. وخرج رأسي من درعه بين ساقبي، بمشقة. كان قد اعتاد هذه القوقعة من حيث انعدم كل ما يستحق الاطلالة منها عليه. الساعة، اشرب العنق لترى العينان هذا الشيء الابوي الفائض رقة، لكنه يتواجد هنا في هذا الموضع مرتديا البزة الزرقاء.

- «لماذا لم تدافع عن نفسك؟!»

وكان الدم يغطي وجهي. وتساءلت ساعتها عما اذا كان غيبيا بالفطرة. الا ان الرد ما انفك يتأرجح حتى اصبحت «ابنه»، وغدا الدم يغمر كل اعطافي، وكأني انسان حي بالفعل - «اتساءل لماذا لا يوجد هنا من يخشى عليّ غيرك؟!»

وأفحمته. فحتى لو لم يفهم مغزى لسؤالي، فهو لن ينجو ابدا من قبضة الاحراج. وهناك احتمالا ن يتيمان. فأما انه ينفذ دورا مرسوما، او انه ملاك يتعاش مع زمرة شياطين. وكان سؤالي له يهتك عورة الوضع الاول. اما الوضع الثاني، فبوسع يوسف لو جابهه بشجاعة ان يدخل تيهها لا مخرج منه. الاستثناء هنا، هو استثناء ضمير ما زال ينبض وحده في حقل موبوء بضماير قوضها الدود. والعقل، ان كان سويا، فسيستنكر موت مبالاة الانسان وصمم حواسه في جلبة اجراس الاخطار وهي تدق في اذنيه دون هودة. وسيستغرب ايضا، ان يضع المرء شعوره في بؤرة لا بد سيأسن في داخلها يوما. اما ان يمتلك الحس المرهف ثم يلقيه مختارا وعن ادراك تام في بيئة تتحرش فيه وتعذبه باستمرار، فهذا امر، من الافضل ان تهمس به في اذن اي حمار تلقاه في الشارع صدفة، فلعله يعطيك التبرير بهزة تلقائية من رأسه.

سل ابن عمي فسينفحك الرد القاطع الفصل. يوما اضطر لكي يحظى بكفاف يومه ان يعمل سجانا. كان سليم النية. لم ينظر في قاموس السجانين ليتأكد مما تعنيه لفظة السجان، ثم بعد ايام بفضل ممارسته الفعلية، اجتمع لديه الف مرادف تعني تلك اللفظة بالذات. كل مقيت كان يعنيها. السجان يعني الجلاد.. الشيطان.. النذل.. يعني شخصا يرغم سجنائه على ان يشربوا بولهم عوض الماء. يمسح عنهم ظل كل ما هو بشري.. وتشبه ابن عمي بضميره. كان حريصا على ابقاء ظل الخالق الميثوث في خلقه. فتقيأه الوضع بسرعة. سمع الاجراس منذ اول لحظة.. رفض ان يتعاون على تحويل المخلوقات

البشرية الى فئران.

وتمعنت في وجه يوسف المرسوم داخل ثقب بين الحائط والبطانية، واحترت في امره.
وعاد يقول

- «صدقني. انت مطوق من كل جهاتك. وأحد لا يعلم بمكان وجودك.. وقريبك شهد
ضدك، فقل الكلمة وانقذ نفسك»

حملت بيوسف وبكل الاشياء. ووقفت منتفضا كلي. ورأيت اشباحا سوداء في كل مكان.
الان فقط ادركت السر. وليس سر يوسف ما ادركت، بل سري انا. هذا الموت المرحلي
الجاري في السر. وتيقنت من اصداء بكاء الارملة المسكينة وتضرعها الذي طرق
سمعي اكثر من مرة. ذلك لم يكن محض هذيان او وهم سمعي. إني اذن اتفسخ في منأى
عن كل العالم. اني معزول اعزل من كل سلاح قد يوجد ليدافع عني. العدل..! هذا
الشيء، لا شك كان موجودا في غير هذا الموضع. يقبع بمكان ما خلف جدران القلعة
الصفراء الجدران، التي لم يخجلوا من زرع الورد في داخلها.. حقا، قد غربت عن بالي
اشياء. العدل..! معها حدث فهو يشع على البشرية كي يحميها. لن يتخلى عن مخلوق، حتى
يلفظ هذا المخلوق اخر انفاسه. وابتلعتني رعشة. اني الان أفهم سر القائي ودفي في هذا
القبر.. ولماذا اخاطوا فمي وكفنوا الاشياء من حولي حتى باب القضبان.. ودهني الخاطر
يحمل لي روعة ابشع موت. وكان يضحك في وجهي باشنع طلعة. انيابه تتدلى من ثغرة
مثل انياب الفيل. ولا عيون في محارجه لكنه يحملق بملايين خلاياه المسدودة. قرنان
على رأسه وقرنان في اذنيه وقرن اخر يخرج من فتحة منبعجة في وجهه المسخ. اصلع..
مجذوم.. يدب لحمه فوق بدنه كطواير عقارب.. يتشكل صورا مفرعة لا تبلغها مخيلة
بشرية. يمحو نفسه ثم يكتبها في ذاتي. وبسرية تامة يتقمصني.. موت مسخ لم يخلقه
الله. يتكون داخل جماجم مكنتة بنجاسات الدنيا. في كتمان يوجد. ثقب يقذف في
احشاء كياني.. يشربني جرعات عذبة في غرة من امر العدل.. في السر يحدث كل هذا.. في
السر اعاني.. في السر أأكل.. في السر اتناقص.. في السر اذوب.. وستكنس مني الزنانة في
السر كذلك بمجيء الوقت، لتواريني بقعة مجهولة لن يعثر احد عليها حتى العدل نفسه.
لن تجدني امي.. لن يجدني الانسان البار.. لن يفضي يوسف، هذا «الانسان الطيب»
بمكاني. ومحمد اجتثوا لسانه من اصله. والغولة النادمة الحسنة، اترها تعلم بما
تعلمه شقيقتها الكبرى؟!.. وتعرف ما يعرفه شقيقها الذي لا يكف عن دورانه حول
الدائرة المفرغة كأي ثور معصوب العينين؟!.. وحين سيعود ويستيقظ ضميره، في
الاحرى حين سيتمرد مرة اخرى فسأكون انا في لا موضع.. وسيصرون على «اننا لا
نعرف عنه شيئا».. ليس هنا.. ليس هناك.. ليس في اي مكان.. أفألجا الى جزر واق الواق
وانا ميت في دنيا الواقع؟!.. هل اتحدى هذا «الحكم»، باستحضار شخوص لن تسمعي حتى
ساعة السننها تلعلع كي تستفتيني؟!..

كان الواقع يحكم من حولي طوقه. في عتمة الزنانة شاهدته وسمعته وشعرت

بوجوده. فاحت رائحته من اعماق روائح عفن رطوبة حاذقة منحشرة في كل مساماتي،
ايقظ ريحه هذا غرائز ادركها خدر عات منذ شهور. ويفيق الغد ايضا.. المستقبل
اللامستقبل.. أفكنت محض نعمة؟!.. هل بشعور مكنون غامض كنت اخشى مواجهة الغد
هذا؟!.. الساعة، ابصر فيه موتي القادم بخطوات متتدة.. كيف سأخلص منه؟!.. موتي..
كيف سأوقف خطواته المقتربة؟!.. كيف سأنجو؟!..
وسمعت اصطفاقة روحي وهي تغمر صوتي حين ساءلته بما يشبه استغاثة او صعقة رعب
مهموسة

- «أنظن اذن، اني لن اخرج حيا من هذه الزنزانة؟»
وتغضن وجهه. لاح عليه استنكار

- «دعك من الخرافات.. ان احدا لم يقل لك هذا»
وخذلني صوتي فأرتعد اذ حاولت ان اصرخ فيه
- «بل انت قلته الان.. وانا اعلم هذا حق العلم»

فقال ببرود

- «انت اسأت فهمي.. كنت اقصد انك تعاني.. وهذا يكفي»

وحل صمت طاريء. صمت ضيق محدود لا يختلف في شيء عن هذا الواقع. كان اطارا
للواقع والواقع اطاري الذاتي، وكلانا تتخلى عنه خطوته الذاتية. كانت هذه الخطوة بحاجة
لشيء «حيوي» لكي توجد ثم تتحرك. وهنا كان الموت وحده. وانا اعرف مصدر هذا
الموت. وسألت يوسف

- «وماذا سيكون مصيري لو قلت لهم الكلمة؟»

اجاب دون تردد

- «في كل الاحوال، سيكون اكثر «انسانية» من وضعك هذا»

وتركني. وزحفت الى مكاني المعتاد وامامي كان الكابوس. ودخلت قوقعتي فألفيته في
داخلها يتربص بي. وكنت اقفقف.

برهة رجعت الى ليل السرداب، ثم ركلتني احذية الماضي فاجتزت اللحظة. ورأيت
كابوسي في كل مكان. والبرد يستفحل. اني اموت!.. في السر اموت!.. لا يعرف احد شيئا
عن موتي. والشرطي هذا، جبان. وسيحاول ان ينسى مثلها عاد وانكر تحذيره لي.. فكفاف
عيشه يحتم هذا النسيان والنكران. وفطنت الى استعماله لفظة «الانسانية» فتأكد، كل
شيء في الانسان.. حتى انسانيته هذه. لقد كانت يوم ولدت غير مجزأة بعد، ثم يترت
اعضاؤها وفق الاذواق البشرية. وكنت بذاتي نكد الطالع فحصلت من الانسانية تلك،
على هذه القطعة التعسة، كي اشهد نتائجها من حولي. قطعة منكودة مثلي. دنسة متعفنة
لا تقرها حتى وحوش الغاب. وكانت كل «الانسانيات» المتغايرة الكنه تقاتل بعضها
بعضا مثل صاحبها الانسان. وعلمت ان هذه الانسانيات برمتها، ستموت، رغم
اختلافها في الجوهر، بمجرد ان ينقض البعبع المصنوع منها والمدعو الموت. انه

سيزدردھا بشھية، ثم يبقی وحده من غير «انسانيات»! وماذا يمكن ان اصنع؟! لقد كان يجب ان ابقى حفاظا على بعض تلك «الانسانيات» ولكي لا يلتھما الموت. اني لا اخشاه، قدر ما اخشى تصدع انسانية اولئك التعساء. حدث هذا يوم اختطف الموت رجلا احبته وعبدته. كان من عسف الجور ان يصيح الاسود، اللون الثابت لوشاح المرأة الارملة المفجوعة. المرأة التي انكروا عليها مكان وجودي. واحتضرت الجدة وسؤال لم يبرح فمھا يتردد «اين هو؟!.. اتراه حي او ميت؟!» لم تقلع عنه حتى جاء هذا الموت واسكتھا. ولم اغالط نفسي. فساعتئذ علمت بأني مهزوم.. وجبان.. واني خسرت اللعبة فلم يبق شيء الا الاستسلام.

وكتبت الاقرار معترفا باني مجرم. وبأني لجأت الى «طرف اخر» فخنث بهذا بلادي عن سبق اصرار. وبأني لم افعل هذا وحدي بل ورطت معي شابا اخر تسببت بترديه معي لحضيض الخيانة والاجرام.. واضفت الى اقرارى هذا، وبناء على رغبتهم هم، جملة «اقر بهذا وانا في كامل قواي العقلية».

ولم يبق سوى أن اضع توقيعى في اسفل هذا الاقرار. وكنت سأوقع دون تردد، لولا فقرة «بكامل قواي العقلية»، التي اضيفت في اخر لحظة. اذ سرعان ما حدث عطل ما في عجلتي الدائرة تلقائيا وباقصى سرعة. وكان ثمة آلة اخرى شرعت تنشط داخل رأسي واحاسيسي لحظة داهم الخلل العجلة التلقائية. ودلفت الى هذا الرأس اراقب ما يحدث فيه. ووجدت اني بكامل قواي العقلية فعلا. وقد انسلخ عني شبح الموت الذي كنت اخشاه. وعلمت بأنه كان يطاردني حتى جاءت لحظة التوقيع، وحينئذ توقفت العجلة المجنونة الالية واصبحت في كامل قواي العقلية هذه.

طيف الموت تبدد. توارى تماما. وانا امتلك عقلي لا ريب. وببيدي ورقة كانت بيضاء ثم سودھا جبني بأقرار قاتم في زيفه كالقار. والاقرار هذا لا ينقصه الا التوقيع - «وقع»!

وتفحصته. اساريه كانت مكتنزة بشيء غير اللحم. كان منتصرا الا انه متوتر. ولجأت الى إقرارى ابحت فيه عن مصدر نصره وتوتره اللامنطقيين. وكنت بكامل عقلي فوجدت هذا المصدر. كان نصره يتمدد بين كلماتي، وتوتره يبحث عن راحة في كلمة تافهة القيمة لم توجد بعد على وثيقة الاقرار، فيقض غيابها مضجع نصره ويتهدده بضياع كامل. الاقرار القذر المسطور في ظل شبح الموت، عدت وقراته. كان منتزعا من كل خداعي لذاتي.. مسروقا من خوفي.. كان فقدا في الذاتي لوجودي.. استسلامي للشيطان. وهناك على الطاولة البنية ما عثم الملف الضخم ينام.. مصيدة للجردان والفئران. وفي وجه جبل اللحم نشوة ظفر شاحبة اللون، منتظرة بفراغ صبر ان تتورد بالدم وتلاحق سكنات اناملي الممسكة بالقلم السیال.. تتعقب اللحظات.. لحظاتي بعد ان استعدتها منهم مذ عاد لرأسي كامل قواه العقلية. وتفحصت الورقة وقرأت وأعدت وترددت. والاشياء منبلجة

تسطع فاراها بوضوح تام، واشاهد الفئران البشرية ترسف ما انفكت في الأغلال لكنها منفصمة الحلقات. القيد، ما زال واهيا منقطعاً. وبيدي هذه الورقة القذرة.. الحلقة المتممة المفقودة.. وهي مقطوعة من هذا الوجه المكتنز المترهل.. وبمجرد ان اضع التوقيع عليها فستغدو جزءاً مني، وسيغدو القيد المقطوع، مكتمل الحلقات. كلا يا جلادي!.. اللعبة لم تحسم بعد. لن يسقط وجهي ليرتفع رأسك في غطرسة مريضة مجنونة. اني امالك عقلي ولحظاتي.. واذن، فانظر اللحظة القادمة، ماذا تحمل لك.. أرأيت كيف يتمزق نصرك مع هذه الورقة الملعونة؟!.. وجهك كيف يخبو؟!.. يسقط مع اشلاء مستند الزيف في باطن سلة نفايات؟!.. بين ساقيك تماماً؟!.. هاتين المرتعدين؟!.. انت تعود الان «انسانا» من حقه ان يغضب. قد اخفقت في دسي بجوارك داخل الانبوب الضيق المتعفن الريح. ثمة، الاف جردان حقيقية ناقلة للطاعون. نحن ما زلنا هنا خارج بؤرة القاذورات.. نحن لا نحمل الطاعون لأحد مهما كان. نحن لا نكره مهما زرعوا اوجهننا بالاشواك الموجعة السامة.. نحن ما زلنا بكامل قوانا العقلية!.. وعلى حين غرة، امتلاً العالم باصوات عجلات معتملة دائرة بكل طاقتها. اصوات اشياء تقضم وتتفتت. اشياء تفرقع وتهشم.. اشياء تصطفق ثم تنهار. وكان ذلك كله يجري داخل الوجه المترهل. كان ما زال مكتنزاً. اوداجه تنتفخ دون توقف. حقد غامق يلتهم في لحظة، نصر الاوهام. يتجوف ما تحت الوجنات وما حول العينين. يُحشى جمرًا يأخذ بتلايبب الصوت، فيتز ازيز النار

- «ما هذا؟!.. هل جئت لتغرر بي؟»

- «كلا يا مولاي.. كل ما في الامر اني كنت بغير كامل قواي العقلية»

- «هل انت مجنون، أم تتظاهري؟»

- «ابدا. فلقد عدت الان اليها»

- «عدت الى ماذا؟»

فتمتت

- «لقواي العقلية يا سيدي المحقق»

- «خذوه الى الزنانة! خذوه الى الزنانة!»

لا تتوقف اللعبة. مرة اخرى في احضان الهول. ايساءته الثالثة محفورة في صفحة ذهني مثل وسمه كي. صراخها داخل جمجمتي ليس مجرد وسواس. صلبوني في وضع مقلوب. جمع كاحلاي ثم حبسا بالقيد وربطاً في قضبان الكوة العليا. من حسن الطالع ان ذراعي مكثتا طليقتين، فتوكأت بكفي على الارض. وانهارت احشائي ثم شرعت تضغط حلقي في قوة. مارست من ثم، مجهودا اسطوريا من اجل ان اتقيأها دون جدوى. واندحر المجهود الاسطوري ليبقى غثيان حاد مشوب باختناق، ثم اختنق رأسي ايضا. وكان يغرق كله في الدم. يغمره اذاك ثقل ودوار وضباب. ثم يولد الشبح الاسود ثانية. وانا ألبسه الان كمعطف شتاء غامق وسميك. ولكنني تجاهلته، او لم اقب على الاحساس به.

كنت اجالد وعيا يشبه قنديلا لم يبق من زيتة الا قطرة. اطمع في تخليد القطرة هذه كي لا ينطفيء المصباح. وكنت اغالط نفسي في تصديق اكدوبة «التخليد». اذ لا شيء يخلد في هذا العالم. وفي اللحظة تلك ادركت بالضبط كيف تحبو الاشياء.. وتموت!.

ثم خانتني تجربتي هذه، فلقد استيقظت. ومعنى هذا اني ما زلت حيا. وكنت احتضن الارض التربة القذرة. ملتصقا فيها بعنف وكأني اضاجعها. كان فمي منفغرا يطبق على لحم الارض العاهر هذه، يلشمها. وقد سال لعابي فتكون في موضع سيلانه طبقة طينية لزجة تشبه حيوانات منوية في حجم قذفة واحدة من احليل بشري. كان هناك، لا شك، جماع بالاكره.. او بطريق الايقاع في شرك الاغراء.. وتساءلت «من منا اغتصب الاخر او اغواه؟!». بيد ان استسلامي للارض وجذبها لي لم يبق على شك في ان الفعلة كان فعلتها بالذات. وعلى غير وعي مني لعقت بلساني جسدها العاري ثم روعت. كان طعمها تفلا وكرها ويثير الاشمئزاز. نكهة جيفة.. وصحوت تماما. ولعنت هذه المومس المبتذلة التي لا تنطفيء في احشائها شهوة. ابدا هذه الأحشاء متقدة كالنار. وهربت منها وانا ابصق الطين فوق بدننها القذر العاري ثم رأيت ثغرة في باب القضبان مليئة بعين ترمقني خلسة. وفي التو، انسدت الثغرة وتوارت العين. وتماديت في الصحو، فأذا به يطرُق ابواب خلايا اعصابي ومخي. ثم لم يلبث الشبح الاسود ان عاد وتجسد من تلقائه قدامي.. سأموت في احضان المومس الشمطاء هذه.. لا بد ستمتلكني عنوة لتغيبي احشاؤها في غرة من امر الدنيا والبشر التعساء..

وقهقه الشبح الاسود ثم صاح بي في صوت كالرعد

- «انت لها رغما عن انك!»

وارتجت امعائي في بطني وهتفت

- «لا.. لا.. امي تبحث عني.. وفتاتي تنتظرني»

- «انت غض يافع.. وقد عشقتك!»

- «وهي رطبة.. شمطاء.. سعالاة.. متسخة شعناء.. قذرة باردة مثلك!»

- «ستوسدك رحمها. وانت ستغيب في النشوة الجبارة.. لن يبق بعد احساس برطوبة او

بقذارة او برد.. الم تتأكد في تجربتك الاولى؟!»

الغيوبة!.. حشروها بكياي في السر.. شحونه خطايا.. ثم وصموني بها من دون ان يشعر

العالم!..

- «لا.. لا.. تلك لصوصية.. اكراه.. وانا اعزل وبعيد عن ادراك الدنيا»

- «قل ما شئت، فأنا من يصدر الاحكام هنا!»

- «أهو الموت اذن؟!»

وحلق بي. وأشار نحو الارض العارية المتهتكة بفجور لا يرحم

- «اختر!.. فأما هذه المولهة حبا بك.. او..»

- «او ماذا.. بحق الله تكلم!»

- «الكلمة!.. اعطهم الكلمة. وانح!»

ولهثت. وكان البرد يشبه برد ليل السرداب.. في «الطرف الاخر»

- «اذن، فالانسان شاء هذا!.. لماذا الانسان يشاء هذا؟!»

وفجر ضحكته السمجة الفظة في ارجاء وعيي.. وتشدق

- «انسيت انه حليفي وحبيبي؟!»

وتوليت عنه.. وتداعيت. كانت التجربة مغثية وفظيعة. وعلي ان اختار. وسقطت بين

جحيمين، فلقد كنت غمست لساني في عمق التجربتين وتذوقتهما. الطعمان صنوان. وفمي

ممتلي بمذاقهما اللاسع، السم. ابدا لا فرق بين الطعمين. واحترت.. ايها اختار؟!.. وكان

لا بد هناك طعوم اخرى قد لا تبعث في النفس شهية، لكنها حتما محتملة واقل مرارة..

وما دامت تلك الطعوم موجودة فأين عساها تكون؟!.. وبديهة ادركت، مرة اخرى، انها

تقع خارج هذه الجدران، فهي اذن في حكم اللاموجود. ومحال ان تدركها اذرعتي معها

امتدت. اني ناشب في انياب هذا البعيع. مضغوط بين فكيه. وببطء تزداد اطبقة الكفين..

وكان علي، اخرى، ان اختار، الى اي الفكين أنحاز؟!.. قبل ان ينطبق الفك ان علي تماما..

ورفضت قدرتي.. الظالم القاهر الذي لم اختره.. كنت ما زلت اقاومه من غير بديل،

واقاوم ايضا احتمال جنوني، فجنوني كان اعجز عن تغيير الاوضاع. وحضوره يعني

بالتأكيد اني سأستسلم، وسأمنحهم حقا، ما زال ملكي حتى اللحظة هذه.. وسأبدوا امام

العالم، فيما لو انتهت السر يوما، وكأني اخترت ما لم اختره ابدا.

اللجنة!..

كانت صرخة العاجز عن كل الاشياء. تعوي بها كل حواسي. كانت ذاتي انا.. تطفح بي ثم

تغمر هذه الاشياء الضالة. وانفصلت عني فجأة. واقتحمت البطانية المسدولة فوق باب

القضبان فسمعتها تعوي في الخارج. تتقمص صوتا يهدير. خشنا وغريبا يتعالى من فوق

اكتاف جلبة. تماما خلف البطانية. تعلو فتسب وتصخب.. تثقب البطانية وتعود الي. وانا

اتنصت.. يتسمر وجهي في كفن الباب.. والصوت يبتعد قليلا ثم يثوب. وكان ما انفك

يقذف ويسب، ثم كف فجأة كما لو كانت سكتة قلبية قد بغتته.

كان بصري ما زال يحط على كفني الداكن المسدل على باب الزنزانة، لا يهبط عنه.

وثمة حركة متموجة على البطانية، تشير بوضوح الى ان شخصا ما يستند على هذه

البطانية او يعبث فيها بيديه. كانت اللعنات قد ماتت، وابتعدت الجلبة الا ان البطانية

مكثت تترجرج.

مثير للاهتمام!.. في هذا الجمود اللامتناهي يتطفل شيء تافه على وعيي الواجب

المذعور.. شيء لم يحدث منذ سمعت النقرة تأتيني عبر الجدار الايسر. وسمعت ترديد

انفاسي مصحوبا بايقاع يضرب رأسي.. الصمت.. والارهاق داخل الصمت. والجلبة سكنت

في الخارج وتوقف اطلاق اللعنات، بيد ان الحركة المتموجة العفوية في البطانية كانت

تأتي في نوبات ليست منتظمة وتشدني قسرا نحو شيء في الخارج.. الباب!.

ثم تحرك شيء اكبر داخل هذا الصمت. وكنت اتوقع بالفعل ان يحدث امر ما. مع ذلك فوجئت نصف مفاجأة. فلقد إنزاح نصف البطانية عن نصف باب القضبان، بسداجة. وكان رجل ممتليء ربعة اسمر وفي منتصف العمر، ينتصب هناك. وكان بلباس مدني فاخر ويدخن سيجارة. وكان يرفعها الى فمه فتتدلى من معصمه سلسلة ذهبية تتوسطها ساعة، وخمنت انه من كان يغرق رجال الشرطة بلعناته، وانه قد كف عنها ليحلق بي. وتركت ذاتي تسقط في بؤرة نظراته وسهمت. وانفلتت لحظات مطبئة بفضول متبادل اخرس. وعيونه تتفرس بي تستعرضني المرة تلو المرة، والوجه الاسمر يعلوه استغراب، ثم.. يدعوني اليه.

واشرت اليه بأن يصمت، وتقدمت. وبادرني بصوته الخشن العالي
- «انت عراقي؟!.. وانا ايضا»

- «اخفض صوتك ارجوك»

طالعتني في دهشة. لم يفهم.. لم يذعن ايضا لرجائي

- «خلاف بسيط مع اصحاب في المقهى.. جاءت الشرطة واصرت على ان نوقف جميعا..

ابناء المومس لماذا لا يتركون الاصحاب يختصمون ثم يصطلحون بدون تدخل؟!»

- «الاجدر ان تبتعد عني.. حديثك الي سيثير مشاكل لكلينا»

- «هل انت من المغضوب عليهم؟!»

صمت عنه، فاستعرضني وازاف

- «قد قدودوا لك لحمك فيما يبدو»

- «ولا احد يعلم بمكاني!»

- «ماذا فعلت؟!»

- «لو ادري فقط ماذا فعلت؟!»

فاطلق مسبة ثم قال

- «لعلهم يتهمونك بقتل الله»

وسمعت وقع اقدام مقتربة فتريثت.. وذعرت، فقال

- «لا تحش.. كل الاوغاد موجودون في الخارج.. منشغلون الان..»

واستطرد

- «أقتلت الله حقا؟!»

- «لو ان هذا كان صحيحا، لكنت ازحت عن طريقهم اخطر منافس..»

ونفث دخانه، ثم نظر يمينا وشمالا

- «هذا صحيح.. اولاد القحبة.. كل منهم يحسب ذاته الله الواحد القهار»

وتناهى صوت مشبوه اخر، هرولت الى زاويتي وطلبت منه ان يبتعد عني. وامثثل في المرة

هذه، وأعاد اسدال البطانية. واقترب الصوت. وكان محمد يحمل لي طعام الظهر. وقال

محمد

- «جاءوا بموقوفين ويحققون معهم تباعا. احدهم كان هنا خارج الزنزانة وهو يتجول الان قريبا منك»

وتأكدت. وخرج محمد ثم اغلق الباب. وتفحصت طعامي. كالعادة. كان مثل فريضة مجوجة فارغة المضمون في الظاهر، وكنت احشو به بطني في اكرام طوعي. في الاونة الاخيرة استبعدت تجديد الاضراب. كان ضعفي يمنعي عن تكرير ذلك. وانا منغمس في امعاء هذا الضعف محتارا، ما زلت في بحث لا يفنى، عن اي بديل ينقذني من احد الموتين. وشرعت اؤدي فريضة ملء المعدة، وكنت في الواقع اكل لحمي. وتناهى الصوت الحاد الاسمر من خلف القضبان يهمس

- «هش!.. هش!»

ورفعت عيني. كان قد عاد. يظأ الحظر الملعون بحذائه اللامع، وانزاح الان من البطانية ثلثاها.

- «هل في وسعك ان تتناول هذه الجيفة؟!»

فتركت الجيفة وقمت اليه

- «هذا اهون ما في الامر»

وتفكر لحظة، ثم تنهد

- «وضعك هذا لا يعجبني»

ورمقته. وكان امعاني فيه يتوزع بين اشياء كثيرة.. اولها خوفي من ان يداهنا احد منهم...

- «اسمع.. اتريد ابلاغ اهلك شيئا؟!»

وتوقد عقلي فجأة

- «ليس لدي مشيئة اخرى.. لكن كيف؟!»

- «سأتولى الامر بنفسي.. فقط، اكتب العنوان لي.. وما تريد قوله»

تساما كأحلام اليقظة. كنت قبل لحظة اقلب الموتين بين يدي واحتار. كانت ايضا اضغات أحلام وردية تكمن خلف جدران قلعة الموت هذه، وعلى عيني عصاية اكثر خبثا من تلك الحاجة لبصار قريبي. الواقع كان فظا.. منع حتى الاحلام العسلية من ان تنسل لرأسي. وهمست اتساءل

- «أنا في حلم أم في علم؟!»

قال

- «اكتب الورقة في الحال. لا يوجد متسع من وقت. قد يفرج عني في كل لحظة»

يا للحسرة!.. وتذكرت اني لا املك اوراقا او قلما. غمغمت بحزن

- «ليس لدي قلم ولا ورقة»

وغضب الرجل المجهول

- «السفلة!.. افرغوا لي كل جيوبي قبل دخولي. ان قلمي الباركر الفاخر في حوزتهم الان،

قالوا ان حاجياتي ستعاد الي عند الافراج عني»
وتعذبت

- «ماذا سنصنع الان؟!»

اخرج من جيبه، علبة سجائر وقدمها لي
- «يمكنك ان تكتب على ظهر العلبة»

- «لا يمكن ان نكتب من غير مداد»

فلعنهم وهو يقول

- «والوقت يمر بسرعة»

ولمع في ذهني خاطر فقلت له

- «محمد!.. اين محمد؟!.. في وسعه ان ينجدنا الان»

- «اي محمد؟!»

فقلت مشيرا لطعامي

- «من احضر لي هذه الجيفة.. وهو لا بد يتجول في هذا السمر او ذاك»

فقال

- «سأبحث عنه»

مرة اخرى. وحدي. وقشة امامي تلوح لأول مرة، هي فرصة العمر. كنت اعلم بأن القشة هذه يمكنها ان تستبدل موقى الاقي بحياة اضحت مثل هبة يرضن علي بها قدري العابس.. ثم ها هوذا يقلع عن جهامته فجأة فيلوح لي بها، يسعر روحي ويحرك فيها رغبة قضت اجلها وأهيل عليها معي تراب الايام. وتشططت. كنت امد ذراعي نحو القشة.. لا ابلغها بعد. وكان بلوغها يتطلب شيئين.. ابخس واغلى شيئين.. اوفر واندر شيئين.. قلما وورقة!..

وجاء محمد، وبحذر متوتر ناولني من بين القضبان ورقة مجعوقة، ثم همس

- «ما انكد حظك؟!.. قد اخفقت في ايجاد قلم لك»

وكان قدري الذي كف عبوسه، ابتسم في رأسي على غرة، فالتسمت في ذهني فكرة اخرى

- «اسمع؟!.. ألدك علبة ثقاب؟!»

وبحث في جيبه ثم ناولني العلبة. وكان فيها ثلاثة عيدان. وراودني فرج عارم وطلبت منه ان يذهب ثم احكمت من تكفين الباب.

واستولى علي ما يشبه الرهبة. عدت الى اقصى الزنزانة في حرص يتوخى ان يصمت ما في الزنزانة، ثم اوليت الباب ظهري وفتحت الورقة المجعوقة.

كانت الورقة عبارة عن صفحة كراسة مسطورة بخطوط خضراء يقطعها في الهامش خط عامودي اهر. وكان عليها بقعة زيتية وقذارة.. يمكن ان محمدا قد جاء بها من المرحاض، او التقطها من فضلات طعام مسجون كان قد مسح بها فمه بعد فراغه من اكله.. لا يختلف الامر.. الا ان هذا ليس مهما الان. فلقد كنت استبق هذا الوقت الذي

انحرف عن مساره وفي بغتة فذة غير عادته فانتابته حيوية طارئة وطفق يعدو حين انا بأمس الحاجة اليه.

وحرقت عود ثقاب. وبفحم طرفه المحروق دونت نصف عنوان امي. وحرقت عود ثقاب ثان وكتبت به النصف الاخر. وانطفأ العود الثالث فور اشعاله فلم يكتب شيئا. واعملت فكري. كان لا بد وان يوجد مداد من اي نوع كان، كي توجد الفرصة.. ونفخت.. وبحث في ارجاء الزنانة فهنا حياتي لا بد تتستر في ثقب ما. وكان ثمة قوتي ايضا. الجيفة التي تدخل احشائي لكي ابقى يوما اخر بمجابهة الموت.. ورأيت هناك شوكة صدئة وكليلة الحد، الا ان الحاطر عاد وشع في رأسي. وتناولت الشوكة ثم اغمضت عيوني. وترددت. برهة قصيرة وثمينة، ثم انغرزت الشوكة في ابهامي. وفتحت عيني بعد اقتلاعي رأس الشوكة من اللحم. وتوقعت ان اجد حبرا احمر بيد ان ظني خاب. كانت الاصبع تنقطع الهما لكنها تبخل بالدمع. وعصرت الابهام. هل جف دمي؟!.. واعتصرته اخرى.. قفز قلبي بهجة. فلقد إنبثقت قطرة. وبذلت كل ما في وسعي كي لا تسقط تلك القطرة على الارض فتتبدد. كانت هذه اعلى قطرة حبر احظى بها طيلة عمري. وغمست العود الثالث بالدم وكتبت تحت العنوان «اني اواجه خطر الموت».. والقطرة نفدت عند هذا فرجعت اعتصر الاصبع بجنون.. وحصلت على قطرة اخرى.. صغيرة وحمراء.. وغمست العود ثم دونت «موجود في».. وانتهت القطرة الاخرى، فعصرت وعصرت. لا شيء بعد. استنفدت كل مدادي.. وثمة جرة قانية تتوهج وتحز في اعلى الابهام. وتألمت.. وسخطت. وسمعت طقات حذاء تتتابع خلفي. وادرت رأسي. وكان الرجل الربعة الاسمر يدعوني بضرب خاتمه الذهبي بقضيب بني صدء غامق من قضبان الزنانة.. وهمس

- «سيفرج عني الان.. هل جهزت الورقة؟»

وفي نصف خطوة كنت عنده. وبسرعة الضوء انحشرت الورقة داخل كفه

- «توجد كلمة ناقصة.. اكملها انت ارجوك»

قال بفحيح

- «لا تقلق.. سيكون كل شيء على ما يرام»

قلت معذرا

- «قد تجد بعض صعوبة بقراءتها.. فنصفها مكتوب برماد والنصف الاخر بالدم»

- «استودعك الله!»

- «حاذر من ان يكتشفوا الورقة، فتكون الطامة الكبرى»

غمغم وهو ماض

- «لا تهتم.. ستكون في موضع لن يهتدي اليه الشيطان بذاته»

- «استودعك الله»

وثويت بمكاني. يقرع قلبي جدران صدري.. يقوضني خوف كاسح، ثم سكينه تنعشني

وتعيد بنائي.. وعلى آماذ وجودي همسة مبتهلة لا تتوقف...

يا رب!...

الفصل الثاني عشر

ماذا يحدث؟؟...

في قوقعتي داخل الزنزانة عصفت ببقيني زوبعة افكار تغير اتجاهها كل لحظة وتورجيني بين الضد والضد، فلا أتأكد من شيء ابدا. ينكمش الواقع ثم يتهاوى في ثغرات انصاف احلام وانصاف هذيانات من شتى الالوان. فضية، وردية، وحمراء. ذهبية، شفافة، وسوداء. ويختلف الامر في الخارج. فهناك الانسان ينخرط في الدنيا، يسقط حتما في دوامتها. خارج الجدران هذه توجد حياة ومضاتها تعمي عيون الاحلام والاوهام. تطحن هذا الانسان وتذري فتاتاته في ارجاء الدنيا. ويدوخ بحياته الانسان، ينساق معها وفق مؤهلات جبلته الذاتية، فيبر بوعوده او.. ينسى.

هنا تختلف الاشياء. بعد الظهر استفحل جهلي بما يحدث. قد زايطني خوف الظهر، الا اني الفيت نفسي مثل قلب بصلصة. منطويا كنت داخل عشرات محاراتها وقواقعها، ومحال ان انزلق خارجها او انجو. وتشاغلني عن معميات الواقع بصراع مع الشبح الاسود. ولكن، ولسبب ما، واتتني قوة لا املكها، فهزمت في جولة، وتراجع عني منقطع الانفاس ليواري ذاته في جحر حشرات اخفقت في تحديد مكانه، بين شقوق وجحور وثقوب لا حصر لها تتواجد في هذه الزنزانة المصطبغة بشحوب يرقاني يطغى على حدة الرؤية ويصيبها بغشاوة. وصحيح اني اخفقت في الافلات من قلب البصلصة، الا ان المحارات المتواليه من حولي اوضحت مثل زجاج بلوري شفاف، فرأيت بوضوح قشرتها الخارجية «البصلية» اللون، واصطبغت احلامي بهذا اللون. كان يشبه وجنة الغولة الشاحبة يوم بصقت في وجهي. في تلك الساعة لم يخطر لي ان اتمعن في مرآة كي اتبين لون الطلعة المنغمسة في ماء النار، كان يبدو لي ان جمره خبيثة كانت تتوهج تحت الانف داخل هالة من كركم. قبلاتها كانت تترك الوانا اخرى. آثار شفاه فاقعة ملتزمة تضرب نطاق حصار حول قطعة من بشرة مضغوطة حارقة تسبح ايضا في لون حياء عذري. كانت تشبه

العضة. او كمواضع متخلفة عن كاسات هواء تسحب الدم وتجمعه في رقعة موضعها، تحت الجلد. اللثمة كانت في الغالب مصة. وهي تعرف الطعم اكثر مني. ابدا لم أسألها عنه، فلقد كنت ساعتها أغرق في افحامة ذاهلة مضطربة. ولربما كان ثمة بعض ملوحة او بعض لغوبة. ومصصت ذراعي كي اتأكد من طعمه. وكان تفلا او كطعم تراب وعفونة فيها مرارة حاذقة وقليلة الملح. ونسيت لون الثدي المشرع حذوي ليلة السرداب هناك. كانت الاضواء عتمة وتكاد تشابه اللون الذي يصبغ الزنزانة في ساعات الليل. ومما لا شك فيه، ان اليرقان كان يزيف حقيقة الالوان. فالثدي، يقينا، كان ينازع لونه شحوب الانوار. ولا بد انه كان قمحيا او في لون حليبه الناصع. وثمة الوان اخرى طرية في العين، مشكوكة فيها لا يمكن ان تبتهت وتحول. لون الشبح المتخفي الان في ثقب حشرات، هو بالتأكيد داكن بسواد الليل. الهوة داخل حدقات كوبي سوداء ايضا، لكنها ممتعة ومعصرة وأقرب الى زغب غراب ملتاث بالوحل. ولون النمش المنتشر في طلعة محمد كلون اول اغلفة البصلة. وشعر من اطلق في وجهي وحشه ساعة في إصرار اعرضت عن شرب بولي، لونه ألهي محض، ويشبه لون بولي هذا الذي ارقته بعد اربعة ايام من صوم. اما لون بشره وجه الثور المعصوبة عيناه، ساعة ثار على ضعته والقي عصابته عن ابصاره، فكان مزيجا من دهن السمسم المطروق بالعسل الاسود.. ترى اي الالوان تحملها الفئران البشرية؟!.. واحترت في هذا كما لم احتر حتى بمصريي المجهول.. وكنت اريد، في هذه الساعة ان اعرف.. ما لون الفئران البشرية؟!.. أهو بني غامق؟!.. أهو في لون الارض؟!.. أغبر، او طيني، ام هو في لون الموت؟!.. عثا.. وبموضع سؤالي والحيرة خلف جيبني، عاد والتصق بعيوني وشاح حداد المرأة المفجوعة وكان لونه قد حال من كثرة الاستعمال. والاحت عليها باستبداله بلون اخر.. زاه. وكنت اتساءل ان كانت الوان ذيل الطاووس ستلائمها، ام ان الوان حياة الناس خارج هذه الجدران الصفراء أكثر ملاءمة؟!.. وتعالت فجأة اصوات وبدرت حركات. تنحت الالوان. فالمرء يمكن اني يستبدل الوانه حين يشاء، الا ان هذا يحتاج الى حركة. عمل ما.. مثلا، جسد الغولة يتلألأ ببياضه في هذا الموسم اكثر مما يتلألأ به في الصيف. ففي الصيف ستتعدد الوانه رغم ان لون الثديين وما تحت منطقة الحوض سيظل كما كان. في الصيف تضحي السيقان في لون الزنجار. والوجه سيعاني من سمرة دخيلة محروقة. وكانت جوليت خ، تفضل ان يستر بدنهما كل ثوب صارخ الالوان.. قاني الحمرة او زعفراني الصفرة او في زرقة النيل.

كانت جوليت كذلك، على استعداد لأن تكره رغم التحذيرات. انتقمتم واحتقرت الاسباب. قطعت مئات الكيلومترات لتبول على نصب يستلهم منه الانسان بعض عدوانه، الا ان ذلك لم ينفعها بشيء بل وتفاقم عدوان الانسان، فأدخل جوليت السجن من دون بينة او تبرير. وغسل نايف او نواف او نوفل يديه الاف المرات ولا جدوى. فهو حين يحدق بهما ما زال يرى على صفحاتهما دم الضحية والجلاد وذاته. وفي رأس

محسن وشم يخفي لونه ثم يمضي بلسان ثرثار يروي قصته المموجة. وكان أديم جزر «واق الواق» لجينيا رخوا، وسماؤها لججا من ابخرة خضراء. وقلت لأمي «اني هنا.. فتعالى!»، وطبعت قبلة محمومة على جسد الغولة، فتركت فيه اثرا ورديا لا يمحي، ومسحت بذلك طبعة البصقة المرسومة في وجهي. حركات. وكان ثمة حركات لا بد منها لكي تستبدل الالوان. ومع ذلك فهنالك الوان لا تتبدل مهما فعلنا. ويئست من ثني عناد الالوان الثابتة هذه. وهي لازقة بكثير من اخواني الابرار التعساء. وكانت الوانا شفافة كالوان زجاج صاف معدنه طيب. وكانوا هم كزجاج هش الكسر ومع ذلك ما عتموا يقفون في وجه الاحجار. ولعبت مع روبين القصاب (دست) طاولة (محبوس)، ثم في لحظة استسلمت له. اذ كانت كل أحجاري محبوسة، وابتسم الرجل الطيب العملاق وقال

- «سوف تحبسني في (الدست) القادم، وسأحبسك فيما بعده، والواقع نحن الات الطاولة هذه.. نحن محبوسين من كل الاطراف»

وحين (حبسوه) وضربوه، استعطفهم في ان يتقوا في شيبته الله، فكان يستعطف احجارا صماء، اذ في هذا الموضع، لا توجد استثناءات. خالي، لم يحتمل اوضاع السجن فبكي كالطفل. حين انتزعوه من بيته كان يحتضن زوجه وينام.. كان هذا في اعماق الليل الموغل، والاطفال الستة منحشرين برمتهم فوق سرير بال. وانتهكت خصوصيات الانسان وحياته، من اجل البحث عن اسرار ليست موجودة. كان رجلا مبتليا بالاطفال.. لا يعرف من «اولئك» غير روبين القصاب، فقديما ابتاع اللحم منه كل صباح، ثم لاعبه «المحبوس».

وافتر على غير توقع ثغر عذب وتبسم. وقال الرجل الاسمر الربعة المجهول - «لقد اخرجت الورقة من تحت انفوهم العفنة»

وسألته

- «اين كنت تخبئها؟!»

ببشاشة قال

- «سوف لن تصدقني لو اخبرتك.. كنت اضعها داخل قلبي.. أفهمت؟!»

واستغربت

- «داخل قلبك؟!.. قل شيئا معقولا!»

فتمادى يضحك ضحكة المنتصر الغالب

- «قلت انك لن تصدقني.. لكني اقسم على انني فعلت ذلك»

وتأملت قوله ساعة ثم صدقته. ثمة اشياء تبقى مغلقة داخل القلب.. يستحيل استخراجها منه. وقال اسحق شرفنطخ حين الكل تأكد من ان الدائرة المغلقة غير قابلة

للفصم

- «فلنهرب»

وكان اصراره لا يتزحزح عن نبرات صوته، الا ان التصميم لم يخرج عن قاع القلب، في حين ان الكلمة ما عتمت تلبس لحما وعظاما في جوف عقول انهكها الداء الانساني، فحالفت الموت.

ومات الموت في هذه اللحظات. واتسعت رقعة هذا العالم. ومع الليل الهابط، كنت اخلع عني روحا هرمة مضطربة، فتعم حنايائي، ولاسباب مجهولة، سكينه جنين راقد في رحم امه. سكينه عذبة وحنونة. يغرق الطفل من ثم في احضان نوم ساذج وبريء. وترعرعت في باطن هذا النوم. وغدوت صبيا مرحا يعدو بطلاقة في انحاء جنة وارفة الظل. وتلد الارض، انثى متوردة الوجنة وعلى الخد الايمن تنام اخت بغدادية في حجم الفلّس. والانشى، فجأة تصبح خلفي. وأراها تعدو في اثري. وسألت - «ألم تتزوجي الرجل الربعة الاسمر؟»

وصفق فرح غامر داخل احشائي.. «هي لي!.. هي لي!.. اخذت بيدي. والبستان يصبح بركة، قاعدتها عسجد.. هذا جسد الغولة.. هذا جسد من لم تتزوج الشيخ المهذوم الاعضاء.. والوجه منقوش بالاخت البغدادية كالفلّس، لكن الشفتان تنكمشان والذقن يتكوز ثم يحتد. والجسد بض ربعة.. والجسد طويل ناهض.. ونحن نتجول بين ازقة ضيقة تتلوى في احشاء مدينة. والغولة زوجة الشيخ، التي لم يتزوجها الشيخ.. الاخت البغدادية، لكن الجسد فارغ.. والربعة المتوردة الوجه المرتعشة شفاهه الراجف ذقنه.. ضاعت مني فجأة. في خطوة عملاقة نفذت وحدي الى حي قصور فخمة. وتسلمت الى داخل قصر. في واجهة القصر «طارمة» تسندها اعمدة في اعلاها اقواس ذات زخارف حجرية. لم اقرع الباب.. لم افتح البابين بل كنت اطوف بين حجرات اعرفها.. ووجدت هناك «ياسين».. صديقي من عهد طفولتنا. قابلني ببشاشة فسألته - «كيف جئت من بعقوبا؟»

وكنت اعلم بأن هذا البيت، بيتي، أو بيته، أو بيت اناس غرباء.. لكن ياسين حذرني من الشرطة. ادركت في الحال اني اجتزت حواجز محظورة كي اصل بيتي في عهد طفولتي. وشعرت بأني مطارد.. تلاحقني اعين لا مرئية في كل مكان وذعرت. رنت من ثم، اجراس البيت بصليل همجي مزعج.. وياسين قال - «لقد وصلوا، لكني سأخفيك عن الانظار»

وكان الوقت ليلا. والمطر يهطل في الخارج. وانا هلع خائف.. اتساءل، كيف امكنني ان اجتاز المحظورات وأصل في قفزة واحدة، بيتي؟!.. وتمسكت بثياب ياسين.. وسألته، وتكاد روحي تزهر من فرط الرهبة - «كيف سأعود.. للكوخ هناك؟!»

لكني كنت بغنى عن رد ياسين. اذ لم البث ان غيبت نفسي في سرعة خاطر. ورجعت لاهلي يسترني رداء الليل..

واحتدمت اضواء فجأة. وفتحت عيوني ورمشت. كانت تعميني الاضواء. /تجتاحني

رعدة جبارة طاحنة وتدمرني.. لم استوعب مما يحدث الا الرعب والرعدة.. يأتيني صوت
جلبة من عالم اخر.. تبهرني الانوار الكشافة.. تعميني. الاضواء في الزنزانة كثيرة وقوية..
ليست ابدا ما اعهده.. مصابيح تبعث وهجا فتاكا يحرق ابصاري، وابصاري تهرب فترتطم
بمصابيح اخرى في جهة اخرى.. وانا اصبحت مجرد رعدة كتيارات كهرباء وأدك كياني
بنفسي

- «قم!.. قم!.. قم!»

متواترة في اسماعي.. جوقة كاملة من رجال الشرطة تأمرني بهذا في اصوات غاضبة
وحشية. تركل بدني المتمدد، رؤوس احذية غليظة وبساطيل

- «قم!.. قم!.. قم!»

ثلاثة مصابيح فتاكة الأضواء مصوبة الى عيني. والاحذية تركل جسدي. والصوت الامر
القاصف هذا ابدا لا يتوقف. اجفاني ما عتمت ترمش. احاول ان اتغلب على رعشة كل
كياني.. اتمالك خفقاقي ولهائي. ونظرت فوقي.. وعميت تماما. وازدادت رعشة روحي
وبدني. وهبطت وسط ضباب النور المعشي الى مستوى بدني المتمدد.. واجلت انظاري
حول حلقة من سيقان زرقاء.. كانت السيقان تطوقني.. والاقدام تلکم اضلاعي..
والاصوات لا تنفك تصرخ بي

- «قم!.. قم!.. قم!»

رغما عني قمت.. ممثلا كما في الاحلام. من قاع وعيي شاهدت ثلثة شرطة.. ورأيت وجوها
عابسة كالحة كالليل.. والانوار الكشافة.. ومشمعات زرقاء تقطر ماء.. وكنت الهث. لا
ادري ماذا يحدث. وكنت مسحوقا في طاحونة رعب. ثم سمعت صوتا خشنا يأمر
- «اخرج!»

امتثلت. كما في الاحلام كذلك. بأوامرهم اجتزت الدهليز.. اجتزت ايضا المرحاض..
قذفت بعدئذ الى الساحة المفتوحة في اقصى الموقف.

- «انزع ثيابك!»

كنت اتوغل داخل مجاهل الكابوس الاخر. ورأيت الليل والبرد القارص، برد ليل
السرداب النافذ في كل خلايا الكون.. والمطر وهو يهطل بشراسة، وشخوصا زرقاء اللون
تقتحم المطر بمعاطفها الدافئة الواقية من البرد والسماء. والرعدة وهي تسعى في حلبة
تمتد بين شعري واطافر قدمي.. ثم تنشطر قسمين فتغدو رعدة رهبة ورعدة البرد
الظالم

- «اخلع ثيابك!»

قاومت كلتا الرعدتين وانا اقلع عني ثيابي في ستر الليل، بين يدي غيث يتوالى بفضاء
منجمد حالك. آلة في قبضة الكابوس.. بين محالب واقع صيره «الانسان» كابوسا.. انحرك
كيف يشاء ابطال هذا الكابوس.. احيا بجوانح ببيع.. ماذا يريد هذا البعيع؟!.. في صمت
أسأل.. وبصمت اتلقى أمر صوت أزرق متوحش

- «اغسل جسدك النجس يا بن الكلبة!»

لا تعتقني ايدي الشيطان وتورجحي كالسعة. لا اقوى على استرجاع قوة نطق لساني المشلول، كي اتساءل «لماذا في لحظة مجهولة من ليل اظلم تحت وابل مطر تتجلد فيه كل الاشياء، الا رعيي وهمجية هذا الانسان؟!» وهوى سطل صقيع فوق كيان، وهوت فوقه ايضا الصاعقة الانسانية

- «ادلك رجسك يا بن القحية!»

آه لو تهدأ الزوبعة الهابة بكياني.. لو امسك بزمام الرعدة المجنونة.. لو استجمع اشتات ذاتي المنتشرة في آماد الكابوس.. شططا. كل كلمة كانت قدرا، ويدي كشطة صابون تنذبذب وتماس اشياء اخرى تنذبذب. كان كل شيء غير ثابت.. يتحرك.. ينساب. يرقص، ثم، الاف خلايا من رقصات همجية داخل بدني على وقع دقات دمامات في طقس تقريب انسان لآله شير. في رأسي يضطرع الممكن واللامعقول.. عقلي يخز صريعا.. يخبط في عشواء ادراك نصفني جافل لا يفهم.. يهرب في لا مهرب.. يتعثر في حقل رعبه الجبار، حتى يعثر في زلته الكبرى على طرف خيط واه. عندئذ تتراكم حذو جنوني خيالات.. تتشابك انصاف احداث.. انصاف احلام.. انصاف حقائق.. وجميعها يغلفه الهول الاعظم..

وانهار سطل ثلجي اخر فوق بدني المتشنج المصروع..

- «ادلك يا بن المومس!»

ودلكت.. تلقائيا. وتشبثت في طرف الخيط. كانت في عقلي قذارات تتراكم، عوض ان ينظف هذا العقل.. والرجس يتكون فيه، كالبقع المائية الزبدية الراسية فوق مستنقعات الغيث تحت اقدامي. كلال.. وهربت من الرجس، مرتدا على اعقابي. اليوم الاول في «الطرف الاخر». الليلة الاولى في نقطة جمرك. يوم احد كان. وأبو فيصل مأمور النقطة يقضي اجازته الاسبوعية في عاصمة «الطرف الاخر».

وانهار سطل ثالث. قاومت التصاقه الفكين المرتجفين. العقل يتراقص رقصة ديك مذبوح. في نقطة الجمرك كلموا المأمور بالهاتف. جاء «ابو فيصل» في منتصف الليل. خرقة داخل فمي ميتة لا تنبس. روحي كانت تهرب مني. وهي قطرات مثل قطرات هذا الغيث. حاولت ان يتصلب لساني من اجل ان يسعفني في رفع شكواي المخنوقة الخرساء.. لا جدوى.

يوم احد في منتصف الليل. وكنت بجوار قريبي نرقد في مكتب «ابي فيصل».. وانهار سطل فوق الجسد المهترز المنهار. وفقدت حتى لهائي.. لكني لم افقد طرف الخيط. وفتحت عيوني في نور هاديء. وسمعت «ابا فيصل» يهمس لدركي من خفاء النقطة - «أتعشى الولدان؟»

وانهار مع الغيث وتيارات الرعب، صوت كاسح - «لماذا توقفت؟!.. ادلك حتى ينزاح رجسك يا بن الفئران»

وسمعت الدركي يجيب «ابا فيصل»

- «نعم سيدي. اكلا معنا ثم ناما»

وسمعت «ابا فيصل» يهمس وهو يتحسر

- «يا للطفلين المسكينين.. دثارهما غير كاف. لا بد من ان ينعما بدفء البيت»

وفرغت من غسل جلدي. انهيت غسل شطايا وجودي.. لم يكن ثم دفء البيت، ولا

دفء الزنانة. وتحاملت على الخرقه الراقدة خلف اسناني المصطكة. وفححت بصوت

محتضر متقطع

- «سأموت من البرد.. سأموت»

وقال ابو فيصل

- «ضعوا فوقهما دثارا اخر»

وقال الصوت الازرق الظالم بضراوة

- «لو مت، فستقيم الحشرات عليك اعظم ماتم»

وكان يضحك.. وانا اموت. ووافقته. واحسست بفروة شاه تسقط برفق فوق جسدنا.

كان ثمة لمسة دفء يصنعها انسان ما.. وهوى سطل خامس كالموت تماما. وتحدرت

الرعدة في قبضة برد لا يرحم.. في قبضة الانسان. رعب مكتسح في برد مقتحم مع لمسة

هلع مقرورة يصنعها انسان اخر ما..

- «الرحمة.. لا احتمل اكثر!»

- «اغسل الان ثيابك!»

- «رحماكم.. دعوني افعل هذا تحت اي سقف»

وتلقيت صفة

- «لا تتكلم.. افعل ما يطلب منك»

- «وماذا سألبس؟!»

- «افعل ما يطلب منك»

- «بماذا سأنشف جسدي؟!»

- «افعل ما يطلب منك يا بن المومس»

لم تتعطل الآلة بعد. لكن الإنسان عاد وتلاشى. اليا نفذت ما طلب مني. كنت اتساءل

حسب. اتوسل.. ابحث عن رحمة بين اشلاء عدالة ميتة متفسخة الجثة. ومرة اخرى

يمثل شخص اخر في الذهن المتمزق الملفوح.. يدعى «ابو فيصل». دثرنا يوما في

نقطة جرك «بالطرف الاخر» بفروة شاة كي ننعم بالدفء كباقي الاطفال..

في اعماق اعماق الكابوس غسلت ثيابي. بفضاء مفتوح تبكي السماء فيه على اشلاء

الرحمة، فتهل عبراتها مدرارا. ويثور هلع داخل قالب ثلج لا يمتلك ذاته. يمثل قالب

الثلج المتحرك مرة اخرى، فيعتصر الثياب المغسولة بقوة ضغط غير مطاوع. ثم

تجيء الرحمة فجأة يحملها صوت لا يعرف معنى الرحمة

- «اخرج الان»

تتحرك الالة. ينقطع الغيث فجأة. كل شيء يخذل الا الرعدة.. فهي تهيمن.. تتجبر.. تغدو سلطانا يتربع على عرش العالم

- «البس»

ومع الامتثال الاخر هذا، عاد غيث الدنيا يهطل فوق نصف وعي رطب ومكفن بشياب مغسولة. واختلط البللان. اجتاحتها الرقص الهمجي المتواتر على ابقاعات الدمامات الضاربة في طقس تقرب الانسان لرب ظالم. وحلمت بفروة شاة. كانت موجودة في «الطرف الاخر».. عند «الاعداء».. خلف حاجز من دم.. وتوارت في اعماق ضباب نوبة من نوبات صرع المنطق المجنونة.. لم اعثر الا بالزنزانة. كنت فيها اقاسي وحدي عيث الكابوس الضارب بكل مقاييس العقل. وتجاذبي، مرة اخرى، انصاف حقائق متداخلة في انصاف اوهام. تتقاسمني ايضا، جيوش خوف، مع جحافل رجلة.

ثم مع الفجر هدأت. وكنت ساخنا اتلفع بشياب رطبة. تصرخ في اعضائي اصوات معتوهة لالام حادة تنهكني. وكان في امعائي سكاكين، تفرم تلك الامعاء وتقطعها اربا. وكانت بي حاجة ملحاحة الى المرحاض. وهناك تفتق من جوفي مزارب طفق ماء اصفر يهطل منه كافواه سماء عابسة تتقيأ سوائلها على ارض الانسان.

انفتحت من جوفي قرب كابوس الليل. وكانت امعائي تسمزق. تتلاحق نوبات اسهالي المائي وتدمرني.. تأخذ اخر طاقاتي معها، ثم تلقيها في جوف المرحاض. اني اخيرا، اجابه نتائج لعنة كابوسي الليلي.. في جسدي وبروحي اجدوها. اما الكابوس نفسه فقد كان رهيبا حتى اني لم افق على استعادة تفصيله. كان مجرد التفكير بهذا يدك كياني.. ويقتل جسدي الواهن قتلا لا ريب فيه.

ثم تساءلت عما يحدث؟!.. ولماذا يحدث؟!.. وأي شيء يبرر هذا الذي يحدث؟!.. وخرس العالم عن اسئلتي، فلم اتلق ردا. لكني وبيقين لا يتزعزع، ادركت اني لم اكن «الحالة» الوحيدة في هذه الدنيا. لقد كان ثمة «ملايين» من حالات تعسة تشبهي، منتشرة على وجه الكرة الارضية، وتمر بتجربتي الذاتية سرا او علنا.. وتموت بمشيئة انسان اخر، كي يرتفع بعض انسانيات الى عرش الله، او لمجرد ان تشعر تلك الانسانيات بالراحة. ولأول مرة، تلبسني مع خوفي وضعفي احساس ما. غير محدد. وكان يحمل بغضاء غامضة غير محددة ايضا. لا تقصد اشياء بالذات.. تبدو تماما مثل ملابس السقطة هذه، ولا منطقيتها الفذة الجبارة.

وفي قلب السقطة فقدت كل هوية. هوية الانسان والحيوان.. وهوية الاحياء والموتى.. كل الاشياء الموجودة. كنت اذوب في جوف هذا الكابوس. اتوارى تماما. ثم عاد الي ظله فغمرني بالشك. وشككت، أول ما شككت، بوجود دنيا الانسان البشعة. وبدا لي في لحظات مكوثي مع الظل، اني قد اجتزت هذه الدنيا الى اخرى بلغت فيها البشاعة ما لا يمكن ان يتصوره عقل مخلوق ارضي، لكنني كنت وقعت في خطأ الأطفال الاغرار. خطأ لا

يسقط فيه الا من لا زال يؤمن بمميزات «انسانية» تملك ان تقيل عشرة «الانسانية» الملعونة، وبخطأي هذا الاحق، عدت اتمسك بوجودي.. احطى بحياتي.. واهاب الموت!

يدفعني الحافز الغرير هذا.. يحفزني خطأي الاعظم.. فطلبت طبيبا. وجابهت رمقة «كوبي» المحتقرة اياي، وسمعته يجزم

- «انت لست مريضا. انت فقط تحتال على الخطر المفروض عليك وتريد محادثة الناس» ومضيت في اصراري المرهق الواهن

- «اني مريض. واريد طبيبا ليعالجي»

ورويت لطبيب الموقف قصة الليل الماضي، والمغص المنهك الناجم عنها. وفحصني ثم ظل يرمقني في ريبة. لم ينطق حتى كلمة.. تركني اخيرا في جهلي المطبق.. والدهشة. مكث مريض يذويني وسط كتمان لا مكترث آثم. وبدا لي اني امسيت بالفعل فأرا يسكن في غابة مكتظة بقطط وحشية، فيخشى حتى من اظهار رأسه. لكني، وبفعل خطأي الاعظم وملابستي، لم اتنازل عن التشبث بحياتي. وبآخر طاقاتي رحت اسائل الشرطي الاشقر، بهدوء وتوسل

- «قد فحصني الطبيب، فأين الدواء؟»

ورمقني الاله الاشقر بنظرة قادمة من ملكوته القابعة فوق الشمس

- «أي دواء؟»

- «اني ما زلت اعاني مغصا واسهالا منذ يومين»

قهقهه الهى الاشقر يسخر مني ثم قال

- «انت واهم. وما تعاني منه لا ينفعه الدواء الذي تفكر به»

واستغربت

- «ماذا اذن ينفع دائي؟»

واكتسب وجه الله الاشقر، ظلا شيطانيا داكن اللون، وقال بنبرات حقد اسود طاغ

- «لقد شخص الطبيب داءك.. وليس له اية علاقة بما تشكو منه»

- «ماذا قال؟»

فتصاعد صوته الالهي الشيطاني بفضافة

- «انت يا عزيزي مريض في نفسك.. وما تعانيه من اعراض في جسدك انها تكشف عن

جنون خبيث كامن في رأسك»

وجننت بالفعل

- «اسهالي جنون؟!.. كيف تلغون حتى المنطق وامامكم العلة والمعلول؟!»

- «عم تحدث؟!»

- «ثيابي مبللة ما عتمت حتى الان. أنسيتم الذي اقترفتموه قبل يومين؟!»

رمقني من خلف الشمس. وبرود متميع مبتذل غمغم

- «أنت تهذي.. لكني لا استغرب بالطبع هذيانك. اني واثق من تشخيص الطبيب الذي فحصك.. انت مجنون يا صديقي.. وجنونك هذا خبيث ومستعص»
روعت مما قاله. عقلي وقلبي سقطا مع كل طاقاتي في فوهة المرحاض. وهناك، بامعاء تتمزق ذاوية محتضرة ادركت تعدد اصناف الميتات. وليس ضروريا ابدا ان يهدم الجسد لكي يتحقق الموت. كان ثمة موت ابشع من ذلك الموت الجسدي. موت يحدث في الداخل، ويحيل الكائن المتحرك آلة بلهاء تمشي على الارض من غير وجود ذاتي. وعلمت ان الجلادين قد وجدوا هذا النوع من الموت.. واختاروه لي...
عندئذ، لم يبق أي خطأ يتستر في اصراري على حق حياتي. فما دام هناك اصناف ميتات واصناف موتى، فلا بد ايضا من ان ثمة اصناف احياء.. واصناف بشر. ومن اجل صنف البشر الاخر، قررت ان اتصدى مرة اخرى لهذا الصنف الباحث لي عن موتى، بأي وسيلة. وكان يجب ان أبدأ بمقاومة «مغصي» وعلاجه من غير دواء.
وقهرته.. رغما عن هذا الصنف البشع الجوهر... من هذا «الانسان»؟...

الفصل الثالث عشر

وانتقضت الوتيرة في أحد الايام.
جاء شرطي وأنفتح باب الزنزانة. كان الوقت ضحى. يعن لهم تعذيبي في أي وقت. بيد
ان الشرطي قال بصوت جاف
- «لديك زيارة. أخرج!»

لا شك قد أخطأ. وانا جففت في القالب الذي وضعوني فيه. أتخذت الشكل اللا بشري..
شكل الفئران. لا تحظى بزيارات هذه الفئران اليابسة المحنونة. وتفحصت الشرطي في
ريبة. اضحى سوء النية جزءا مني. اذن، لا يمكن ان توجد الاخطاء هنا، الا عمدا.
وأستنفدت التعذيب الجسدي بشتى ألوانه.. عشرات ألوانه. ودشنت على ايديهم أحدث
ابداعات الانسانية في محو ظلال البشرية. كنت حقل تجارب لاستنباطات وسائل ابادة
الحشرات الضارة والاعشاب الضارة.. وجراثيم الطاعون. فهل جاء دور بث ألغام
الاوهام في عقلي.. خلق سرايات لي، كنت قلمت اظافرها منذ ادركت حقيقة الاشياء؟!
وانتقضت الوتيرة في غرة من أمري. صاح الشرطي
- «تحرك!.. ألسنت معنيا في رؤية أمك؟!»

قد جن شيء في هذا العالم، او انهم ماضون في درب تحطيم صوابي. منذ تلك الليلة
تعلمت الا اهرب. لا شيء اخطر من ان تغدو الاشياء الكائنة انصاف حقائق او انصاف
اوهام. كنت يقظا يا اماء ولست كتلك الليلة منتشلا من قلب حلم وردي رغم ما فيه
من رهية. في تلك الليلة أودعوا في الحلم كل اراداتي ثم أخذوني. الان أتشبث بزمامي..
أملك نفسي. أتمتع بالشك العارم بالاشياء. يمكنني احباط الخدعة العظمى. وقادوني الى
غرفة «الاستقبال». لم اتشرف برؤية حقارة هذه الغرفة حتى الان.. لم اتلق زيارة. فيها
مصاطب وكراس خالية قذرة.. لكن الغرفة مملوءة بك، وبشخص اخر احمر الشعر ويجلس
بجوارك. شاهدتك. شاهدت حقيقة كنت وضعتها بعدد الاوهام. وضعت. وفي لحظة كنت
أشذب من عقلي. بمكاني، او بمكان العقل، حلت فورة عاطفة جياشة ممهولة بمشاعر
تتضارب. كيف الحزن والفرحة يتعانقان بونام؟!.. ببساطة معقولة يحدث هذا. كنا

مرتمين الواحد في احضان الآخر. وكلانا يبكي. كنت ابكي من اجلك وانت تبكين من اجلي، ولا ادري ان كان كل منا يبكي لنفسه ايضا، ففي تلك الساعة، العقل تولى وتفجر بركان. تولى ايضا الرجل الاحمر الشعر. كان رزينا محتفظا برجاحة عقل. وبأدب انسحب الى غرفة اخرى، حتى يعود عقل كلينا لرأسه. ورويت لي. حقا. لم تهذ أذناي. كنت تأتين. قاطعة مئات كيلومترات. اربع ساعات في سيارة باص.. اربع مرات. وتوسلت بهم.. كنت اسمعك من اعماق قبري في الزنزانة. مرة؟!.. اثنين في الواقع. وأنت حملت حزنك اربع مرات وقدمت، وأعادوك خاوية اليد والقلب، مخففة مهزومة. وأعادوك، من غير يقين. وضربت قلب الطاولة الدكناء بقوة.. اللعنة!

هي، كفكفت الدمع وقالت

- «كنا نضرب في تيه. ثم فجأة وصلتنا رسالة. وحين قرأتها طار شعوري.. قررت أن اقيم الدنيا»

بل الافضل لو نقعدها. أفلا يحدث ما يحدث الا لأننا أقمناها كما زعموا؟!..

- «أذن بر بوعده... ارسلها»

وتمسح على وجهي، وتساءل

- «أكان صديقك؟!»

- «أبدا. لم التق به، الا لحظات. كان مجرد عابر سبيل»

وتأملت ما حدث ثم استطردت

- «ورقة ملتقطة من مرحاض او من صندوق قمامة.. تحوي بضع كلمات مكتوبة بدم ورماد»

ورمقتني بغرابة

- «ماذا تقول؟!.. اسم الله على عقلك»

- «أبدا. لم ارضخ لمشيئتهم. ما زلت بكامل قواي العقلية»

كنت تشكين بهذا. وهناك سلة مطبنة بفواكه وسكاكر ومخبوزات. وسألتك محتجا

- «هل تعتقدين اني سأكل كل هذا؟!.. لماذا هذا التعب يا اماه؟!.. حسنا.. سأقتسم

السلة ومحمد»

كنت يوما طلبت ثيابا له منكم. لكني قبل ان استفسر عنها، امتدت يدك نحو السلة والتقطت منها خطابا داخل مظروف. وبشوق اختطفته منك. باللهفة في رؤية انفس مداد في العالم، من بعد ان أدى واجبه بكفاءة. حين استخرجت الورقة من داخل المظروف دهشت. هذه ليست ورقة المرحاض.. هي ناصعة بيضاء وكبيرة. وعليها رسالة طويلة ومكتوبة بعناية.. واستحضرت بمخيلتي ببعض رثاء عيدان ثقاب وقطرات نزره من دم يجري بعروقي. ثم قرأت عن نفسي. كنت برسالتك اعاني اخر نزع.. ودماي تنزف وثيابي مزقا قدرة وهلاهل.. اني هيكل عظمي تكفنه اسمال.. اني انسان مقذوف داخل صمت لا ينفد.. كنت مرسوما من وجهة نظر عابر سبيل.. كنت برسالتك موجودا، ربما بموضوعية

لم تتيسر حتى لي نفسي.. ربما ببراعة ضمير حي هاله الموت المحقق بي.. او ربما بشيء من مبالغة ضرورية لتحريك اشياء.. بل كافية لأقامة هذا العالم والهباب ضميره. وتركت الرسالة قبل الانتهاء منها وغمغمت باستغراب

- «لقد كتب الرسالة بنفسه!»

كان ثمة سوء فهم، وانقشع الان. واطمأنت على عقلي، وتنهدت وانت تقولين - «أذن.. فالخير لم تفرغ منه الدنيا بعد»

الان حان اوان استذكار اناس تعسين بررة. كان الرجل الفارع يقف في اول الصف. وكررت طلب الملابس الداخلية له.. أو أني اطلبها للمرة الاولى، ما دام طلبي الاول، لم يبلغكم ابدا. ثم سألت عن ذي الشعر الاحمر. فقالت ببعض عزاء - «انه محاميك. وكتبنا ايضا شكوى عاجلة لوزير الشرطة»

وقال محاميّ بدهشة لا تخفى

- «غير معقول!.. لا يمكنني تصديق هذا»

فتمسكت بروح دعاية كي ابعد عني خوفي الكامن

- «هل أبدو في اخر نزع حقا؟!»

اعترضت والذي مستنجدة باسم الله، اما هو فتنهد ثم قال

- «سأطلب مقابلة عاجلة مع حاكم المنطقة العسكري»

قلت له

- «لكنني استحممت وغسلت ثيابي بمياه الغيث الهائل»

فأصر

- «هو ذاك.. لا بد من اجراء مقابلة معه. هذا وضع لا يشمل البتة»

وتهكمت على الدنيا

- «هل سوف يصدقني وانا في عرف معظم الدنيا مجنون؟»

حدق بي، في استغراب، فأردفت

- «هذا اخر ابداع من ابداعاتهم الفذة»

كنت احده وهو صامت. ظل يهز رأسه، ويغضن طلعة امست في لون شعره. واخيرا عاد يقول

- «سأبذل ما في وسعي لتتم المقابلة في الغد- ان امكن»

وكان سؤال ما زلت اطرحه على نفسي يزعجني، وكان ينفلت تلقائيا من حلقي ليعبيء اسماعه

- «ولكن لماذا يفعلون كل هذا؟!»

وتساما كما افحمت نفسي والدنيا، أفحمت الرجل الاحمر الشعر بسؤالي. وكان من الواضح اني اثير معضلة فلسفية عويصة الحل. ولكن هذا الحل، كان في الغالب، يكشف لي عن اجزاء منه تباعا وفي جرعات. ومحاميّ افحم مستاء أو مرتبكا عند قاعدة جدار

قانوني جائم مثل حجر عشرة موضوع في درب تحليق العقل في بحثه عن اسباب ومبررات موغلة في البعد خارج حدود هذا الشيء المسمى عدلا. فالعدل الكائن خارج قلعة الانسانية هذه، سطحي وناصر عن ادراك دوافع الانسان، بيد انه وعلى الرغم من هذا، ناجح حين تواتية الفرصة لممارسة صلاحياته، واثبات وجوده. وازداد الرجل الاحمر الشعر حماسا للتعجيل بمقابلة الحاكم العسكري، ممثل هذا العدل. وكان مضطربا الا انه افلح في القاء بعض كلمات تحمل سمة التشجيع، في اسماعي. وبأكثر من الحدس المطلق، كان يتبين لي ان الرجل قلق واجف. ولعلي في تلك الساعة كنت اشجع منه. لقد كان لقائي اللامتوقع بالمرأة الارملة المتشحة بالسواد، يشحني بطاقة غير محدودة، بأضعاف طاقاتي التي القيت بما اثر منها في المرحاض. مع اسهالي، حتى كنت توهمت، ان ما ضاع مني، من طاقاتي هذه لا يمكن تعويضه.

ورجعت الى الزنزانة مخلوقا اخر. خفيفا، وترفرف في اعماقي فراشة فاتنة الالوان. وانا محمول على اجنحتها الرقيقة مع احساس طيب. وكنت اتمعن في كنه هذا الاحساس لأسميه، ثم علمت، وببساطة، ان هذا شيء ينتاب المخلوقات احيانا ويسمى سعادة. وكان هذا الشيء غريبا عني ومنسيا. ثم فجأة، في غمرة اطول ليل، يبرز هذا النور القادم من عالم اخر. والامر غريبا كان. في الزنزانة الخاصة المتميزة هذه. حيث في السر ترعرع كوابيس وتعيش شياطين ويتخثر شبح الموت الاسود والقوقعة تنغلق على مخلوق لا مستقبل له، وتمارس انسانيات ربانية، والفأر يتمرغ ما زال، على اشبار الرقعة التربة العفنة الرطبة، لكنه يحيا مع ذلك كالانسان مع فرح داهم وحقيقي؛ ثم لأول مرة تفرج على مصراعها بوابات الغد، والماضي يهبط للاغوار عبر خروم في غربال.. الماضي..! ليس بأكثر من ساعة الان. قريبة طرية وملتصقة في الفكر، يعجز الزمن عن ابعادها عني. ساعة تشع على المستقبل بضياء. تخلق فيه احداثا تبدو وكأنها كانت. والرجل الربعة الاسمر المجهول يلوح كملك. قالت امي وهي مرهفة متأثرة بفعلته اللابشرية

- «لا شك كان ملاكا جاءك في سمة انسان!»

قلت لها

- «كان انسانا يحمل طينة لا انسانية»

وقلت كذلك، اننا نشقى بطينتنا هذه اللانسانية.. وبالحب..! ولما لم تفهم، عدت الى المصطلحات المتبعة المفهومة. فصنفت لها تلك «الانسانيات». كان لا بد من استعارة الكلمة النعسة هذه، ثم تقطيعها اجزاء كي يتحقق التصنيف وفق مفاهيم بشرية لا تتغير. اذ ليس ثمة في هذا اجماع. حاولت ان اشرح ايضا كيف اني ألت الى وضعي هذا بسبب انسانيات مؤمنة بمبادئ «اخلاقية» تفرق بين بني الانسان، وتدين بولائها لطرف دون سواه مدفوعة بالانسانية الصلبة التي لا يمكنها ان تساوم. وما دام

هنالك اطراف وولاء للاطراف، فثمة ايضا انانيات محدودة ينبثق عنها كراهيات غير محدودة وبغضاء. ثم يوجد المارقون كذلك. النابذون للبغضاء بلا استثناءات، او من بالوا على الحاجز الملعون او اقتحموه ولو من دون قصد. اولئك، تلعنهم «الانسانية»، تمسخهم جرذان وتسلبهم حق العيش.

وعجزت عن ان تفهم مرة اخرى، فقلت لها

- «هذه اشياء قد لا تدرك الا بالتجربة البحتة»

وكنت فرحا. كان في الدنيا بشر ما زالوا غير منحشرين في فجوات المجاري العامودية. وكان فيها من لا زال يحشم نفسه عناء تسطير رسالة يشرح فيها ظروف شخص اخر لا يعرف عنه الا انه يحتضر داخل بوتقة الانسانية المعروفة، فيحاول انقاذه من براثنها بشكل ما. ووضعت هذا النبل بجوار حقارة تصرف قريبي بعد سنوات من حب غير مشوب بالغايات.. حب من اجل الحب، يقابله ضعف تعس لا متناه يخضع لاوامر بغضاء من غير اسباب.. بريق الزيف الانساني القاتل.. اوهام طافحة معتوهة طامحة في تحقيق وجود انسانيات «عادلة» عن طريق محق انسانيات آثمة ضالة موصومة بخطيئة الحب. وأحببت احدي شقيقاته ثم بصقت في وجه الحب. ومرة أخرى لم أفهم هذا، بيد ان الفرحة ازدردت سوء الفهم. في معدة تلك الفرحة ضاعت كل ملابسات العالم.. الماضي نقي من رجسه والحاضر امسى دربا للغد. ثم يبرز هذا الغد وهو متحرر من هلعه وغموضه.. يسرع من دون أكبال في قدميه.. واللحظات تغذ السير معه. سقطت من ايديهم. كفت ايضا عن ان تسقط في دن الحب. وهي ليست ملك احدنا بعد. بل هي ملك الفرحة والدنيا. اذ مات السر. اندحر الشبح الاسود. وسخرت من هذه الارض المومس الشمطاء. كانت لا اكثر من ارض من اسمنت صلب بارد. متحجرة الرحم. ثاوية بجمود مسكين صامت. بائسة تخضع برضوخ لوطأة اقدامي.. عاجزة عن ان تغري شيخا طاعن السن. ذاوية القدرة على اغتصابي بالاكراه.

اني هنا داخل الزنزانة، لكني مخلوق آخر. وكان يبدو ان زيفا يتخفى معي في داخلها. اذ لا شيء تغير في المظهر. العتمة، والنتن، وقذارة الارض، والبطانية المنسدلة على باب القضبان، والكوة، وبراز الشياطين على السقف. وانا وحدي تغيرت. وكان الزيف موجودا في كل الاشياء وهو يمكر بالموجودات ويعبث. يخدع ابصارا وعقولا. وانا فرح رغم الزيف. معتد بلحظات مرشحة من ماضي وبأحداث تطل من يومي وغدي. وكان غدي يركض. قد قطع نصف طريقه في لحظات غيبوبة منعشة فكرية. وجاء الليل فجاء محمد بعشائي. وهنأني في حذر متيقظ. التفت يمنية ويسرى ثم هس

- «الظاهر انهم يشسوا منك»

ضحكت، لكني آثرت إرجاء رواية القصة له

- «دعنا نأمل في ان تتحرك الاشياء نحو الاحسن»

وقدمت لمحمد نصف محتويات السلة. فهش لذلك.. ثم تردد. وسألته
 - «ألم يزرك هنا احد، اطلاقا؟»
 قال بتعاسة
 - «إني هنا مقطوع من شجرة»
 بتفاؤل قلت
 - «لو أخرج من هذا القبر سليما، فتوقع زيارات اسبوعية منتظمة»
 كان نزلاء قبو حلبا يمنون علينا بسخاء بعد كل زيارة. كنا كمحمد مقطوعين هناك من
 شجرة. ولعنت الحاجز.
 - «خذ يا رجل!»
 وكان موزعا. ومكث يتردد في اقدامه
 - «هل تخشاهم؟!»
 - «بل اخشى عليك منهم.. سيقولون..»
 فقاطعته
 - «تغيرت الاوضاع. لست نكرة بعد. اني موجود. والعالم كله يعرف الان مكان
 وجودي»

وبود حلق بي. كان بعض الخوف يستولي عليه. وكانت فرحة حذرة تغمرني. واومأت الى
 الفواكه والمخبوزات والحلويات، ورمقته بنظرة فيها رجا واستعطاف. عندئذ اخفاها في
 عبه وجيوبه ثم غادرني مضطربا كاللص السارق.
 وبقيت وحدي مع الليل. واحداثي ما عتمت خلفه. وهو يبدو كجدار اسلاك ينتصب في
 وجه الفرحة. في هذا الليل لم يزل المنفذ مفتوحا في وجه شياطيني ولجلادين يتقنون
 صنع كوابيس حقيقية. وتركت الفرحة تهفت عمدا كي اتيقظ للمجهول الكامن في
 وحشة هذا الليل وظلامه.. اللعبة قائمة ما زالت. ولا شيء يبرر استسلامهم بسهولة
 لمجرد ان رائحة الجيفة قد فاحت في ارجاء الكون. واذن، فلا تتوقع اشياء ليست
 متوقعة. وتساءلت «هل سيغشون اللعبة الليلة مرة اخرى؟!.. أيعدون لي الضربة القاضية
 اللامشروعة؟!..» لم استبعد هذا. ولم اكن غرا بعد. كنت اتسلح بالشك ضد كل
 الاشياء. وكنت عريت الثعلب الماكر من لبوس الحمل الوادع مذ مات الاب. ثم عاد
 وكشف عن وجهه في بستان التين. بعدئذ داهمني المرة تلو المرة، حتى اصبحت خبيرا
 بكل الاعييبه. وتداركت الغام الفرحة، كي لا اسقط في لحظة شرعت تنفض عني غبار
 السقطة.

ابدا. لن اصبح الليلة وليمة لشياطيني. مع ذلك عاودني وسواس مقترن بنفاد صبر.
 وكنت ازجي في يقظة جائسة محترسة، هذا الحاجز الزمني. جدران ظلام كانت تفصل بيني

وبين مصيري في الغد. ساعات، العالم فيها يهجع لكن الآلهة الشريرة تصحو. لا يغمض لها جفن لتدبر امرا مع اشباح شيطانية. وترقب هذا الامر طوال الليل. وتباطأ هذا الليل واضحى دهرًا. الا ان الامر ذاك، ظل يحشم خلف الدهر. لم يأت. وتنفس الصعداء مع انفاس الفجر الاولى. وتناهى لسمعي تغريد طيور وزقزقة عصافير. وكنت في حالة سكر. ووجدت النشوة تدب في الحذر الاخذ بحواسي، فغفوت مع الضوء الاول الذي قهر الليل ثم صحت مع الاحداث. وكانت تسرع، اخرى، بعد تخطيها بسلام هذا الحاجز الاخر.

ها انذا معها ثانية. في الزنزانة وهي تكشف عني كغطاء. ينفسح العالم. تبتعد الارض القذرة المومس. ثم لا تنتن يخنق الانفاس. رغم العربة المسدودة، كان نسيم جبلي يضرب وجهي. ويدي اليسرى بمفردها رهن القيد، موصولة بيد شرطي لا اعرف اسمه. كالانا مربوط بالآخر. وفي الظاهر ندان متساويان. والعالم متسع حيث جبال تشحن رثتي بانفاس غير ملوثة بالرجس. اتظهر في الانفاس. اتظهر حتى من فكرة التصاق بالشرطي ومن حقيقة هذا العائق الجسدي. اذ كنت رغم جلوسي امضي. تبعدي اللحظات عن ذاك الحصن الاسنة في جوفه كراهيات لا تنفذ. حصن الانسانية الشاهق الاصفر.. مصيدة الفئران البشرية. ملكوت محققي البدين المترهل ومصاف العريف كوبي وساء الشرطي الاشقر. مشوى الالهة الزرقاء. يبتعد عني. يفصلنا الان جبال ووهاد وساعة زمنية ومشاهد اخرى. هذه بلدة اخرى.. فيها يطالعني رجل مجنون يخاطب نفسه. امرأة تتبذل وسط الشارع.. اكوام قمامات وبنائات متداعية ومقشرة الحيطان بين زحام ضاج مع فوضى. وكنت احب هذا كله. ففي هذا كله يمكن تحفيف مستنقع البغضاء، وعلاج المجنون وتقويم المومس وازاحة القاذورات وترميم الحيطان المتداعية المقشورة. وبين هذا كله كان ينتظري رجل ذو شعر احمر. وامرأة متشحة بسواد ايضا. كانا في باحة مبنى متواضع يوجد فيه شيء اسمه العدل. وكان هذا غريبا يصعب تصديقه. العدل. يتواجد في قلب حفرة قابعة بين قذارة ولا انصاف. كان هذا عدلي الخاص المنشود. حلمي الشخصي، وليس احلام مجانين وعواهر وخرابات، والفوضى والقاذورات. عندئذ ندخل. المرأة منتظرة في الخارج. ومحامي في الداخل. وانا والشرطي ندان كتوأمين سيامين ملتحمين. اني شخصان منذ اجتزت الدهليز. شخص يبحث عن عدل بشري أرضي، والاخر يتطلع في الموجودات. يقرأ فيها شكوكا تتظافر او تتهامس او تتقاتل بالقرب من تلك الفوضى المهملة في الخارج. يحتدم الحابل والنابل. وجنايات وبراءات وقوانين. ومجاري الانسان العامودية تتجسد مزدحمة في هذا الدهليز العتم المتواضع. في آخره باب يفضي الى غرفة. ندخل الغرفة. كالعادة، ثمة فيها مكتب. ووراء المكتب بزة كاكية نبتت في اعلاها رأس جعد الشعر، فيه عينان متخفيتان خلف نظارات. والوجه جاد ومقطب. «العدل» موجود داخل هذا الرأس العابس الطلعة!

واجتمعت كل الاشياء معنا في هذا الرأس. رأس شاب لا يتعدى عمره اخر العقد الثالث.

يلقي نظرة ثم يغضب. ويطالب بفك القيد عني في الحال.
ارتبك الشرطي. قال انهم امروه بذلك. هو غير مسئول عنه البتة. ويدوي صوت العدل
بصرامة

- «احترم حرمة المحكمة وحرره من هذا القيد»
واطاع ثم تنحى. وتفحصني الحاكم. واحمر وجه العدل المنصت بهدوء، ثم عاد وغضب..
وتلقت الطاولة لكمة. سقطت هذه اللكمة ورائي مع لكمت كانت تتلقاها طاولة اخرى
بأعداد لا تحصى. هناك، احتد جدار اللحم وانتفخت اوداجه. هنا، ايضا يحتدم شيء ما.
يتلقى الخشب البارد ضربة.. لكنه من اجلي.. يتوجع!.

وصرخ القاضي مرة اخرى
- «ماذا يحدث؟!.. هذا استهتار بالعدل الانساني!»

قال الشرطي بتلعثم
- «نحن يا مولاي، نحاول الوصول اليه»
ورعد الحاكم

- «كيف؟!.. قل لي كيف؟!»
- «امامك يا مولاي.. مجرم خائن»
- «كيف عرفت؟!.. لديك قرائن؟!»
- «هذا ما نحاول ايجاده يا مولاي»
- «وما دمت لم تجدوه بعد، فكيف تسميه خائنا؟!.. انت تهين العدالة والقانون»
كان الشرطي ممتقع الوجه.. والحاكم تطفح وجنته حمرة ساخطة فوارة.. كان العدل يغضب
حقا.. واضاف

- «انت تعلم بأن المتهم بريء حتى تثبت ادانته»
عاد الشرطي يقول
- «وهذا ما نفعله بالضبط.. نحن نحاول ايجاد القرائن لاثبات جريمته يا مولاي»
بل انتم تخلقونها من لا شيء.. اما الحاكم فقال
- «لكني ارى العكس تماما.. انتم تعتبرونه مجرما حتى تثبت براءته.. وفي كل الحالات،
فانتم بتصرفاتكم اللامشروعة تخرقون القانون»

صراع بين العدل وحماة القانون.. العدل يدين الشرطة.. يأمرها ان ترفع عني كل
الاجراءات الاستثنائية.. ان تعطي الفرصة لي لادافع عن نفسي. ان امنح الحق بمقابلة
محامي بحرية.. ويتاح لي رؤية زواري..
كان وجه الشرطي يمتقع باستمرار. حماة القانون يدانون.. الآلهة الزرقاء تتراجع..
ثم لا تملك الا الطاعة

- «سمعا يا مولاي!»
وكنت مبهورا، امام تهافت الالهة البشرية هذه عند اقدام العدل.. هل حقا تسقط صريعة

قدامه كذاب؟!.. في تلك الساعة احببت. وارتطم خيالي بشخص مجنون في الشارع..
وبعاهرة تتحلل على مرأى من فوضى بشرية.. وبقمامات. وكان ايضا حواجز دموية كثيرة
لا مرئية.. ما عثمت تشمخ في كل مكان رغم دوي صوت العدل. ورغم تفتق نبع الحب
العرم الجارف، ما زالت تنتصب بعناد بين المخلوقات، ضاربة نبع الحب، والعدل
المجلجل صوته، عرض الحائط.

الفصل الرابع عشر

لا شيء موصد بعد. وما دامت ابواب الغد والاحلام والحب مفتوحة، فهي ستفضي حتما الى خارج هذا الصرح الدنس الاصفر. انفتح ايضا باب الزنانة، وعثرت على وجودي داخل عيون صافية كالمرآة. ورأيت الدنيا تتربع في راحة كفي. تتجمع تحت انحناءة خط القلب. قال يوما لي قاريء كف

- «هذا الانحراف الحاد الى اسفل في خط قلبك، يعكس ارهاقا حادا مثله. انت انسان يعيش بقلبه»

ساعتها غمرتني سعادة فشكرت قاريء الكف، الا انه حدجني باستغراب، ثم تمتم - «من اسباب شقاء المرء، طيبة قلبه»

في قلب الزنانة عدت اضحك من تلك الفكرة عن طيبة القلب. يهذي الحمقى، لكن هنا في اعماقي كأس اترع منها عصير فاكهة حرّمها الله على من لا قلب ينبض بين حناياه. وثملت. واصطبغ المستقبل بألوان الطيف. ست دروب زاهية منحنية قدامي كخط قلبي. والدرب السابعة تعجز عن رؤيتها العين. وقلت لمحمد - «استأنف»

فهّش شعره النامي، وقال

- «قد غيّرت رأيك كذا مرة، أفلا يستحسن ان اترث حتى ترسو بقرار؟»

فبسطت ذراعي امامي. وكنت ارى ما لا يراه بعينه

- «العدل يا محمد.. العدل.. أترى ما اروع العدل؟»

وتنهّد. كان سعيدا ابله. نظرته لا تتعدى ما بين الزنانة والمرحاض، وبين هذا وذاك تقفز فوق الدنيا وترى الله.

- «قلت لك.. رحمة الكبرى لن تتخلى عنك ابدا»

رجل طيب. لكنه في الغالب يجهل هذا.. لا يعرف نفسه، لا يعرف ايضا ان رجلا اخر طيب مجهول قد فعل ما يبدو الان له انه من ممن الله. وقريبي يغزو في هذه الساعة الدنيا،

ويعيش حياته مقابل احقر فرية.. لكن محمداً ذاته ما زال بصعوبة يقطع هذه الايام كي يقتحم جدارا زمنيا يفصله عن اهله.. وما زال ثمة خمسة اعوام اخرى لم تنقص الا اسابيع تافهة وعسيرة، فأين ممن الله ورحمته الكبرى. وفجأة سألته

- «محمد. كم مرة في اليوم تفكر بزوجتك وبأولادك؟!»

سكت ملياً. صدأ، كفن ملامح طلعتة البرنزية. وكأن ثمة عظمة شائكة قد انغرزت في عقله.. ادركت، من ثم، اني اعتديت عليه. وقال بحزن
- «أتريد الحق؟!.. مر زمن طويل على ذلك»

وتمتعت

- «اجل.. فما الفائدة؟!»

وكان يغدو وبسرعة حكيماً وذكياً. اذ كان يملك دفاعه عن نفسه. بيده كان ابلغ حجة. وقال في هيمان وشروء

- «اياك ان تحسبني من غير قلب. ابدا. لقد كنت في البدء افكر فيهم. وكانت الدقيقة تصبح ساعة والساعة يوما واليوم سنة. وامامي سنوات، يمكن في التفكير فيهم ان تصبح دهرا. وكدت اجن في احد الايام. وعلمت، انني لا بد وان انسى كي ابقى حيا، ولكي اعود اليهم وعقلي في رأسي بعد خمس سنوات. ولم يكن الامر سهلا. قاومت نفسي كي اتعود. وكبحت جماح افكاري في غمسها بقاذورات الانسان. اني انفق وقتي في تنظيف المرحاض وكس الردهات. اضع افكاري في هذا كي انسى. وحين افلحت في النسيان، امسيت كالصرصار تماما. ابدا لا يمكنني الاستغناء عن المرحاض. فبفضله احيا، واتجول حرا في الردهات وبدونه لا شك سأموت..»

وتمليته.. وكانت رغبة تطوقني في احتواء عجزه. كان هذا العجز يشبه عجز الطفل المدقع، يحيا بكفاف، يغمض عينيه عن لعب الاطفال وعن الحلوى، يتشبط دونها، ثم على مضض يقنع بنفايات الدنيا.

- «وماذا عنهم هم؟!»

فقال وهو ساهم، كمعز نفسه

- «لعلي اضحيت لديهم بعداد الموتى، اني آمل هذا. فالميت ينسى بمرور الوقت...» وتوقف. ولعله كان يريد القول أيضا «والامل ظالم.. سيف ذو حدين.. حين الانسان يتمادى فيه يغدو ذا حد واحد ثم يطعن صاحبه بضراوة». وانبلجت، وعلى حين غرة، تلك الدرب السابعة الممتنعة عن عيني. فرأيت فيها خدعة الالوان الاخرى وجابهت حقيقة امل الانسان الضال، مع ممن الله المزعومة.. وقلت

- «اذن فالخير الا تستأنف!»

ضحك اذاك. وكان يريد ان يتملص. وخانته الجرأة. والطيبة الساذجة الغريرة منعتة. وحيأؤه وقف ضده. لقد كان محمد ضحية هذا كله، ثم وافته الفرصة..

- «الحق يقال، ان رأيك هذا افضل ما دمت تقاسمني «زياراتك» وتأتيني والدتك بالفانيالات (والكلسونات)»

- «اياك ان تقول هذا ثانية..»

واستطردت

- «لقد كنت يا محمد طرفا في انقاذ حياتي»

وبتواضع مشحون بالدهشة، ساءل

- «أنا؟!.. هل املك من امر حياتي شيئا كي انقذ حياتك انت؟!»

- «تصور ماذا كان سيحدث لو لم احصل منك على الورقة وعيدان الكبريت» وتلقى ضربة بلسانه فلم يستطع النطق. لا بد انه لا يلقي اهمية للورقة والعيدان. اني اذن، اضخم الامر وابلغ.. هذا، شيء من قبيل اسعاف ظمأي بشربة ماء.. الله وحده يملك احياء الموتى.. رحمته جل جلاله تغمر كالشلال العذب هذه الدنيا.. مع ذلك تتوقف عاجزة عند حواجز الدم اللامرئية.. تتلاشى في بوتقة البغضاء المتحدية اياه. ثمة، تتكالب حرب آلهة اخرى.. الكثرة تغلب.. وهو واحد ورؤوف ورحيم.. اما هم فيكفي ان سلاحهم البغضاء!.

كانت تأملاتي تمتزج بأفكار محمد، وتصبح سمجة. اشياء غير متجانسة تتزاوج مثل قران يعقد بين فيل وبعوضة. وتأملت بحيرة، ما يمكن ان ينتجه قران النعجة بالذئب، ثم على الفور همست

- «يوسف لا يبدو اثر له!»

اخترقت انظار محمد قضبان الزنزانة ووراءها حطّ. هناك، اعتاد هذا الشرطي ان يحجب بضخامة جسمه كل ما خلف القضبان، ثم حلت البطانية محله.. أترأه كان يمارس عدة ادوار رسمت له من قبل آلهة هذا الموقف؟!

- «هذا الرجل مسكين!»

قالها بمرارة وبصدق، فسألته

- «يوسف مسكين؟!.. كم انت سليم النية يا محمدا!»

لا شك سأسمع الان عن يوسف ما سوف يضعه في اقصى «الطرف الاخر» من افكاري.. لكن محمدا لم يلبث ان قال

- «انت محق.. اذ لم تسمع بما حدث له»

- «وهل حدث شيء له؟!»

- «قد سقط ابنا له في بئر، فكسر ساقا وذراعا وعدة اضلع»

- «متى حدث هذا؟!»

- «قبل اسبوعين.. ثلاثة»

- «ويوسف؟!.. ألم يأت منذ وقع الحادث»

فقال بأسف

- «يقولون انه لن يأتي بعده ابدا»

- «لماذا؟!»

- «يبدو انه تشاءم. يوسف رجل طيب. لم يرض ابدا عما يجري في هذا الموقف»

- «لكنه ظل يعمل فيه»

- «لعله كان مضطرا لأعالة اهله.. أفلم اضطر انا..»

فقاطعته

- «ما اكثر من يحمل امتعة الناس..»

بدوره قاطعني

- «حملت انا امتعة الناس.. وها انذا..»

- «وحمل يوسف، في ظنك، الام الناس فسقط ابنه في البئر!»

- «قد لا يختلف الامران»

- «لكن من سقط في البئر كان ابن يوسف وليس يوسف نفسه»

- «حكمة الله!»

- «وكوبي مثلا لم يسقط في البئر وهو اولى بذلك»

- «حكمة الله»

- «حتى ابن كوبي لم يسقط فيها!»

فتململ في عجز فكري مطلق، فتساءلت

- «منن الله.. أليس كذلك؟!»

فقال ببلاهة آلية

- «بل حكمته.. جل جلاله»

الفصل الخامس عشر

التحقيق...

مر زمن. وكنت التقط اشلاء حياتي. وقنعت بما تيسر لي منها. اني احيانا قنوع بما يتعلق بي. والشمس سخية. توزع رفدها على كل ما في الكون بعدالة. كانت تبتسم بسمه ممتعة. والورد الاحمر يبادلها نفس البسمة. هل كان الورد يسخر؟!..

اخيرا اصبحت «صديق» الشرطي الاشقر! يأخذني احيانا لأساعده في تشجيب اشجار هذا الورد!.. مهامه لم تقتصر على تدريب وحوشه واطلاقها في وجه سجين او موقوف يرفض ان يشرب بوله، فالعناية بالورد، كما اتضح لي، كانت ايضا من بعض مهامه! وكانت من اقوى ميزاته الالهية، اذ كان يمكنها ان تحرك في بشر مثلي، تلك الاصبع الاسطورية في رأسه، وتجعله ينسى، او يغفر نصف غفران. كان النصف الاخر من هذا الغفران يكمن في قلب الورد الصامت، في اكمامه، وفي تجربة قريبي.. وفي غرفة التحقيق.. هذا النصف الاخر كان يتوزع في قسمة عادلة ليست ضيزى.

وقد مر زمن، فماذا حل بالنور الاخر الزائف الماكر؟!..
النور الاول الطاهر ممتعا كان، لكنه لم يتجمد كالمرة الاولى. لاحقني الى داخل الغرفة. انتفض فجأة وتأرجح. أمسكت به.. هدهدته.. وتطلعت في السحنات.

كانوا ثلاثة ضباط مع جبل اللحم. وشقوق في الطلعات ترسم في عيني اشياء ليست معهودة. كان وجه العدل عيوسا. كان جادا ورصينا. في هذه الغرفة، اينعت بسمات فجأة. وارتبت ثم عدت وتفحصت الواجه. ورأيت اقنعة مهترئة تتمزق. ثم بزغ النور الماكر الاخر من خلف غمامة.

- «تفضل.. اجلس»

وترددت. وكان يجب ان اجلس. لكن ليس قبل ان تُحفر بيني وبينهم الهوة.. كان هذا الشك درع وقاية ضروريا.. باهظ الحمل لكنه مع ذلك يجدر حمله.
وقال احد الضباط مشيرا الى خارطة منشورة

- «هل تسمح في تحديد مكان القاء القبض عليكما؟!.. تمعن في الخارطة بعناية ثم اشر»
وامعنت فيها نظري. بيد اني كنت في الواقع ابحت عن شيء اخر فوق طاولة المحقق
- «لا اعلم»

نظر كل في وجه الآخر. الضابط الثاني قال
- «في احدى افاداتك ذكرت، انكما توغلتما قرابة خمسين مترا حتى صادفكما القروي..»
- «هذا صحيح..»

عندئذ عاجلني الضابط الثالث

- «قل اذن، كيف عرفت هذا؟!.. الخمسين مترا؟!»
كلا. لا تنفعل ارجوك! فأنا اخشى على آمالك من ان تصعقها صدمة الخيبة. صحيح ان
بسمه الشمس ممتعة في الخارج، لكنها صادقة رغم السقم. وقد جاء دور الزيف ليتجمد
ويرتعد بردا. كنت جادا في بحثي عن هذا الشيء الآخر. لم اعرف ابدا اين اخفوه.. وقلت
ببرود

- «كان الامر في غاية البساطة. لا تنس يا مولاي، انهم هناك.. في «الطرف الآخر» اجروا
معنا تحقيقا ايضا.»

- «سألتك كيف عرفت ان القاء القبض عليكما، قد تم وراء الحاجز بحوالي خمسين، وليس
بستين او اربعين مترا مثلا؟!»

- «وانا اجبتك يا مولاي. ان من وضع الحاجز، لا شك يعرف مكانه بالتحديد. نحن لم
نكن نعرف هذا.. في الطرف الآخر قالوه لنا.. في التحقيق هناك.»
كانت الحياة تهوي خلصة من نظراتهم المتبادلة في صمت. هذه المصيدة الاخرى
المصنوعة من الوهم. وكنت حرا. مندفعاً في سيطرتي على لحظاتي. وكانت محاولة سحب
هذه اللحظات واغتصابها مني، لم تتوقف بعد. احبطتها قدر الامكان. وبدت المجاذبة،
وكأنها تنحاز الي.. وقال جدار اللحم

- «حسنا. لننس هذه النقطة ولنتركز في امر اخر.»

وكان امامه ملف منضغط وهزيل. بطنه منبعجة. وكان ملفي الذاتي الخاص. وكانوا يبعثون
انقاذ هزاله.. ونفخ بطنه بحقنة تندس بكيان انسان. ورغم هذا فرحت. اذ كان من
الواضح اني اجهضت لهم الملف الآخر وخلصته من حلمه الشيطاني.. لقد كنت فتحت
باب المصيدة المكتظة بالفئران، فسعت الفئران خارجها تعدو لحظيرتها البشرية
الاصلية.. ان الفئران الان اناس تبحث عن مكانها في دنيا الانسان. وكنت انا وحدي
واستجمع اشلاء حياتي الذاتية، منفصلا عن كل خيوط جريمة اولئك الوهمية. اني
نجحت في خرم الحبكة الملعونة. بيد ان هنا توجد عناكب قد شرعت تفرز مادتها اللاصقة
وتغزلها من حولي خيوطا شبكية اخرى. وكان يخيل لي، ان هذا يحدث بعد فوات الوقت.
عيناى هنا مع حذري. شكوكي مدايا تنهياً لتمزق الشبكة الواهية من قبل ان تنسج.
وانت يا «مولاي» ما زلت مطعوناً بالفكرة. وهي في اضمحلال تلقائي، تنكمش في رأسك

كالليمونة المعتصرة. انت الان تتواضع، وليس كعهديك يوم اومأت الى كل الفئران وجريمتها «القدرة». فكيف اذن انانياتك سوف تروى وتشيع؟! حسنا. انت ما زلت لم تفقد كل الاشياء. بين يديك ما زال انسان.. فأر واحد. ويكفي هذا لنقل الطاعون.. لكني حذرتك منه.. لا تنس الطاعون يا «مولاي»!

انت يا «مولاي»، تفتح الان ملفي الناحل. وهم، اعوانك وسندك، انسحبوا بتلصص. وبقينا لا يرضيك هذا. فانت لا شك تستمع الان لصفير معدة انانيتك الفارغة الا من الريح. صوت هذه الريح وهي تتزويج في نفخة شهوتك الشرهة. وانا اسمع نداء شكوكي، وتدوي في اذني اصداء صدمة خيبتهم. لقد فشلوا. اتذوق في افواههم نكهة شاي الحروب التفللة. اسقيه منكم كل صباح بالكوب الاسود الفواح برائحة صدئة. وتهامستم «لا يمكن» قلتم.. «هذا الغرير المأفون!» ثم صرختهم «اننا نحن القوة الانسانية العظمى، لن يقهرنا فأر افلت من مصيدته».. اسمعها.. ارتطامة تلك الخيبة.. لكنك يا «صديقي» لا تستسلم.. لقد كانوا حشودا..

وقال مرة اخرى

- «لنتركز في اقوالك هناك في «الطرف الاخر»

لم يبق منهم الاي.. أفيشبعك سراي الباقي؟!..

- «سألوا اسئلة شخصية»

وهو الان طليق يغزو بتفاهته العالم. افتذكر يوم اخذوه.. في المحكمة العسكرية هناك؟!.. عشت وحدي ايام جحيم.. ورأيت سياطا من نار تنهال على روحي.. كنا واحدا.. والرهبة المجهولة فظيعة.. ثم جاء الاثنان الصلفان.. اختارا «الطرف الاخر» في خبث. كانا لا يختلفان عن احد الطرفين.. انتم بالنسبة لهما الان «طرف اخر». بالنسبة لكثيرين احرار طليقين وضعوا الحاجز اللامرئي داخل انفسهم ثم عبده. نشب هذا الحاجز ايضا في رأس قريبي. ونحن الان طرفين. كثرت الاطراف الملعونة، فلا تدهش من ان تصيح القبلية بصقة. في غمرة الليل الداجي تنقلب اشياء. تمسح. حتى بيني وبين ابي ينتصب الان الحاجز. الموت حليف الانسان.. رابع الصفقة الخاسرة التعسة...

- «ماذا سألوك هناك؟!»

«يا بني»!.. كلمة ما عتمت توجد في كل الاطراف. من حسن الطالع، لا يخلو مكان منهم. مخلوقات تملك هذه الكلمة ترحف عبر كل الجدران.. وتقول «يا بني» للتعساء ممن قادتهم الاقدار من اطراف اخرى. آه لو كان محمد طفلا؟!.. حسنا. لا بد ان بأنابيب الزمرة «الانسانية» سحرا يخطف الابصار. فانت تمسك الان بمضخة هواء ثم تنفخ. لا تقلق. فسأمل لك بطن ملفي الخاص بقذارة هذا العالم. بالتين الممهول بالدم والبول.. وسيكتظ ايضا بالافكار المعبودة عوض الله.. فالناس تعبد في الاحرى عزرائيل. وانت تحاول الان الا تغضب. لكن في اعطافك ما زالت تقرع طبول وحشية. فهل ازفت ساعة تقرب القربان؟!..

كلا. لا تغضب. رغم ان الغضب قدر تسعة اعشار الانسانية.. اني ساعتها لم اغضب. قلقت وحسب. تلقيت لكلمات ضميمي. انت بالطبع، لا تدري عم اتحدث. كنت وحيدا في موقف محكمتمكم العسكرية.. هناك في «الطرف الاخر». أفلم اجتز الحاجز؟!.. انهما اذن متفقان. وقريبي ليس بشور مدار بعد. من نكد حظينا انه يكبرني سنتين. وهذا حاجز لا يمكن تحطيمه.. فسيبقى كذلك مدى العمر. اخذوه. ارتحفت معي الدكة الاسمنتية في موقف محكمتهم العسكرية ساعة اخذوه.. واكلت «المحشي» والموز، وتساءلت ماذا يأكل.. وتمددت على الدكة وعجبت.. اين ينام؟!..

قال «في زنزانة خشبية تتداعى، داخل ثكنة من ثكنات الجيش». قدم جندي له، عنقود عنب.. لم اعلم بهذا.. اذ لا شك تعلمتم شتل حواجز النار على ارض هذا الكائن الغيبي.. الزمن.. المكان.. المجهول.. كنت نواة داخل الف حاجز. مبتلعا في اعماق سجون لا حصر لها. الزنانات من حولي كقشور البصلة.. ليست شفافة، بل عازلة سوداء كثيفة. قبل ايام اخترقت ابصاري محارات البصلة. كانت بقدرة قادر شفافة، فنفذت من القلب الى قشرتها الاولى «البصلية» اللون.

وتألفت الالوان جميعا. ورأيت لون انفك المختلج الان. لكني يوم كانت الالوان غامقة عازلة سوداء كان قريبي في زنزانة داخل ثكنة يأكله فيها البق. وانا يأكلني خوفي عليه، والمجهول. اني اصغر منه بعامين.. ولهذا نجوت من البق والزنزانة هناك. ولهذا لم يصفع عني قريبي. ومنذ ذلك الحين شرع الثور يصبح ثور مدار معصوب العين.. وشرعت اخرج من الهيئة البشرية لأدخل في صورة الجرذان.

- «ماذا سألوك عنا.. عن الجيش في «طرفنا»؟!»

حقا.. الجيش.. نسيت ان الحواجز لن تبقى بدونه.. ضرورة انسانية قصوى.. في كل مكان من عالمنا الرائع..! افتريد ان تسمع عن مآثر القنبلة الذرية، انجاز الانسان الاكبر؟!.. حقاً.. في اللاوعي تستتر فكرة صائبة ستوجب هذا.. لا بد من ان نمحق البشرية الحالية، كي توجد الفرصة لتغيير وجه الدنيا..! ما ادراك ان انسان ما بعد خراب العالم، لن يلغي العهد المبرم مع الموت؟!.. لكن جدار المجهول عليه اللعنة..! حين ركبنا الباص الى القرية السخية المعطاة.. كان هذا الحاجز ايضا. لم اقرأ ساعتها بكتاب الغيب.. الغيب كان وراء الحاجز.. لم يعني ان تتطاول اليه ابصاري.. لم اتنبأ.. اني ساعتها لست الا الهارب من آثار جريمتين غادرتين الى قرية نائية مجهولة. واسحق شرفنطخ، كذب من فرط التعذيب.. ارغم ان يكذب كي ينجو بجلده.. النمامون ايضا كذبوا من فرط البغضاء.. وكذبت افكارك وظنونك عليك يا مولاي ويا صنوي في الانسانية.. عفوا..! في لحظة كذب، يكذب حدسي ايضا فيزيّن لي اننا حقا صنوان.. لقد اعتدت على ان الانسان انسان.. فذاكرتي الملعونة تتورط في النسيان، وبهذه النقطة بالذات. مسألة الفئران.. ليست مسألة الفئران بدعة.. اليس كذلك؟!.. حسنا. اوشكت ان اغتخلص من امر موتي الخلسي. قد حررت الفئران الطيبة البشرية ودفعت من رعبي وعذابي كي يسقط ما في

الرحم المنتفخ الكروي.. قد عادوا بشرا.. نبذتهم «جريمتهم» اللاإنسانية.. لكنك تسأل عن مسألة الجيش. في الواقع لم اتهاً لهذا الدرس.. لم اتقنه.. شيئا كانا يملكان علي شعوري وعقلي. كنت اراه. جسدا يبلى تحت الارض.. مثلي الاعلى تنخره الديدان. واراها. في احضان الهرم اللص، يأكلها في قلب الليل بشهية. يبدأ بالشفيتين. تغدوان داخل فمه فاقعتي الحمرة.. الشدين.. وهي عارية حتى من غير اكفان.. والباص يسرع في سيره.. كنت اود لو تطوى الارض. ثدياها الان تضاعف حجمها. سيدران السائل الابيض في عيني. في تلك الليلة تلهفت على رؤية قطرة كي اتأكد من اني لست ضحية اوهام تغزوني في اليقظة. الثدي كان بضا ورقيقا. وراحتها الضاغطة باردة، وتضغط في عنف. في الاصبع كان بعض خشونة. تلتصع الاوهام ثم تتلاشى. هم باقون.. انتم باقون.. جاءوا في التو.. حسنا.. سأملأ لك الجمعية.. لكني لا اعرف شيئا عما تسأل.. في «الطرف الاخر» قلت الشيء ذاته. وبقينا عرفوا اني لا اكذب. كان يكبرني عامين. فأخذوه مني بضعة ايام ونجوت من الزنزانة في الشكنة ومن البق. اقسم الا ذنب لي في اني نجوت. فلو كنت اعرف ان هذا سيحدث لكنت قبلت ان اغدو كبش اسحق، وأفدي قريبي.

- «ماذا سألوك عن الجيش؟»

- «سألوني ان كنت شاهدت حشودا على طول الرحلة المشؤمة»

- «ورأيت حشودا بالطبع»

- «ابدا. كنت في شغل شاغل عن هذا.. طالعت جريدة»

- «ماذا قلت اذن؟»

- «قلت ببساطة، انني لم ار شيئا»

إقتنعوا.. مهما يكن، امتنعوا عن الضغط. انت تقتنع الان كذلك.. عجبا!.. هذا يوم ربيع يبرز فوق الطلعة المنجمدة.. أفلسنا في آذار؟!.. هذا صحيح. المسحاح الكابوسي كان في ليلة كابوسية من ليالي شباط. حال الدنيا يتقلب. أفيمكن ان تدفع رأسك خارج انابيبك لتستنشق هواء طلقا؟!.. هذا هو الشك الدبق المجرم.. انت الان، تساعدني على ان اتخلص منه. انزعه عن احساسي كالغل.. ماذا يجري؟!.. حدثت في عيني. كان الشك يتراخي ثم ينزع ذاته.. الهوة ردمت. المستنقع جف؟!.. ليس ثمة من بق يبرز خراطيمه ليمتص دمي؟!.. النظرة قانعة تبدو وودودة.. وعلى الطاولة بقعة سمراء مستطيلة ليست مفلطحة ابدا. هذا ملفي الخاص.. لاصق جلده بالدقعاء.. يابس فوق عظامه.. جسدي!.. بأيعاز منك يا «مولاي» سرقوا لحمي مني.. إبتزوه ليل نهار.. كي يبقى الكرش الهائل لملف الاخوان الفتران.. الان تتواضع الاشياء.. حتى انت تتواضع.. وتعود مع الاشياء للحجم الطبيعي المنصف.

وقال

- «وقع على ما قلت»

على ماذا؟!.. هي بضع كلمات لا تعني شيئا. قلت لك.. تواضعت كثيرا يا مولاي..

تواضعتم.. فشستم كأطار عربة مثقوب.. امر لا يعقل ويحيرني.. اني لا افهم هذا
اللمعان المبتهج في حدقات عينيك.. انت خسرت اللعبة بالتأكيد.. فلماذا تفرح
عينك؟!..

الشك.. كان تزحزح.. يعدو امامي كفراشة.. لاحقته.. استدرجني لحديقة ازهار.. اثملي
الضوء الفواح.. لم افهم.. ورأيت وجهها جادا يغضب للحق.. يأمر بالعدل.. وانهار امامي
جبل اللحم.. صار في حجم هزيمة.. وفي قدر استسلامه.. لم افهم، لكني امسكت
بالقلم.. ثم وقعت.

الفصل السادس عشر

اني ملك!.. اني قرد!..

وتوقفت القهقهة في بلعومي فلم اضحك. وغضبت. وشعور بحموضة لاسعة وكريهة يجعلني غثيانا حادًا كحياتي. اني محاط بحلقات اكاذيب. الناس جميعا تحلم حين تنام، وانا يصنعون اوهامي لي، في اليقظة. وتفحصت ما حولي فقلت لنفسي «اني ملك!.. ملك حقا»!.. ثم ارتطم ادراكي بباب المعدن الصّدء الموصد. جدار مرئي محسوس وضعوني خلفه.. خلف الدنيا.. خلف حياتي. والمفتاح في ايديهم.. والثغرة ايضا.. الثقب في اعلى الباب. في حجم عينين وأنف وشفتين. لا يوجد الا حين يشاؤون، وعندئذ ترسم العينان على الباب. ساخرتين متسليتين، ترقباني برهة مع بسمّة على الشفتين المتهكمتين. ثم حين تملّاني، تمتليء الثغرة ويتوارى الثقب.

.. اني قرد!.. اغضب. تلسعني احماض كالسم.. في المعدة او في الامعاء؟!.. ابدأ. فسوء الهضم يكمن في كرتي العظمية العليا. في هذه الجمجمة التعسة المنكودة. ثم في لحظة تهبط الاحماض الى اسفل، وتعود تغلي في وسطي. وتنفور، فتندلق نافوريا في الحلق. بالامس وقعت على اقوالي، وغفرت للعالم نصف غفران. كنت ممتلئا بشرية. كبرت الفئران. في لمسة عادلة سحرية، عاد ووجد الانصاف. زال السحر الاسود. البشر الممسوخون رجعوا بشرا. في قلب أوهامي سقطت الوهيات وتداعت. مكث الانسان في حجمه العادي. قلت لمحققي «انك مسكين»!.. في السر قلت له هذا، ورثيت له. كانت الاطياف جميلة وبالاوان. وقناعات غير متوقعة لم افهمها، شديدة وسريعة العدوى وتهاجني في قلب شكوكي العظمى. اقتلعت العدوى كل شكوكي وجعلتني اقنع. أهب نصف صفحي للعالم، ثم اعود للزنزانة المفتوحة، بشرا مفتوحا. ونفضت عني صدأي وغباري. كان الغبار يتراكم من حولي وفوق رفوف المستقبل. حتى خيوط عناكب مخيمة كانت في ردهات الغد المهجورة. وبجرأة فتحت الابواب، وكنست اترية المستقبل. نظّفت، ثارت عاصفة الاتربة قدامي. هبت في وجهي حبات الرمل. في اليقظة،

اصبحت أعمى!..

وذرت الغرفة باقداًمي. واسعة في الطول. فضفاضة في العرض. تضئني. وتضيع افكاري. سريري وثير ومريح ونظيف. موضوع تحت نافذة يمكن ان يدخل منها العالم كله. اتسلق سريري كالقرد تماماً. وكالشمبانزي امر عبر الشباك. جسدي في الغرفة الفضفاضة، وأنا اتجول بين زهور حديقة الموقف. هي خلفي الان. اني تقدمت. كثيراً جداً. اصبحت على مقربة من باب هذه العمارة الدنسة الصفراء. لولا الباب الصده العازل الاعمى، لكنت الان اتسكع حراً في ارجاء الدنيا!..

ابن الزنزانة؟!.. عدت اليها بعد ان وقعت على اقوالي. كنت مسروراً. كنت مندفعاً بسروري. ببراءة رحت القى عن نفسي نفايات الماضي. برهة، انفصلت عني. في اليقظة اضحيت بلا هذا الماضي. والحاضر زنزانة مشحونة بأثواب قدرة انضيتها عن بدني. ومحمد عاونني في التنظيف. عمل ساعات اضافية لكي تبقى الزنزانة من دون الماضي ذاك. وكنت فيها وحدي من غير الرجس. يقظاً انتفس بطلاقة. ثم سقط الحاضر خلفي. ووجدت المستقبل. آنية فضية تلمع في وهج ابيض. ورأيت كوة الزنزانة بعيني القرد الابله. وبدخلها خلاء تام. وجدارها الخلفي متآكل، اسود فيه بقع بيضاء مثل جسد شقيقته في الصيف حين يعاني من لطعة شمس مضروبة بنفسها بعدد ايام القيط. كنت اتحكك بالحائط الآخر. وكان رطباً كجدار البطن. ورأيت ظهره وحده وهو مغمور بنور الشمس ويبدو كالسوءة او كالوجه المجذوم. وتجشأت. انهار من جوفي شيء حامز، وامتلأ حلقومي به. قريب المغسل، وكذلك المراض. انها معي.. بجواري. اني ملك القردة.. اظن جناحاً خاصاً في فندق للحيوانات. اغتسل في داخله، واغوط هنا وابول. خسارة انهم نسوا المرأة. كانت تتملكني اعنى رغبة في رؤية شكلي. في ان اشهد هذا الملك القرد. بيد ان الوضع صمم وفق اصول حديقة الحيوانات تماماً. كنت هنا، من اجل ان تتملأني النظارة.. لتشاهدني بعيون غير عيوني. احياناً تلقي الي، من ثغرة الباب، حين تمتليء بعيون متسلية ساخرة، حبة فول سوداني. اسمع ايضاً اصواتاً اعتاد الانسان اطلاقها حين يعابث قرداً. يستولي علي السخط الحيواني.. عيناى تزوغان في ثورة عاجزة مكتومة. اتململ داخل القفص الواسع المترهل.. اني في اليقظة افقد ذاتي البشرية.. وصوابي.

اللجنة!.. حاولت ان افهم ما يجري لي. عدت وطرقت ابواب الماضي، فأنست فيه وفي نفسي شجاعة. استجابة لا معهودة!.. كان عبدي الطيع المسخ الطلعة. طلعت هذه، افترت واضاءت فجأة. حاولت ان ادرك ما يحدث. في وجهه المسخ فتشت عن مفتاح جنوني.. كارثي.. أنا ملك.. أم اني قرد؟!..

بالامس كنت بشراً وخلعت رداء الجرذان. وضعت امضائي تحت حقائق حدثت ببراءة صيبانية.. رُويت ايضاً ببراءة الاطفال، تحت عينيه تماماً. وكان بين يدي وعيونه فضاء شفاف. فراغ ساذج ونقي الصفحة. وتفقدته بظلال شاحبة اللون اثرت من شكى

المسفوح في قارورة العدوى. انزاح خرطوم البقة. سحب اذرع الجبارة، اخطبوطه القاطن في نظرات العين. كل الاشياء كانت بلورية شفافة.. عجباً!.. كان الحاجز بلوريا ايضا. واجتزنا اثيره. كنا خارج الاشياء مجتمعة.. وسبقناها، ثم لحقنا الاشياء. وسمعنا دوي الصدمة العاتي خارج نطاق منطق تلك الاشياء.

ماذا يعني ذلك؟!.. لا شيء بالطبع!..

فبالامس وقعت ثم رجعت الى الزنزانة. كنت اجتاز مرحلة ما بين الفأر والقرد.. هذا الفراغ البشري. الدهليز الغامض.. يجتازه انسان فأر ليتوج من بعد ملكا على كل القردة. اللعنة!.. قتلني الاحماض. لم افهم، الا ان في رأسي عتلة. استحليت الفكر. قطراته سقطت بين الامس والزنزانة. دهش محمد مما يحدث. اعتصر رأسه، فامتلات الكاس الفارغة بعصارة ظل الله.

- «لا يخطو المرء خطوة، الا بأيماء منه جل جلاله»

فقلت لمحمد

- «اني لا افهم ماذا يحدث»

تنهد ثم قال

- «وانا تورطت مقابل وريقات بخسة»

وحككت برأسي

- «حكاية تورطك هذه معقولة. انها مكتملة العلة والمعلول، ولا تنعدم الحلقة المنطقية فيها، الا مذ صدر الحكم عليك. اما انا، فلا تبرير لحكايتي منذ اول كلمة فيها».

محمد اطارق. كان ما انفك يعتصر مخه. وتفحصت وجهه، فخيّل لي انه يعتصر قشورا واليافا معتصرة، لن يعثر فيها على قطرة، ابدا.

كنت تماما مثله. وكنت اختلف عنه تماما. انه لا يحتمل الحيرة. سيجن لو انه سمح لها ان تعبث في عقله. الا ان ثمة تبريرات غيبية لا تلبث ان تحضر لاسعاف الانسان، حين يعلن ادراكه، عن انه قطع كل مجالاته دون جدوى، واستسلم.

وقال محمد ببساطة ما بعد الاستسلام

- «لماذا ترهق افكارك؟!.. ان ما يهملك هو ان يظهر الحق، وتخرج من هذا الكهف المشؤوم»

نقطة. لكن السؤال يتكرر في اعقاب النقطة.. كيف؟!.. كيف ولماذا؟!..

وتوقفت القصة من دون نهاية. كانت تواجه دربا مسدودة. ثم في الليل جاؤا. كانوا ودودين. فاضوا ادبا ليس فيهم. يتكلمون بركة. واقتادوني الى هذه المعمية.. هذا اللغز.. الغرفة الفضفاضة بمرافقتها الصحية والباب المغلق بالشجرة التي لا احد يفتحها الا هم. هذا البحر الطافح بالوهم. واطلت العينان من الثقب. وتمعن في نظرتها. وغرقت في خبث لم ادرك فحواه.. وعاد صواحي الحيواني، وفر مني.

لا. لن يغضب الحيوان بهذا الشكل. لن يسأل عما يجري له، بهذا اللهف الانساني المحروم من كل يقين. أفأفهم الان ماذا يجري؟!.. وانقضت عن عيني بعض غشاوة الوهم، فأذا بي ما زت بشرا في قبضة «الانسان» المتأله. اللعنة على تلك الصخرة!.. سأزحزح هذه الصخرة.. اني منفي في هذه الغرفة الفخمة.. مسلوخ عن كل وجود.. حتى عن عقلي. ورجعت استنجد بطلعة الامس المفترية.. اقرأها حرفا حرفا. والكلمات لم تكن شيئا بعد. لكن السر، لا بد، متخف بين سطور الصفحة.. واذن، أسقطت ثانية في الفخ؟!.. كيف سقطت ثانية في الفخ؟!.. وانا فيه منذ اجتزت وياه الحاجز.. غر ساذج مسكين، ومارست التجربة الرجسة.. العيث الشيطاني.. وتعلمت.. والضحكة قاسية، اقسى حتى من ضحكاتهم المسمومة المنطلقة في وجهي.. اني تعلمت فعلا.. ان أكثر من اسئلي المفحمة الضالة.. كيف يحدث كل هذا ولماذا يحدث؟!.. وانا لم افعل ما يستوجب جعلي فأرا او قردا.. ان ينتقموا مني وكأني خطيئة الانسان الازلية.. افلا يوجد في هذه الدنيا غيري؟!..

وشقيقته الكبرى تسعى لمسحي عن وجه الارض، افكنت وحدي وصمة البشرية جمعاء؟!.. والحب يبصق في وجهي.. يلسعني لسعة افعى سامة.. فماذا جنيت؟!.. قد كنت وياه معاً خطوة خطوة. عقدت مصيري بمصيره. ماتت الدنيا بي، يوم ان اخذوه مني. احسست ضياعا في اعماق كياني. كنا نجذب في قارب واحد، ضالين في بحر يزفر موتا. في غرة من امري قلب القارب بي.. القاني في لجج الموت، ثم حلق بجناحي نكران انساني رائع. ابدأ. لم ينعق لحظة من اغراء لمعان الزيف. حاولت ان اطفئ في عينيه رؤية البريق الملعون، لكنهم انتشلوه من تلك «اللانسانية».. وانا خنت قيم الانسان.. حقاً!.. اني اقترب بالفعل من مأساة شذوذي.. اني ملعون!.. أتقل ما بين جحور الفئران وحظائر القردة.. وهو انسان بار.. ابدأ لم يمرق.. حتى يوم حاول ان يغتال الدركي الطيب.. او ساعة امتدت يده الفاضلة بالشفرة الحادة الى اسفل بطني.. لحظة صارت قبضته جبل مشنقة محكمة الطوق حول عنقي. او تحت شجرة الاكلبتوس قبل الفجر، وهو ينقض على عورة رزقاء لانشى بشرية.. في المقهى يغرق جوفه بشراب دموي.. حول طاولة الميسر.. وهناك في ظل عريشة الانسانية.. داخل حظيرتها الملائى بمآثرها الفذة.. بالنبل.. بفضائل الانسان المعدودة.. عاد لمكانه.. للبغضاء القديسة المعبودة!.. قد عاد بكل ذلك بشرا حراً.. انت حر الان.. عدت اليها.. الى حريتك تلك في ظل بريق الاضواء المتألثة المعروفة.. اللعنة!.. أفلم تتخم منها بعد؟!.. أولم تشبع نزوات وحماقات؟!.. معذرة للانسان!.. فأنا اتهور.. دعني استرجع اقوالي مرة اخرى.. تختلف بالطبع نزوات الفئران والقردة عن نزوات الانسان.. نحن الحيوانات حمقى!.. لم نفهمكم بعد.. لن نفهمكم ابدأ. ورأيت العينين الساخرتين البشريتين تصفعا نني من خلف ثقب الباب. وغضبت اخرى. وصرخت «اللعنة». لماذا تغضب القردة؟!.. ولماذا تشور الحيوانات؟!.. أم اني حقا انسان شاذ ملعون منبوذ؟!.. لست الا بمخايلهم الانسانية

الخلاقة الخصبة، فأرا او قردا؟..

اني بشر!.. ملك المنبوذين المبصوق عليهم الحاظين بسخرية الانسان السوي العادل. ولم يكن جديرا ان ابحت عن الاسباب.. سبتعب!.. وهي لا شك موجودة بحوزتهم. محفوظة داخل صندوق مغلق. وبقينا انها بوجاهة علة وجود الكون بذاته. اذ كيف، لو اختلف الامر عما عليه الان، كان سيتسلى واجد هذا الكون؟!.. اني، وانا الفأر والقرد، لو كنت مكانه، فسأحطم هذه الدنيا، لو كانت رتيبة ومملة، دون تردد!.. ثبت قليلا. بشرا منبوذا في قمقم. تركله اقدام بشر بارين ومطيعين. متفانين في تسليّة الخالق. وكنت مخدوعا، اذ توهبت اني اصبحت خارج اللعبة. اني فقط خارج حظيرة الانسان. وتبينت خطأ هذا كذلك. صحيح ان العالم انكمش من حولي وتربع داخل رقعة تحصرها عنيابي، الا اني كنت قلب هذا العالم، متورطا بقضية الانسان حتى اذني. وكان خداعي الذاتي ينتشر في كل ما حولي من اشياء. كانت الشمس في هذا الموضع مخدوعة مثلي. فهي تشرق. تمتد اذرعها عبر نافذتي وتريق في ارض الغرفة بقعا ضوئية، يبتسم بحياها، وتزغرد في مأتم. ووراء النافذة تفتح اكمام الورد وتضحك من دون اسرار، مندفعة في تيار الخدعة القذرة. وانخدع العدل، من حيث توهم ان قوله القول الفصل، فاذا هو ينتهك في السر بوقاحة، ويتماذ بالاستهتار به. وانخدعوا هم ايضا حين مسخوني هذا القرد الملهة كي يتسلوا بمشاهدي من هذا الثقب الملعون. كل الاشياء خدعة. احقر خدعة. مأساة الانسان وملهة الله. ويتملكني الغضب الكاسح مرة اخرى. غضب جبار ولا يملك ان يفعل شيئا. متمكن يردي العقل، الا انه اعجز عن تبديد ذرة من هذا الوهم العملاق الجاثم فوق صدر كل كائن في الدنيا، يتنفس معه الخدعة البشعة ويحياها بكل طاقاته. لا فائدة!.. هي خدعة سمجة اخرى، هذا الحلم في ان اقدر على تحطيم شيء ما. كان القمقم من فولاذ صلب ماكن.. الجدران مرئية وليست مرئية. متساندة متراسة بأقوى ما يقدر «الانسان» على صنعه. وانا وحدي في قبضة الغضب المشهورة برحاب كيان!.. أحطم نفسي؟!.. عقلي؟!.. حياتي المسكينة؟!.. بل لا يمكن ان اتخاذل، مع ذلك فأين الجبن واين الاقدام؟!.. اين الضلالة واين الرشاد؟!.. احترقت دون جواب. في رأسي الشعلة المتقدة الحامية كجهنم. تلقائيا كنت اروح واجي.. احطم شيئا اخر يشاطرني السكن في هذا القمقم.. عمري. يطأ الغضب الجارف لحظاتي بأقدام المرتعدة المجنونة. اتخطى التاريخ. تاريخي هذا الذاتي المشطوبة سطور به خطوط سوداء من حقد اهوج. وحتى لو اني سأحظى بالغد، فسيبقى هذا التاريخ بقعة مستغلقة على الفهم تشبه فقدان ذاكرة طازيء. الا هاتان العينان المخدوعتان البجحتان المخترقتان عبر ثقب في الباب. الثقب. ما عتموا يفتحونه ليهيلوا مزيدا من نار ساعة في اعطافي. اللعنة!.. ثم يفتح الباب على مصراعيه ليأتيني طعامي.. خلود غضبي.. بقاء شقائي.. استمرار حياتي من غير تاريخ مسطور. لم اعرف هذا الوجه الاسمر المفحم. هذا الشرطي. كنت احقد في عينيه وانفه. شاهدت عيونا وانوف كثيرة. هاتان العينان في الارجح ما كانتا داخل

الثقب. مع ذلك فالبزة زرقاء. الوجه ساقط. الصوت شحيح الكلمات. حذر متحفظ. يسترجعنا او يكتسب خبثا. وانا احتقره. اتغاضى عن كل اسئلته المقتضية. اكراه كل البز الزرقاء في هذا الموضع.. هذا المسلخ!.. تأسن هنا الخدعة الكبرى.. «الانسانية» مجتمعة بكثافة. يوسف كان جبانا وحقيقا. كان نتاج حمل نعجة من ذئب. بعد حادثة الابن، مر بعملية فرز نادرة كمعجزة.. تقياً نفسه. هذا الآخر حل محله.. لا يمكن للمهزلة الانسانية ان تتوقف لحظة.

وأظل اروح وأجىء فوق لحظاتي. ساعاتي. الليلة الاولى. اليوم الثاني. الصمت. الحيرة. غضبي. والثغرة في الباب. تبرز عينان. يتسلى انسان. اصبح ملهاة لاله بشري وقح مخدوع. وكلانا ملهاة لاله لا بشرى خادع.

يكفي. فأنا لا احتمل هذه اللعنة، لا اقدر ان اطفيء هاتين العينين. اهرب من اللعنة والعينين. اتخفى داخل مرحاض. اغلق خلفي بابه. أملاه بقذارات الافكار. هناك، يتحول العسر الفكري اسهالا. ينسكب في جوف البالوعة دون توقف. اسهال الجوف أرأف من هذا الاسهال. وجنون حقيقي يتهددني فيما لو لم يتوقف في الحال.

لاحظت على جدران المراض عبارات كثيرة منقوشة باظافر. مختلفة في الحجم وفي الالفاظ، بيد ان المضمون كان يثير الشفقة. هذه، بصقات المبعوق عليهم، وغضبهم العاجز المردود. متوارية في حيطان المراض. ولم اكن على ثقة من ان اولئك المجهولين كانوا مثلي. فمن بصقاتهم فاحت رائحة «الاطراف».. تنن المجاري العامودية.. والبغضاء. كان ثمة في تلك الكلمات آثار حروب قذرة خاضتها آلهة قذرة مع آلهة اخرى قذرة. وتوقفت هناك عند الكلمات المسعورة في سرداب الامن العام في «الطرف الاخر». الكلمات المنقوشة على حيطان الزنانات هناك، كانت تشبه هذه الكلمات. لعنة ممتدة الى كل مكان. دخل محسن ايضا نطاق الحلقة المفرغة رغما عنه. وسموا عقله الساذج باللعنة. ورأيت يدي تمتد نحو الحائط تغرز فيه ظفرا ينبت في طرف اصبع. وخططت شيئا، ثم روعت. كانت تلك، عدوى البغضاء تتسلل فجأة الى رأسي متلغفة بدخان غضبي المتصاعد. حقا روعت. فأنا لا احتمل الحقد على تسعة اعشار العالم. لن انجرف في تيار القاذورات الدنسة المنسابة داخل انابيب المجاري العامودية. هذا الغضب الجائر الاحمق، بسبب اوهام الخدعة الممسكة بتلابيب الكون. تبا له!.. تبا للمخدوعين.. ولي ايضا!.. ومحقت الكلمات. واحسست براحة اذ قاومت التيار وغلبته. كنت ما زلت في قلب الدوامة ابحت عن حل سحري. استحضرت كل اولئك. من كانوا برهة، فئران موصومين بالعار. ها قد عادوا محسوبين على ابناء آدم. ما انفكوا في بحث دائم عن اعظم حب. استحضرت من صارت امرأة منداحة البطن.. والاخرى المتلونة الالوجه، استحضرتها في وجهها ذاك الفاتن العذب.. وقريبي وهو يندب طالعه المتخاذل مثله. والمرأة الشابة المشرعة الثدي في سرداب الامن العام هناك. ورأيت اناسا في «الجانب الاخر» يغطوني بدثار دافئ في اعماق الليل القارس.. النائم. ومحمدا في

حيرته الصبانية الكبرى.. واطفالاً ترضع تحميها اذرع امومة في رفق متناه.. والمرأة المفجوعة ساعة سقط كل منا في احضان الآخر يبكي. ومجانين وعراة وجياع، بيتهم الشارع. ونساء تفجر كي تظفي غلة شهوة رجل جشع ضال. والرجل الربعة الاسمر، عابر سبيل ويكافح اللعنة البشرية بتواضع مغمور.. والعدل المظل من وجه عابس صارم.. وسخاء الشمس.. والورد الكاشف عن روعته رغم اللعنة.. رغم الموت.. رغم الانسان حليف الموت.

أفليس في هذا كله ما يمكن ان يشرح صدر الخالق؟!.. لو كنت مكانه لرفعت الخدعة عن هذا الكون. لقد كنت احن الى الوجه الآخر العاقل في هذه الدنيا. الوجه الذي تضحي فيه «الانسانية» لفظة نقية.. يعتد بها كل كائن، وبسماعها تغمر الراحة كل المخلوقات. وقذفت غضبي في المرحاض وخرجت. وسمعت في الخارج اصداء جلبة. وما من ثقب في أعلى الباب. وكانت الاصوات هناك لا تبدو مألوفة، إذ كان ثمة صوت امرأة يبكي ويتوسل، يعلو على تلك الاصوات. ثم زجر.. بفضاظة.. يعلو على صوت المرأة الباكي.. ويحاول طمسه. وتجمدت. برهة من غير غضب او نشوة. ثم في فجأة عدت وروعت. كنت تأكدت. فاض ما في المرحاض. تلقائياً ساح في مد جبار وأعاد الي غضبي المغموس في القاذورات. وجنت. اين الوجه العاقل في هذا الكون؟!.. كانت اللعبة القذرة ماضية لا تلوي.. وهي قريبة. اقرب مني من احساسي.. لا يفصلنا الا هذا الباب.. هذا الحاجز الصلب الملعون.

جنوني. حطمت به في الباب عظام يدي مع صوتي - «اني هنا. وقريب منك.. يا أماه!.. اني خلف هذا الباب واسمع صوتك.. لست في اي مكان اخر مجهول. نحن لا يفصل بيننا الا هذا الباب»
جنون مستشر لا يتوقف. يثقب قلب واحشاء الخدعة. لا يهدأ ما لم يتحطم هذا الحاجز الضخم الاعمى. من غير رادع يتفانى.. يبحث عن بلسمه الشافي في الوجه العاقل للعالم.. هذا الطيب. اقرب مني من حبل وريدي.. لا يفصلنا الا هذا الباب.. هذا الحاجز الصلب الملعون...

- «إني هنا!.. اني هنا!.. ليس بيننا الا هذا الباب الملعون»
يهدر الصوت، وكمطارق ينهال. والاهام تتحطم. وتتفانى الرغبات والعقل جنونا يتقمص. تتجمع الدنيا في بؤرة غضب آسن. تتكدس المأساة البشرية.. تتكاثف.. تتجمد.. تتصلب.. تنتصب مزهوة على شكل حاجز.. تتناهى من طرفي الحاجز صرخات الانسان.. غضبه.. ذلته.. عجزه.. وبكاؤه.

وانا ماض في تحطيمه.. وفي تحطيم يدي وصوتي عليه.. لم اتيقن مما كنت احطم. كان ثمة يقين واحد فوق كل شك. الخدعة. وكنت اكشفها.. اهتكها.. اهشمها اربا.. بالتأكيد. ثم تخفت الاصوات وراء الحاجز. صوتي كان مسموعا وحده. الصرخة الحيوانية المحتجة هذه، تنشب في قلب خيلاء الاصنام. آلهة اللعنة ترتبك في الخارج. وغويل

المرأة يصمت لحظة، يتعلق في اذنيها المرهفتين، السمع. ها قد ذوت الخدعة الجبارة.
خمدت في ذرات الصرخة، في غضبة الفأر القرد الانسان!
ثم انفتحت الثغرة واطلت منها عينان.. فارغتان.. فرعتان.. خابيتان.. ساقطتان في
شرك اصداء الصوت الهادر
- «اهدأ»

- «حتى يفتح الباب»

- «صوتك يسمع في كل ارجاء البلدة»

- «فليبلغ عرش الله.. حتى يفتح الباب»

قال صاحب العينين، باستسلام

- «حسنا. سترها. لكن من دون كلام»

بصرير متحشرج انفتح الباب. كان يغص بصريه هذا. والغصة الاخرى الحقيقية
تتمائل عند منصة الاستقبال في الخارج. هناك، وقفت المرأة. هناك، كان يقف مخلوق
منكسر وذليل مهدور كيانه على عتبة الحاجز. وانفتح الباب، فمكث الحاجز اللامرئي
وحده. واحسست انني اندحر امام هذا الحاجز الاخر بالذات. وكانت المرأة تحمل سلة.
واذ لمحتني قالت بتوسل

- «لا ضير!.. لا ضير!.. سينتهي كل هذا قريباً.. سيضحى بمجرد ذكرى.. اصبر يا ولدي.. قد
ولى الردح الاكبر.. لم يبق الا قليل»

وتألمت لها. وكان يبدو ان كلا منا ينسى في الاخر ذاته. يتفانى من اجل اشياء تحدث في
الطرف الاخر القريب كجبل وريد. ونسيت بالفعل، حقيقة كوني قردا. وهتفت بالمرأة
بلهجة مقتنعة وتحاول ان تبدو مقتنعة ايضا

- «عودي ارجوك!.. فها أنذا موجود قدامك.. وترين اني اعامل مثل شخصية هامة»
لم تسمعي، او لم تعبا بأقوالي. كانت ما عتمت تلوح بالسلسلة لحراس «الحاجز».. تتوسل.
وعلمت ان رغبتها العظمى في تلك اللحظة اقتصرت على نقل محتويات السلة الي. لكن
هذه الرغبة المتواضعة العظمى ظلت ترتطم بأذان الحراس الصماء.

أزددت جنونا، اذ لم املك تحقيق رغبتها المسكينة. ثم حدث شيء.. جاء طعام
الظهر يحمله الشرطي الاسمر. وكان شرطي اخر يصبو الى اغلاق الباب في وجهي. وكنت
اصبو الى ان يبقى هذا الباب مفتوحا لحظة اخرى.. وبالطبع، انهزمت رغبتى امام رغبة
الشرطي، فعاد الحاجز صلبا فولاذيا اعمى، وعندئذ توقفت وراءه اعاني نوبة ذهول حادة.
كنت مرة اخرى مسروقا من غير وجود. اضرب في آماذ تيه ممتليء بملاسة لم افهمها.
ضائع عن نفسي في ألم المرأة المحرومة من تحقيق اصغر رغبة. وكنت اتميز غيظا في
اعماق ضياعي. وتألمت الطعام الذي جاء به الشرطي الاسمر. هذه الجيفة، ستدخل جوفي
في الحال. تلقائيا، سأتناولها من اجل ان ابقى قردا، يوما اخر. وتمثلت ايضا، السلة بيد
المرأة التعسة المسكينة. حملتها معها اربع ساعات، بعد ان افنت في تحضير ما بداخلها

الجهد. كانت تفني طاقتها كي احظى انا بالفرح اللحظي. لحظة تلتئم فيها الاطراف المنفصلة، المشطورة بالحاجز. وكنت اتسكع في قفر المعمية من دون عقل. ثم حدثت الومضة.. كانت كشرارة برق. وبصقت.. وبأصرار تمتمت.. «ليمضوا وطعامهم الى الجحيم!.. لن اتناول الجيفة هذه بعد الان»

لكن لم تمض لحظات، حتى عاد وانفتح الباب. واجهني الشرطي الاسمر يحمل على ثغره بسمة، خيل لي انه كان اعداها خصيصا لي. وكان يحمل بأحدى يديه السلة، وبادرنى اذ مرق عبر فتحة الباب النصفية

- «خذ يا سيدي، وأهدأ بالا. لقد ارحت امك واحضرت السلة لك.. ذهبت وهي مسرورة، وجزائي ان تطعمني شيئا مما جلبته لك»

استغربت، وهدأت في آن. لم يكن في وسعي الا ان اهدأ من بعد ان تحققت رغبة المرأة، الا ان الملابس كانت اعمق مما يحدث بكثير. ووراء هدوئي، كان غضب عات ما انفك يتأجج. حدثت فيه ببرود لم يلبث ان تحول إلى ازدراء قهري. عجزت عندئذ عن شكره. لقد كان يذكرني ببيوسف. ومثله يغمرني بسوء طوية وبغثيان. مع ذلك كان للخدعة الصيبانية هذه، وجه اخر. هذا الشرطي حقق للمرأة رغبتها من قبل ان يخدعني بسخافات.. هكذا رجح هذا الوجه الاخر، وردعني عن ان ابصق في وجهه. وأشارت الى السلة

- «ما دامت المرأة قد ذهبت، فيمكنك ان تأخذ السلة بما فيها»
قال محتجا

- «حاشا ان افعل!.. هذا شيء لك وحدك.. ولقد داعبتك..»
ازددت اصرارا وغضبا

- «خذها!.. وأزح عني طعامكم الرجس هذا»
امتلاً دهشة. لم يفهم او حاول الا يفهم

- «لماذا؟!.. ها قد فعلت من اجلك كل ما قدرت عليه»
- «اما انا، فمضرب عن الطعام منذ هذه اللحظة»

ازداد وجهه الاسمر سمرة.. وكان مبتلعا في شدة الدهشة
- «لماذا؟!.. قل لي لماذا؟!»

- «قل لي انت، ماذا فعلت لكم ولماذا انا في هذا الوضع؟!»
واحترار. كانت حيرته تتطافح مع دهشته على وجهه وفي حركاته. وبدا لي انه يكتسح سرا

عني.. اذاك عدت وصرخت

- «لماذا تسكت؟!.. قل لي!.. لماذا اصبح قردا في هذا القفص الهائل؟!.. لماذا انا ملهأة..»

وتوقفت. كانت يده تمتد الى باطن السلة. وتناول كعكة ثم قال

- «انظر!.. سأكل الكعكة.. فلا تخيب ظني.. كل انت طعامك.. ارجوك!»

وبألية هتفت به

- «اتركني..! اتركني الان!»

لا ادري لماذا اطاع. تراجع.. ثم تمتم

- «حسنًا. سأتركك الان حتى تهدأ.. وأذاك، لا شك ستعدل عن فكرتك السخيفة هذه»
ادركت. ولا جدوى. اني في ارجوحة الاوهام ما زلت. قد وضعوني بداخلها.. سلبوني
يقيني.. والاشياء الكائنة موجودة خلف الحاجز وحده. ثمة يتعذب اشخاص، ويقاسون
من اجل لا شيء ومن اجل كل الاشياء. وانا، رغما عن انفي، امسيت حجر عثرة.. منبع
ويلات البشرية.. وهي في هذه الساعة فئتان.. ولكل فئة موقف مني، لكني لست اخيرا الا
شوكة في قلب الفئتين.

وامتدت قهقهتي المجنونة الى ما خلف الباب الموصد. جنوني هذا الاخر لا شك يبلغهم
الان. وما لا ريب فيه، انه يعينهم اكثر من بشرى ترف اليهم عن نيل وسام بطولة. كان
بين الالهة والابطال بون ليس من السهل ان تتخطاه مطامح تنتجها خدعتهم بغزارة. الا
ان جنوني، سيسهل الامر عليهم. اذ ليس مهما ان يغدو القرد حشرة. فالمعضلة كانت
كيف يفنى هذا القرد.. وكيف تزول الحشرة. والمعضلة ايضا، كانت خارج هذا الصرح
الاصفر تتخذ شكل نقيض. كيف يعود الانسان القرد الى اصله بشرا؟!.. كيف ينعتق من
ربقة هذا العدم الروحي الجسدي؟!.. يحظى بكيانه.. ينفذ من اشدق الملابس
الاسطورة؟!..

وتعثرت. كنت اقاوم خيوط شبكة ملقاة داخل رأسي وحول قدمي.. اجهل ملقيها،
لكني اتعثر فيها واكبو. اقاوم عقبات كثيرة. العالم كان ممتلئا بالجدران. في كل شبر
حاجز.. وتعثرت وكبوت. لا جدوى.. اني ملقي في حقل مزروع ببذور جدران وحواجز..
وهي تنبت مثل ذرة.. وتنمو كذباب.. وتتكاثر مثل طفيليات. الا هذا الحاجز الراسخ
القائم بيني والبغضاء.. كان الان هشا مهزوزا.. شاخ معي في اشهر.. وتداعى الان واياي
في نفخة...

اخيرا اكره.. بضراوة اكره.. بشراة النار الآكلة في غابة اشواك جافة. لم يفزعني هذا.
لم يبهجنني ايضا. لكنني فتحت له احضاني.. كنت اعطيه نفسي الغاضبة الضالة كي
يتناولها بهناء.. يأكلها بشهية لا حد لها.

مرحى..! اني اخيرا اكره نفسي..! ولست سخياف الافكار كما حاول ان يقنعني هذا
الشرطي الاسمر. اني اتحت للعالم القائي في اعماق الفخ.. ببساطة، ابحت له ان يقذفني
خلف الف جدار لا يمكن تحطيمه.. لست اذن فأرا او قردا او انسانا.. اني مجرد مجرم..
اني مجرد احمق.. اني مجرد مخلوق متطفل في عالم لم يخلق له.. اني اخيرا اولي بمعاينة
ذاتي، من ان يقاصصني هذا العالم الذي تطلعت عليه.. فأنا لست جديرا بطعامه.. لست
اهلا لطعام كل الاطراف...

هذه «الجيفة»، طعام الفئة الاولى.. وما في السلة طعام الفئة الاخرى. اني اذن،

متجاذب من قطبي الخيط. وهذا القطب الاول، الشرس الجبار، الاقوى ويمثل تسعة اعشار البشرية. والقطب الثاني طيب عاجز لا يملك الا مذلتة ودموعه. واحترت. وتعجبت. كيف لم ترجع حتى الان كفة الطرف الاقوى؟!.. ولماذا الطرف الاضعف ما انفك يجاذب، لا يستسلم؟!.. وعرفت. فأنا كنت جوهر اللعبة. أنحاز بغبائي للطرف الاضعف وأعرقل في اصرار فوز الطرف الاقوى.. ثم فجأة يلمع في رأسي بريق اشعاع عاقل. افحقاً أملك ان أفلت من قبضة الطرفين وانهي بنفسي مشكلتي الذاتية؟!.. السلة.. وطعام الموقف. اللعبة القذرة بين «انسانيات» مختلفة.. فلتسقط كل «الانسانيات».. الاعشار!.. اتساع الاعشار!.. ومجار عامودية.. وأنابيب ملتوية.. وحقول حواجز.. والدم.. والسائل الدنس الاصفر.. والاطراف العمياء بأنانيات صغيرة. وأناس بررة منخدعون بخرافة حرية الانسان.. واشواك الصبار الناشبة بوجوه بشرية.. والفئران.. والقردة.. الى اين يقود هذا كله؟!.. وتمنعت فيما حولي. الغرفة الفخمة بمراقفها الصحية والباب الصء العازل الموصد. وتمنعت بي. بالشيء الدخيل المتطفل على كل تلك الاشياء.. وازددت اصرارا.. صار «الشيء»: كراهية محضة.. وتجمد وتصلب مثل حجر.. الان، لا يمكن لكراهيته ان تتعداه الى غيره. ودوت الضحكة القاصفة الرعدية.. وكانت تتحرش. اذ ماذا يمكن ان يحدث لو ان يدا بشرية التقطت هذا «الشيء» الحجري، ثم قذفته في وجه كل الاشياء؟!..

وقال الشرطي الاسمر، وهو يعاني بعض الدهشة
- «انت اذن، لم تأكل طعامك فعلاً»

وكنيت اتكوم فوق سريري.. انحشر في اقصى اطرافه. هربت الى هناك بمجرد ان تناهى الى صوت طقة مصدرها الباب. وكان هناك نفور يقصيني عن الخارج.. يبقيني وحدي.. وانا عيي لا اقوى ان افعل شيئاً يمكن ان يخرجني من هذا الوضع.. واغمضت عيني، فسمعتة يستطرد

- «لنفرض انك تخاصم طعام (المركز) هذا، لكن ما ذنب الطعام الاخر؟!.. لقد صنعتة امك خصيصاً لك»

كان يستفز سكوتي، وكنت اسكت على استفزازه. بيد ان افكارا اقتحمت جمجمتي عنوة وقالت لي «انه يعاملك معاملة الاطفال».. ثم احسست بيده تحط على كتفي. وفتحت عيني. حدثت فيه ببرود.. ولم انطق

- «اسمع!.. انت لا تؤذي الا نفسك»

- «لماذا لا تتركني وشأني؟!»

- «لأنني لا ارضى لك ان تؤذي بحماقاتك نفسك»

يتحرش بي. ومن السخف ان ابقى على ايماني في الاشياء قادر على اعادة وضعي في قلب العالم. ها بي اعود، بفجأة، والتحم بذرات الاشياء، كالقطرة الساقطة في بحر مائج.. المحتدمة رغماً عنها في زوبعته العدوانية. لكني اخطأت. وللمرة الالف يحدث هذا. فأنا

ما كنت انزلق من باطن خدعة الا لكي ادخل جوف خدعة اخرى اكثر خبثا. اني لم اتطفل.. هم يحتكون بي.. يقتحمون وجودي.. ينسلون الى اقصى خلايا كياني. فماذا كنت اريد اذن من اضراي.. ممن انتقم في ايدائي لذاتي؟!.. كلا.. بل اتخذ من تعذيبي نفسي، موقف دفاع عنها منهم. اتخذ ايضا هذا الموقف المقهور الجاهد بمعاقبة اسباب قهره المجهولة والمعلومة.. وفي ليلي الفكري الداجي، كنت اكتشف انني ساقط في معضلة ميتافيزيقية. امتلأ رأسي من ثم، ببقايا افكار وبأشتات من ذكرى وبأجزاء احاسيس وبأوصال الغاز وقطع استنتاجات. مزق داخل طاحونة تعمل بكل طاقتها. والاسئلة متجعبة طافية فوق سطح فوهة الطاحونة.. التكرار.. لماذا؟!.. وكيف؟!.. ومن غير استحقاق.. من دون رضى.. والاحداث تتدحرج.. تسقط في هذا الواقع الشيطاني.. الدرب البشع المسدود.. لم اختر شيئا.. وعدت فجأة وسألته

- «ماذا فعلت؟!.. لو قلت لي ماذا فعلت، فساقلع عن اضراي في الحال»

لا يدري.. او يتظاهر بالجهل.. يقسم.. يلقي تبعة ما يحدث على رؤسائه.. اذن.. اجل.. يوسف!.. يوسف اخر لا ريب.. أم يتمادى في حقني بسموم الخدعة القذرة؟!..

- «قل لي.. أليدك اولاد؟!»

- «طبعاً..»

واستطرد

- «لماذا تسأل؟!»

وضحكت، فعاد يتساءل.. باستغراب

- «ولماذا تضحك؟!»

لا شك سيخيل له، اني احاول ان ابتز عطفه من ارخص درب. هو لا يعلم بالطبع، اني امقت كل اللعنات البشرية. وبقينا لا يدري ان خيالي كان يتمادى في اوهام، قد تغدو لو اني رأفت به، الواقع ذاته، كي تنقذه من اوهامه الشخصية. من نفسه الخادعة والمخدوعة.. وغمغمت

- «ابدا. كل ما في الامر اني تذكرت ان لـ «كوبي» اطفالاً..»

امتقع وجهه. الطلعة السمراء شحبت. أكيد، لم يدرك اني غالطته.. فكوبي ليس بيوسف، في اي الاحوال. كوبي لا شك يمارس كلنا حياته عن اقتناع كامل، كوبي شخصان منفصلان، وما يحدث لاحدهما لا يؤثر في الارجح على الشخصية الاخرى. واذن.. فما معنى ان يشحب لون هذا «التابع» البائس؟!.. أفيعلم رد سؤالي ويتعمد اخفاءه؟!..

- «لم تجبني بعد. ماذا فعلت، ولماذا انا في هذا الموضع؟!»

- «اتريد ان اقسم لك، بأولادي، على اني لا اعرف شيئا؟!»

- «كلا. فقد تقدم على ذلك فيما بعد»

باستغراب قال

- «انت بدأت تخطط بحديثك.. رأيت مدى تأثير الصوم عليك؟!.. كل ارجوك.. ان عليك

ان تصمد..»

- «اريد معرفة مصيري..»

- «ستعرفه فيما بعد.. لن يستغرق ذلك وقتا طويلا»

فقفزت من سريري.. وصحت به

- «انت اذن تخفي اشياء عني.. قل لي ماذا سيكون؟!.. قل لي ارجوك»

وتفحصني بهدوء. شفاهه مكثت مطبقة، ارتفع صدره ليلفظ تنهدة. ثم وهو يجتاز الباب

الصدء، تمتم

- «من الافضل ان تأكل، ودع الامور تأخذ مجراها..»

الفصل السابع عشر

اليوم الثالث من اضراي، في فندق القردة. شيء. حتفي في هذا الشيء. الشيء وحتفي يقتربان خلصة. محتبين وراء جهلي المطلق. ليل جهلي المتواصل يسمي ليلين. واضأت نور الغرفة الفضفاضة. لا شيء جديد! حين الشرطي الاسمر جاء بطعامي، كنت اعدو خلف مصيري.. واحاول الامساك بذيله. اكتسحتني قنبلتهم المبيدة. بصواي انفجرت.. تطاير عقلي فلذات وفتاتات. قال الشرطي الاسمر مستاء من حالي. لا يخفي ايضا اشمئزاه من رائحة الصوم النتنة الفواحة بشدة في كل جنبات الغرفة

- «ألم يحن الوقت بعد لتكف عن عنادك لنفسك؟!.. ها ان نتنك قد اصبح يغمر ارجاء الدنيا»

حقا. بمشيئتكم صرت ظربانا. اصبحت اشياء لا تحصى. واخيرا، احمل بيدي وثيقة اجرامي وقصاصي. قدرني الاسود هذا. ويقينا، ستصفق له، شقيقته الكبرى وتزغرد.. وسترقص ايضا بالمندبل.

كنت احمل بيدي، الورقة المفروضة الساخرة من كل عدالة يمكن ان توجد. ورقة الزور الذي ما زلت اصمد في وجهه. لكن الورقة هذه، صنعت في غرة من امري. وصلتني وانا داخل هذا القمقم المسدود المختوم. الورقة الدنسة. تفتت فيها شفتا كتلة اللحم. بسمه مكر في غاية الحبث.. طعم الصيد. الورقة المنتصرة. يخيل لي احيانا ان نصرها هذا محض خداع اخر. هي تتظاهر به.. تخفي وراءه افلاسا مفضوحا ميثوسا من انقاذه. فوز الجلادين في اللعبة مجرد خدعة. او دعوى يلازمها البطلان او فرية هشة قد تتداعى امام العدل في هبة. لكن اين العدل واين المنطق؟!.. ان الطريق من حولي محكم. انتشلوا مني زماني ومكاني.. ثم وضعوني امام افطع واقع شاءوه بعد ان غرسوا اقدامي في ارض ثبات. حتى لساني قطعوه. كنت ضحية اشبح استغلال لسذاجة مخلوق لم يتقن بمروقه المزري وشذوذه الفاضح عن التيار، استقراء مكائد الانسانية. ابدا. لم اتصور امكان

بلوغ الانسانية هذه، ذروة رجس العالم.
في صحراء جزعي وذوولي ابحث عن فجوة انفذ منها قنوطي اللامتناهي. اين قشة الغارق
في بحر كالح لا شطآن له؟! اني الان اعلم لماذا اضافوني في هذا «الفندق» المسدود،
مع كل مرافقه فيه. لماذا ملك القردة جعلوني.. ولماذا اعادوا تجديد حظر كلامي مع
اي مخلوق.. ان العدل قال كلمته في هذا الحظر. لم يتحدوا كلمة العدل هذه. لم
يضرخوا بغضب العدل عرض الحائط. خرجوا من ذلك كله بلبوس تبدو نقية ناصعة
المظهر. هم ادهى من كل عدالة.. هم انجع منها. في افواههم الان موجودة الكلمة
السحرية. أرايت؟!.. كنا محقين. اما انت يا «عدل» فتعاني من زحمة خطرة. انت لست
«عدلا» ما دمت تتيح الفرصة لمجرم ان يفلت من موته العادل.

اين القشة؟!.. هل في بحر الظلمات أثرت قشة تطفو؟!.. وتصلبت. لم يخطر في بالي
ابدا استجداء العطف. يستجدي العطف الخاطون. كنت هذا «الخاطيء» في نظر الشيطان
وحده. اهبط في قيعان جور الانسانية. ابحث ثمة عن شيء يدعى الانصاف. انقب عن
الحق.. وافتش عن الحقيقة المطموسة.

ورأيت الرجل الازرق. كان يتمعن بي في وجه ميت. من اي الاصناف هذا الكائن؟!..
وانا في حاجة لاسعاف عاجل. والوقت سرقوه.. امروه ان يسرقني. والزرق المائلة
قدامي بغیضة، يتضح منها اطياف الزيف.. كان الزيف يتنفس في كل مكان. تستشري
الخدعة. والرجل المجهول الاسمر مربي يوما بطريق الصدفة. كان عابر سبيل وتوقف.
هتك الزور بالصدفة. ضرب الموت المتربص في أم رأسه. لكن الزيف لم يستسلم.
كان طوال الوقت يستجمع قوته ويعدّ لغدره. انه حاكم هذا الكون المطلق.
الزيف!.. الاسعاف!.. لم ينقذ يوسف الا سقطة ابنه. هذا الشرطي الاخر متمسك.. مفحم..
يخفي جوهره وراء ثيابه.. اين مكن الزيف منه؟!.. ماذا وراء الزرق الملعونة هذه؟!..
وقفزت. وكأعصار واجهته. وكنت مجموعة اشياء. غضب خوف احباط يأس ومعاناة. في
الواقع كنت تجسيدا لمحنة السقطة الانسانية. وانا ما زلت ابحث عن قشة.

- «انظر ما فعلوا بي»

التقط الورقة. اخفى عني سيماءه. وسألته

- «أنا حقا خائن؟!»

كان يمضي بقراءته الجادة. قلت

- «ليس للبندين اي اساس من صحة»

ظل يقرأ

- «وعذبت من اجل كلمة لم انطقها، وها هي موجودة في لائحة الاتهام هذه. اني متهم

بالتسلل الى ارض معادية، والعقوبة القصوى على هذه التهمة خمس سنوات حبس»

دفن الورقة في وجهه. كان يخفي في اصرار خلداته

- «ليس مهما هذا. أقرأت البند الثاني من التهمة؟!.. أقرأت اقذر كذبة؟!.. هم يتهموني

بأدلاء معلومات عسكرية «للاعداء».. من اين جاءوا بهذا؟!»

لم ينبس.. فعدت اقول

- «أرأيت كيف يسعون لحيسي خمسة عشر عاما مقابل فرية لثيمة قدرة؟!»

أعاد لي الورقة. أفحم. كان خرسه من نوع مستعص

- «كل ما في الامر انني قلت لهم هناك.. (لم ار شيئا).. اما التهمة فتقول، اني اخبرت

«الاعداء» بعدم وجود حشود عسكرية على طول الطريق الى الحدود»

اخيرا، غالب خرسه، قال بصوت ساقط

- «هذا لا يعني شيئا. ستبت المحكمة في الامر، ولديك ثمان واربعون ساعة»

- «امي كانت هنا اول امس.. لماذا لم يحطها احد علما بالامر؟!»

ارتبك شيء ما.. حك الشرطي الاسمر رأسه

- «لعل لائحة الاتهام لم تكن ناجزة بعد»

- «بل هي مكيدة. انهم يحاولون تدميري بكل وسيلة»

فقال باستعطاف

- «انت بحاجة الى طاقة. فكل ارجوك كي تتمكن من مجابهة الموقف»

- «كيف؟!.. وقد اعدوا كل الترتيبات لمباغتتي؟!»

- «سيوكلون محاميا للدفاع عنك»

يا للسخاء!.. هم سيوكلون محاميا للدفاع عني. اين أنت الان يا محمد كي تشهد؟!.. قد

وكلوا محاميا لك ايضا. وساوهم في سنوات من عمرك. الحاوي يضلل اعين العدل.. يضع

الكلمات على لسانه. ثم تفلت اللفظة الكافرة المجحفة وفي لحظة حظ عاثر للعدل، من

حنجرة هذا العدل. وصرخت

- «لدي محام وانا اريده. لا بد من ابلاغه.. انهم يعرفون أن ثمة محاميا يعمل من اجلي فلم

لم يبلغوه بمكيدتهم؟!»

- «كل ارجوك ثم نتفاهم»

- «لا بد ان يعرف اهلي بالامر حالا»

- «كل. انك خائر. لن تصمد في هذا الوضع ابدا»

- «اعجب كيف يجيزون لانفسهم هذه اللعبة اللامشروعة. ان صوابي يكاد يطير من

رأسي»

صمت مع آهة. كان محياه الاسمر اكثر دكنة، في لون بزته الزرقاء. اين الزيف في هذا

الوجه؟!.. أين يتخفى؟!.. وعجزت عن كشفه عجزا تاما.

- «انت صغير.. وتضخم المسألة.. لكن حقوقك لك.. ولا احد يقدر على اغتصابها منك»

كيف تقول هذا وانت تعلم ما ألت اليه؟!.. وصحت مرة اخرى

- «انت تخدعني.. لقد افلحتهم في ايقاعي في اعماق الحفرة.. انتم معنيون ببقائي داخلها.

تخشون خروجي منها وكأني عملاق مرهوب الجانب، في وسعه تعرية اللعنة البشرية،

وايقافها عند حدها؟!.. ثقوا اني لا املك ان افعل شيئا. اني لا اكثر من طفل عاجز يتألم للعالم. لم افعل شيئا. لم يخطر لي ان افعل شيئا. لكني اريد الحظيان بحياتي.. حياتي التي اغتالتها لعنة «الاطراف».. حياتي الممرغة في وحل كل «الاطراف».. المغروسة في طين معاهدة الانسان مع حتفه»

ثم تهافتت سعة الكلب المجذوم. مكث لهات محتضر لا يعرف حتى نفسه. ثور الحلبة خر مطعونا. لم يجر من جرحه المفتوح، السائل الاحمر. كان هناك زبد مع عرق فيه غلظة. ابيض كدر متدقق. وضياح لا حد له.. يتخثران معا، ينعقدان كالصلب.. وتتيه الاشياء برمتها متوارية خلف حاجز من الاف وملايين حواجز. هذا المحسوس الملموس الآثم.. اللغز الاكبر

- «أعدك»

- «وعدوني من قبلك وبروا بالوعد»

هل احسن اختيار الفاظي؟!.. أهنأك للكلمات دلالة؟!.. هل ثمة فرق بين ان يعد المرء او يتوعد؟!..

- «ثق بي. اعدك بأني..»

فقاطعته

- «هل اثق بما تتوعدني به؟!»

كان قوي الأعصاب. غياب اعصابي لم يشن هدوءه. امسك بي ي عنف، ثم تراجع

- «اضحى فمك كالبالوعة، وانت تخطر.. ولا تدري ماذا تفعل..»

صدقته من غير تردد. قال شيئا ليس بحاجة الى برهان. وتأخر كثيرا حتى قاله. اذ كان ما قاله موجودا قبل مجيئه. افكان لا بد وأن اعرف ما افعل حين لا يوجد ما مكن فعله؟!.. بل كان هنا ما يمكن فعله.. ما لا بد من فعله.. البحث عن القشة.. ايجاد القشة بكل ثمن مهما عز.. وقبل قليل كان يخيل لي اني ابحت في بحر الظلمات. ضعت الان في لا جدوى البحث. وجهلت حقا ما كنت اعرفه واريد. ذكرني. وها هو، في تذكيري، يمنحني فرصة لن ارفضها. هذه الرغبة في ان اميز بين الزائف والمحض. واستنجد بالقشة، مرة اخرى، ابحت عنها في حلقة البحر الزافر ابخرة حاجبة للرؤية. ثم من يدري ماذا سيحدث؟!..

- «بماذا تعدني؟!»

- «لان سأبرق لأهلك. سأبلغهم.. شريطة ان تعقل وان تأكل»

- «انت كاذب»

فقال

- «حسنا. عدني اذن بأن تقلع عن اضراك بمجرد ان ابلغهم»

- «كيف اعرف انك لا تخدعني؟!»

- «سأبرق لهم الان. وسأحضر لك نص البرقية والايصال»

في تلك الليلة أفطرت.. وسهدت.
بين يدي كان شيثان. شيء يمسح عمري القادم بكلمات نجسة من تأليف الانسان.
الشيء الاخر كان القشة. اتفاني في القاء مصيري عليها. اتمدد من ثم على طول سؤال
كمصيري المبهم.. أفحقا ان القشة سوف تقصم ظهر العالم؟!....

الفصل الثامن عشر

العربة المكعبة السوداء المسدودة. عربة نقل الموتى!.. عربة نقل السجناء!.. تمضي. جميع اوراقى احيلت الى المحكمة العسكرية في منطقة الشمال. وانا في سيارة نقل الموتى هذه، امضي اليها شبه ميت. وبداخلها ايضا احياء ثلاثة زرق الالوان، والسائق. اليوم، مصيري يتقرر. واقدامي مكبلية ويدي. والعربة تنهب وديانا وجبالا. لا يمكن رؤية ما في الخارج. والصمت عنيد داخل السيارة. والكل فيها ينطق بكلام متواصل لا يسمع منه حرف. كل يفهم الاخر. وهم المنتصرون الاحياء. وكنت اتحاشى النظر اليهم، فأنا المنهزم المحتضر المحيطة في اعماقه كل محتويات حياته. وبكل بساطة استسلمت لأمر ما زلت ابحت لها عن معنى او تبرير. ولا يمكن بعد ان اطرح سؤالي «كيف حدث كل هذا؟!»، اذ الماضي تلاشي حتى أرسو أنا في هذا القاع.

قبل ان يصعد حراسي العربة السوداء، اخذوا التعليمات من كوبي. لم اسمع شيئا مما قال. الكل دار ويدور بعيدا عني في السر. كان كوبي يلوح في اوج احلامه وتفاؤله ونشاطه. وكل ذلك كان يعطيني بشكل معكوس وعلى نقيض تام. كان هذا ما اثر من ماضيّ الذاتي، ثم بسرعة يسحب معه هذا الحاضر الواجم. «ماذا سيحدث؟!» تنطلق من اعماق الخوف وتطل من امعاء استسلامي، تبدو كآخر انفاسي الواهنة المقطوعة. والقاعة هناك. وسأدخلها برأس احنوه لي حتى رغام الارض. كيف سأواجه الضدين؟!.. الطرفين؟!.. البغضاء والحب؟!.. احزان امي؟!.. اتراح شقيقاتي؟!.. الام احبابي؟!.. فرحة اهله وتشفي اخته الكبرى؟!.. وسعادة جلادي وغريمي الاول كوبي؟!.. اني سأجابه قاعة غاصة بالناس.. لا شك سيضللهم الزيف.. ستشير اليّ اصبع متهمه ويلعلع صوت ممثلي واثق.. «هذا هو الخائن المجرم»، وسيصدق بعض الناس.. وسيوافق معظمهم بهزة رأس ويثير لغطا وهمسات، حتى من دون «لماذا وكيف؟!». اهون للانسان الا يسأل ابدا. وهو كيف سيواجهني لو جاء.. لا.. لا.. لن يجزؤ. هو اتفه من ان يمتلك هذه المرأة. انه مسكين.. ضحية كونه لا شخصية له. بعض الناس خلق ليكون آلة طيعة تخدم كوبي

واضرابه.. اولاء البشر الزرق الالوان. ماذا ستصنع اخته الاخرى حين يهزم من كانت تتظاهر بعبادته في احد الايام؟!.. ليس هذا عسيرا. فأبداً يمكن تحويل القبلات الى بصقات. أفهذه هي الخاتمة الحتمية للحب؟!.. أفلا يمكن ان يحدث العكس كذلك؟!.. لم لا؟!.. افليس الاهون ان تتحول البصقة الى قبلة؟!.. آه لو كانت البغضاء فقط تبقى المبصوق عليها في الدنيا هذه!..

كانت العربية تهبط في واد. انزلق معها في قنوات دكناء الى نور الفكرة هذه. البصقة والقبلة. اني غريق في طوفان البصقة العظمى. انتزع منها ذاتي. استقبل القبلة الاعظم. اغسل برضاب عذب طاهر البصقة الرجسة. ورفعت الرأس. وتطلعت في اغوار الاعين الست الساخرة مني. المزدرية اياي. الواثقة من اني مهزوم ميت. من انها حية منتصرة. وبعثت. كنت بمواجهة البغضاء. ورأيت البصقات تغرقها. وهي تتلاشى. لا يبقى امامي غير القبلة. وانشحت اعصابي قوة. رأسي شكيمة. يطفح بمرافعتي عن تلك القبلة. هنالك في القاعة. طرفان. والسميزان كذلك. وسترجح كفة!.. كفة سترجح!.. والبغضاء باهظة كالصخر.. والحب خفيف كأثير.. كرفيف اجنحة نورانية. البصقة ثقيلة كرصا. القبلة بلسم لا وزن له. وبينهما زيف وحقيقة.. والطيش والحكمة.. والحق والعقل. وتقلصت في هذا. حقا. كان الزيف وكانت الخدعة. كان ايضا العجز وكان الضعف. لكني لم انهزم بعد. واذن، هل سوف ترجح الكفة اليائس منها المنطق؟!..

وتوقفت السيارة. هو ذا الدهليز المفضي الى القاعة. دق القلب بعنف. ان مصيري ومصير العالم يختبئان الان هناك.. في القاعة. ونظرت حولى. لم اشهد المومس والمجنون في الشارع. وتساءلت عما اذا كان مصيرهما سوف يتحدد ايضا في هذا اليوم. وكنت اجتاز الدهليز بخطوات مختالة.. وكانوا في هذه المرة، قد فكوا قيودي قبل ان نصل القاعة.

القاعة.. جلبة. دخلت اخيرا. القيت نظرة. تلاشت رهبة كامنة في اعماقي. ازدادت عزيزة. كل ما في القاعة هذه متواضع ومشجع. والجمهور قليل. ويبدو ضيقي وظنوني. وكانت امي وشقيقاتي واصحاب بررة لم ارهم منذ احقاب اللعنة. وفي اقصى القاعة صحفيان. وبقرب منصة الحاكم كان محامي يقف بجوار المدعي العسكري العام. يرتديان الروب الاسود الفضفاض ويتساران. ولا بد ان العدل سيخلص من بين اقوال لسانين.. وهذان لسانان يمثلان طرفي هذا العدل، وغريب حقا انها لمرافعتها عنه لم يختارا الا هذا اللون الاسود!..

كان ايضا اشياء اخرى لم افهمها. فلقد كان الرجلان يتساران كصديقين. وليس في المحكمة شاهد واحد من خصومي. وقريبي، شاهدهم الاول لم يأت. وبدا هذا، لأول وهلة، معقولا. لكن شقيقته الكبرى، الصلف الاكبر.. الحق الاكبر، ومن اغتلت لها كل رغبات الدنيا واصبحت نقمتها الجبارة، هل يعقل حقا ان تستغني عن متعتها هذه التي اثرت من بين جميع المتع الاخرى؟!.. الفرصة الذهبية في رؤية المعجزة البشعة تتحقق.

كيف سينسحق المخلوق الاحقر في عالمها؟!.. كيف اعلل هذا؟!.. وقالت امي - «لم يأت احد منهم»

فقلت وقلبي يخفق بنبضات من خوف

- «ما زال متسع من وقت.. ولو جاء احدهم..»

قالت باطمئنان

- «لن يأتي احد منهم.. ثق في هذا»

كنت اتق في شيء اخر وقلت لها

- «مهما حدث فالزور جبان.. لا شك يخشون ظهورهم او ظهور الحق»

فرفعت يديها متمتمة

- «سوف يخفون وبعون الله سيظهر الحق»

تشجع!.. اندلقت الكلمة في زق كياني وغمرتني. اصبحت شجاعا بالفعل. وحاولت ان

اقول هذا للمرأة الثكلى. وكانت قد استبدلت الثوب الاسود باخر زاهي الالوان. الا ان

محامي استدعاني في تلك الأثناء. وحدثني عن صفقة عقدها مع المدعي العام بشأني.. وانه

يطمع بموافقتي على تلك الصفقة. ونظرت بدهشة الى الاثنين. وكان الآخر، من سيتراجع

ضدي، ودودا وبشوش الطلعة

- «اتفقت وزميلي على اسقاط التهمة الموجهة إليك بشأن ادلاء معلومات عسكرية

«للاعداء»، مقابل ان تعترف بالتهمة الاولى»

وتساءلت بذهول

- «ماذا يعني هذا؟!»

وكنت مصعوقا. اشعر بأني ما زلت هدفا للخدعة، وبأن محامي قد وضع يده بيد من

سيطالب بتوقيع اقصى العقوبة بي. وانهما يتواطآن على اسقاطي السقطة القاضية التي لا

قومة منها ابدا. وغضبت. في حين تفانى الاثنين على اقناعي بصفقتها، وان الصفقة هذه لا

تعني الا نجاتي من المؤامرة الدنسة.

- «كلا»

- «انت لا تفهم موقفنا، لانك اضعت ثقتك في كل شيء»

هذا حق. ومحاولتهما عبث فارغ. ولقد تعلمت الا انخدع بسهولة وعرفت كيف اتسلح

بالشك. ثم ما معنى ان يتفق «الطرفان» المتناقضان لمصلحتي؟!.. وهل يعقل ان من

سيشير الي باصبع متهمة ويبيغي قصاصي، يتوخى نجاتي بالذات؟! كان لا شك يحاول ان

يفلح فيما عجز عنه غيره طوال شهور عانيت فيها افطع انواع التعذيب. وافضيت له

بهذا الحاطر. كنت عاقد العزم على الا اخذل نفسي. وافتر ثغره، وهو يربت على كتفي قال

- «اني افهم مخاوفك، لكنك اصغر من ان تفهم الوضع والقانون»

وسألته محتجا

- «هل يتطلب القانون، افتراضي على نفسي؟!»

- فالتقى في ساعته نظره ثم قال
- «لدينا ربع ساعة حتى بدء الجلسة فدعني اوضح لك»
قاطعه
- «كل شيء واضح. لكنني مقتنع ببراءتي وسادافع عن نفسي»
قال محاميّ بشبه توسل
- «اهداً واسمع اقواله. اني هنا لأدافع عنك، فهل تتوقع حقاً ان يخذلك محاميك؟!»
بأصرار قلت
- «تحدث اشياء، تجعل كل ما في الدنيا معقولا»
فقال المدعي بفروغ صبر
- «الوقت يمضي، فدعنا نتفاهم»
- «قلت لك أن كل شيء واضح، ففيم نتفاهم؟!»
- «انت، كما يبدو لي، لا تدرك ما تعنيه تهمة افشاء المعلومات بالنسبة لمصيرك»
- «هي احقر من ان تحمل مغزى، ما دامت باطلة ومختلفة»
- «بل هي اخطر مما تتصور.. أفلم تقل في التحقيق هناك «انك لم تشاهد شيئاً؟!»
- «قلت لم اشهد شيئاً وكفى»
- «لكن اسئلتهم كانت تتوخى الجيش، وهذا يعني ان ردك اقتصر على ما جاء في السؤال المتعلق بهذا»
وصرخت
- «كلا. لم ار شيئاً. يعني اني كنت منشغلاً بمطالعة جريدة.. لم انظر من نافذة الباص..»
- «للقانون وجهة نظر اخرى، بالرغم من وثوقي من ان ما قلته قلته بسذاجة وبحسن نية»
وصمت مبتلعاً في اعماق كنه وجهة نظر القانون تلك، فاستطرد
- «ولهذا وافقت على اسقاط التهمة عنك»
ورفعت اليه رأسي. كان الغموض يحيق به. رغم الشك، وسوء النية، لاح كصديق مخلص. لم افهم. وتساءلت
- «والتهمة الاخرى؟!»
- فقال كمعتذر عن عجز يقاسي منه
- «هذا ما لا يمكنني ان فعل شيئاً به»
- «لكنها كذبة حقيرة اخرى»
- «اجتزت حدوداً.. تلك حقيقة لا تقبل الطعن»
- «من دون عمد او اصرار»
- «وقد شهدوا فيها ضدك»
- «سأواجههم. لا استطيع الافتراء على نفسي»
وتدخل محاميّ ليقول

- «ومعنى ذلك تأجيل الجلسة ريثما يستدعى قريبك للدلاء بشهادته ضدك»
- «لن يأتي. اني واثق من انه لن يجرو ان يكذب مرة اخرى وعلى رؤوس الاشهاد»
فقال بحدة

- «انت تعرف بالطبع ماذا يعني تأجيل الجلسة. ولا اخفي عنك، ان وضعك في هذا الموقف من دون حسم، لا يعجبني».

وسكت. فانا ايضا لا يعجبني وضعي. وها قد جئت لتحسم امرك. ولينكشف الحق. ولترافع للحب ضد البغضاء. وسئمت ملابسة الدهر هذه.. خدعة الانسان. ربا.. ماذا يمكنني ان افعل؟!

وتساءل باستعجال

- «ماذا قررت؟!.. سيدخل القاضي بعد لحظات»
فأجبت بتخاذل

- «حسنا.. مع ذلك سادافع عن نفسي»

وجلس محامي على اقرب كرسي من منصة القاضي وجلست بجواره. وكان المدعي قريبا منا. ولم يكن ثمة قفص اتهام، ولا منصة ادعاء. كانت منصة للحاكم وحده. وفيما عدا ذلك اختلط كل شيء. ودخل الحاكم وكان بالبزة العسكرية ويبدو شابا. او اصغر من ان ينطق بكلمة العدل الفصل. انحشرت البز الثلاث الزرقاء في زاوية القاعة. ولم يعد ثمة شيء يثير الرهبة. حتى مصيري المجهول المتداول أمره في هذه القاعة، لم يبعث على القلق بعد.

لم يمهل الادعاء القاضي، وكأنه يروم انهاء المسألة في اقصر فترة، فطالب بالدلاء ببيان يتعلق بتصحيح لائحة الاتهام، وقال بعد الحصول على الاذن، انه بعد مراجعة البند الثاني من اللائحة، والمتعلق بالدلاء بمعلومات عسكرية للاعداء، فقد تبين له ضعف الدعوى وافتقارها الى السند المنطقي، ولهذا يطلب شطب هذا البند.

وكانت استجابة الحاكم لطلبه فورية، وعندئذ بدأ يشرح، مقتضبا وبدون حماس، تفاصيل التهمة الاخرى. وقال ان المتهم (واشار الي) قد دخل بتاريخ.... مع قريبه، شاهد الدولة، منطقة عسكرية مغلقة ومتاخمة للحدود، دون الحصول على تصريح.. وانها مكثا في هذه المنطقة ثلاثة ايام، ثم اجتازا الحدود الى دولة «معادية» بطريق غير مشروعة.. فسأل الحاكم ان كان قريب المتهم شاهد الدولة موجودا، فأجيب بالنفي.

وكنت اغيب مع «شاهد الدولة»، الابن البار لها. ان لنا ماضيا واحدا، ثم تشعبت بنا الطرقات. واختار لنفسه الغمر مقابل حياة تافهة لا معنى لها.. ولي اختار تجربة الاجيال، ودهورا من عمر حافل بحقائق كانت ممهية او مجهولة. ان لي اخيرا ماضي وحاضري، وقد يكون لي مستقبلي ايضا.. وعدت وسحبت قربي معي الي ماضي ذاك. وقال الحاكم - «كان يجب الحرص على حضوره الجلسة»

فتقدم رجل من ذوي البز الزرقاء، وكان مضطربا خاضع الروح ومطأطيء الرأس وقال

للحاكم

- «قد وجهت الدعوة له لحضور الجلسة يا مولاي..

فقاطعه الحاكم بتهكم

- «يبدو ان دعوتكم له قد فقدت في الطريق اليه»

ثم تساءل

- «أهو اكبر الاثنين؟»

وتوالت اسئلة وردودها. وانداحت ضحكات داخل القاعة.. لكنني كنت مع قريبي «شاهد الدولة» في ماضي وماضيه. قبل تسعة شهور تقريبا.. يومئذ دخلنا منطقة مغلقة ونحن نجهل ذلك. وكان ثمة اربعون اسرة تقطن البقعة المحرمة هذه من دون تصاريح.. ورجال القرية يجتازون يوميا حدودا لا مرئية، وبصورة لا مشروعة، فيبولون داخل «الطرف الاخر» ويعودون. كانوا مع ذلك على علم بالحاجز الدموي، وما زال في مقدورهم الاشارة اليه بعيون مغمضة، معصوبة كعيون قريبي. نحن، كنا نجهل هذا، فسقطنا في الفخ. وبقوا أحراراً في نظر القانون.. هم حراسه دون شك. حراس حاجز الكارثة البشرية.. وعاد قريبي لاصله، يعبد وهج الزيف، والثور المغمض العين. الهارب ابداً من كل حقيقة. وقلت من المحال ان يأتي، الا ان شرفنطح قد ينوب عنه لو استدعوه، كي ينقذ جلده مرة اخرى. شرفنطح هذا يحمل فعلاً بعض ميزات الجرذان وهو يعيش كذلك بروحين.. اما قريبي ففي جنبه نصف روح هشة وكعجينة مطواعة.. لكن الاعجب من هذا، ان يستوعب في نصف الروح هذا طبع تسعة اعشار البشرية، ثم لا يبقى منه غير ظلال اهانات ذاتية، والذل. لقد كان الحاكم يسخر الان منه. يلسع ايضا بلذاعة لبقة، هذه المؤسسة المتميزة ببرزها الزرقاء، ونبوغها في البحث عن العدل.. وكشفه

- «واذن، فقد وقع اختيار الشرطة على اصغر الاثنين، فهو لا شك الصيد الاهون» وجوه رجال الشرطة تشوه. ضحكات تتعالى، عاجزة عن ان تشكم توقيرا للعدل. وانا اقترب من فضح اللعبة. انتعش بعزيمة تخرق حواجز وجدران.. ملموسة وغير ملموسة. انفذ للمستقبل وهو يبدو في متناول الفكر واليد. لكن في القاعة هذه ازدادت متناقضات اخذت تنشب في رأسي مثل عظام سمك شائكة حادة. كان القانون يعاني من تأثيرات المجاري العامودية.. والعدل ايضا. ومع هذا كله يتصاعد استغرابي الى قمة لم يبلغها بعد، حين الادعاء العام ماض في مرافعته. ولقد كان يتحتم ان يترافع ضدي، الا انه قال

- «ان المتهم المائل امامكم قد خرق البند (..) من القانون (..)، ومن حق الادعاء مطالبة المحكمة الموقرة بأن تطبق هذه العقوبة القصوى... الا اننا بعد دراسة ملابسات القضية وبعد الاخذ بعين الاعتبار بجميع الظروف المحيطة بها، بما في ذلك كون المتهم قاصرا، وانه قد عوقب في الجانب الاخر بالحبس لمدة ستة اشهر، ولما كان الادعاء حريصا على ان يكون أراف بالمتهم من «الاعداء» انفسهم، فإنه يطالب

المحكمة بحبس المتهم المائل امامها مدة خمسة اشهر»
تتهاوى اصراحة اوهام كثيرة.. تغدو اضرحه. وشقيقته الكبرى، كأنها قرأت الغيب، فلم تحضر. ووجوه البز الزرقاء، تغدو زرقاء كيزها. وانا رغم هذا امتعض في سخط. لا يمكن ان استسلم. فالرحمة هنا، تتناول فوق هامة العدل وتكفن المغالطة الحمقاء العاتية بكفن وردي اللون.. فهل حقا اعلنت عن خنوعي وانتهى الامر؟!.. وتململت. وكنت احك برأسي. الضيق اعظم من ان احتمله. في رأسي اطنان احاديث كانت تتكدس فيه ايام الصمت الظالم.. ومرافعتي ضد البصقات.. وحواجز الانسان المفتعلة.. ودفاعي عن القبلية.. عن مسكن البشرية الواحد في الكرة الارضية.. القانون!.. ما انفك يستوحى كيانه ووجوده من اعماق المجاري العفنة.. الرحمة ستشوه الانصاف.. كيف سأعبر عن نفسي؟!.. وانشحذت السكين ثم طعنت افكاري.. وكان الحاكم يطرح علي سؤاله

- «هل تعترف بأنك بتاريخ... اجتزت الحدود بصورة غير مشروعة؟»
وارتحت اذ لم يطرق سمعي ما اعتاد طريقه في كل مكان.. «الاعداء».. الا ان الكلمة الاخرى «الحدود»، اضحت في التو مزلاجا انطبق داخل نفسي بعد ان شطرها نصفين. وتحاملت على افكاري المشبوبة

- «ما دمت سجنحت هناك، واعدت من هناك، واقف الان هنا في موقف المتهم، فهذا يعني اني فعلا كنت في الطرف الاخر، لكن..»

فقاطعتي المدعي وهو يوجه كلامه للحاكم

- «لقد اعترف بالتهمة الموجهة له.. وهذا يكفي»

وارتفع صوتي

- «لكني لم انه كلامي بعد»

انبراء ممتعض من جانب الطرفين.. محامي، ومن يتراجع ضدي.. يحاولان اسكاتي.. الا ان الحاكم قال

- «لا ضير.. فليكمل ما يريد قوله»

وقليلا تلكأت وتلعثمت. كان هناك خيوط مرتبكة لا يمكن الامساك بطرفها بسهولة. وصحيح اني لم اسمع لفظة «سبق الاصرار» من الحاكم، لكن اللفظة هذه، كانت لا ريب موجودة ضمنا في اقواله. في اقوال المدعي العام ومحامي كذلك. ربما حتى في اقوالي. وكانت موجودة بالفعل ساعة بر لنا مضيفونا بالوعد فاجتازوا بنا حاجز الدم بذريعة البول، لأول مرة. لقد كان ثمة تحد للبعضاء.. ولم اكن اعلم بأن تحدي البغضاء امر لا مشروع.. وقلت

- «لعل جوهر المشكلة يكمن في طريقة فهم الاشياء، لقد احببت الناس.. كل خط فاصل بين الانسان، مفتعل من اصله.. في كل مكان وليس هناك فقط. بل حتى في انفسنا يا مولاي.. ببساطة، لم افهم ان اختراق الحاجز هذا هو جريمة يعاقب عليها القانون،

والناس اكثر من القانون نفسه. لا فرق بين من يفعل ذلك لنوايا شريرة او بدافع حب، وسلامة نية»

فتساءل الحاكم باستهزاء.. او لعلها استهانة

- «وهل كنت تتصور انك ذاهب للنزهة؟»

افحمت مرة اخرى. حتى في هذا لم اتمعن. حين ذهبنا لنبول، كنت فقط اتحدى الحاجز.. وابول عليه.

- «لا ادري.. لكننا حين القي القبض علينا هناك، قلت لهم نحن اصدقاء ولسنا اعداء.. وسمعت الشيء ذاته منهم.. مرات عديدة. قالوا والصدق يطل من نظراتهم ونبرتهم انهم لا يكونون لنا اي عداء.. لكننا رغم هذا حوكمنا وسجنا ستة اشهر، ثم حين اعدت الى «طرفي» هذا، عانيت من الشرطة ما لا يتهيأ للمرء في ابشع كوابيسه.. قالوا لي اني خائن مجرم.. وانا الان احاكم هنا تماما كما حوكت هناك»

كان لا شك يسخر من اقوالي.. لكنه، كالباقين تماما، كان يعاملني كطفل لا يفهم حتى ما يتفوه به.. وكان لهذا يحاول تصحيح «خطأي»

- «توجد قوانين.. والقانون فوق الكل»

فصرخت بدون وعي

- «هذا قانون مجحف.. لا بد من تعديله من اجل مصلحة الانسان»

غالب ضحكه، بيد ان ضحكاته اخرى دوت في القاعة. وشعرت بأني غريب ووحيد. راجعت اقوالي. ابدا. هي ليست كحياة الانسان، تلك النكتة السمجة.. هي ما يضيفي على تلك النكتة وشاحا جادا، ويجعلها حكمة.. يمكن للعالم من ثم ان يحيا حياته بجدارة.. لكن العالم يضحك ويقهقه. هذا العالم يخذلني مرة اخرى.. والحاكم يسخر.. ويقينا لا يتجشم حتى عناء التفكير في طلبي. وعوضا عن ذلك يطلب من محامي ان يتكلم. ومحامي يشكر الادعاء (وهو يسميه زميلي وصديقي).. على انه ابدى تفهما لملابسات الدعوة، ولأنه اقتنع، ومن دون حاجة لجدال، بأسقاط اخطر بنود لائحة الاتهام، لأنه لا يقوم على اساس.. واضاف

- «وثمة نقطة هامة الفت نظر المحكمة الموقرة اليها. فموكلي ليس بأكثر من طفل، ومما لا شك فيه، ان حضرة الحاكم قد لاحظ ذلك ضمن اقوال موكلي الصبيانية. ولقد قاسى هذا الطفل الساذج (واشار الي) من ظروف لا انسانية - هكذا؟! - طوال فترة التحقيق، واحتمل تعذيبا جسديا ونفسيا كان يمكن ان يشكل خطرا على حياته، كل ذلك من اجل رفضه النطق بكلمة لم يتردد عن قولها امام محكمتكم الموقرة، بمحض الحرية والاختيار الكامل. وهذا كله يؤكد على عقلية موكلي الصبيانية. اجل. فأمامكم يا سيادة القاضي طفل، وارجو ان تؤخذ اقوال الطفل هذا، ليس بعين الشك والارتياب بل، بقناعة وبيقين تام. ان موكلي قد قام بما قام به مدفوعا بتفكيره هذا الصبياني الساذج، وأمل ان تصدر المحكمة قرارها بشأنه آخذة بنظر الاعتبار دوافعه

الطفولية وسلامة نيته، التي لا أشك بها ابدا»

وساد صمت. وكان ثمة فسحة من وقت يعقبها تقرير مصيري. وثمة ايضا فضول عات يدفع عيني ويعلقها بفم الحاكم. لكني لم انظر في وجهه. لقد كنت اسقط في اعماقي. ارسو بحضيض قاع بئر ممتلئة بسائل مر كالعلم. افحقا كل العالم قد خذلني؟! وهل ان ما قاله المحامي مناورة ترضي سكان الاناييب العامودية النتنه الحرقاء؟!.. أوحقا ان انتشارال البشرية من الغام حواجزها الدموية، فكرة صيبانية ليست اهلا حتى لاستنفار الاسماع؟!.. والحب البشري فكرة متناهية بسذاجتها، وحمقي ما سيرجع كفة الرحمة على كفة العدل؟!.. حين سيظل الزيف في موضعه الثابت يبهر الانظار؟!.. وها اني راضخ لكني لست مهزوما ابدا.. فبماذا سينطق الحاكم؟!.. أهي كلمة العدل الخالص من كل حوافز الانسان؟!.. في هذه الساعة استحكمت المعميات. امتنعت اشياء كثيرة عن ادراكي.. كان الزيف، في الاونة الاخيرة يهيمن ويتجر. تنهاوى اليوم منه اركان شتى.. تداعت لا ريب، الا ان اساسه باق ما زال، لا ريب فيه.

وتناهت فجأة طرقات على منصة الحاكم. اعقبها النطق بالحكم. وكان خاليا من المقدمات والحشيات ومقتضبا. وكان شيء من افحام يبطن هذا الحكم المتفاني في ورعه ووفائه للقانون...

القانون!.. وضع الانسان قانونه فهو يعود اليه.. لمجاريه العامودية.. وثلاثة اشهر من حبس تبدأ من يوم انفتح الحاجز بين الطرفين.. يوم تعانق «الطرف الاخر».. مع «الطرف هذا»... ثم سلمه البضاعة البشرية المنكودة. وران في القاعة لغط، لم يلبث وتحول لصخب عال. وامتدت يد محامي الي. وكان على وجهه سمياء ظفر. وهلل بعض الموجودين.. وعانقني الاهل والاصحاب. وكان الصحفيان في مؤخرة القاعة الصغيرة يتجادلان داخل فوضى الاصوات.. وثلاثة حراسي ممتقعى الواجه.. وانا ذاهل ومشتت الفكر. كنت منشغلا مع عقلي في امرين، اتفحصهما سرا، في غرة من امر الجلبة.. اتساءل في حيرة.. في لا يقين

هل كنت منتصرا حقاً.. ام اني هُزمت؟!...

الفصل التاسع عشر

عادت بي السيارة السوداء الى الموقف. كان في داخلها ثلاثة موتى مع نصف حي والصمت. واشياء لا اول لها ولا اخر تستخدم وسط هذا الصمت. وعلى عكس ليلة السرداب، كان المستقبل يومض قدامي في اغراء، لأول مرة. كان بثقة متmadية يعرض ذاته. واحصيت الايام. لم يبق بين ما يفصل بين الحرية وبينى غير اربعة ايام. في اليوم الخامس سوف تفتح الابواب المغلقة في وجهي.. وسأحطم اخبث حاجر. وسأشرع في تحطيم حواجز قائمة اخرى. الا ان جهامة حراسي، وهذا الشيء الغامض النافث فيهم هذا الحزن مذ نطقت العدالة كلمتها، كانا كالغصة في قلب احلامي وخيالاتي. وكان حشد من البز الزرقاء يتقدمه كوبي، ينتظرنى في الموقف بفضول لا حد له. وكلح وجه كوبي سرعان ما سمع نص الحكم. فتعمدت ان ابقى في وجهي على ابتسامة خاصة له. لقد اردت بأخلاص ان اغفر له خطأه. فلقد انهار صرح ظنونه، وكان هذا يستدعي تبديد كراهيته التي ظل يجابهني بها بعناد. حاجر آخر لا بد ان يتلاشى، الا ان كوبي مكث يشيح بوجهه عني.. كان ما زال يكرهني رغم سقوط كل اوهامه.

اقف امامه. يجلس مغتاظا ويتجاهلني. كان مرتجف القسماات يخفي وجهه في المكتب. في هذه المرة اخفقت في سبر اغوار عينيه. كيف حال الهوتين هناك؟!.. يوم التقينا لأول مرة كان يكابر بصراحة. يومئذ اصطفت اجنحة البوم والغربان امامي. كانت الان طريحة. مكلومة مشخنة بالجرح. وهو يوارى رأسه ويلحق جرحه.. في الاخرى يعيد لنفسه رباطة جأشه.. وبازدراء مهول بالخيبة قال اخيرا

- «ستقضي اخر ايامك معنا.. اذهب لردهة السجناء»

- «اخر ايامي»؟!..

اصطدمت مع افكاري.. ارتطمت فيه. أفكان حقا يقصد شيئا، ام ان الانسان في رأي كوبي، لا يملك من عمره الا ما يقضيه في السجن؟!..

كلا. في الواقع اني كنت جوهر الاسئلة المطروحة. لقد خاب ظني فيه. وكان همى ان

يفهم. ان يتنازل عن فكرته الثابتة عني. ووهبت الفرصة لكلينا. كنت ببساطة اطمع في ان يقصيني عن دائرة بغضائه، وببساطة ان اعطيه كل صفحي وغفراني. لكنه رفض هذا بأصرار. واستغربت رفضه اذ كنت اعجز عن تفسيره. مع ذلك فقد كفت عن ان اخشاه. وتساءلت

- «وددت لو اعلم فقط لماذا لا تنفك تكرهني؟!»
عندئذ، سلط في وجهي هوة عينيه. ومرة اخرى حاول ان يشربني. ولم يفلح في ذلك، فراح يرشقني بسهام مثلومة من حقد اجوف، وهو يتمتم
- «انت مجرم. ولا يعني من ثم، كيف افلحت بخداع المحكمة والحظيان فقط بثلاثة اشهر»

بمرارة عدت وسألته
- «أوحقا ما زلت تعتقد ذلك؟!»
فاصطكت اسنانه واحتقن وجهه
- «لو كنت فقط بين هاتين يدي؟!»
- «ألاني في نظرك مجرم، تكرهني؟!»
قال يتشدد في فخر
- «خلقت لمحاربة المجرمين من امثالك حتى لا يبقى في العالم مجرم واحد»
وبدأت افقد اعصابي
- «انت انسان نبيل بالفعل.. لكن هل تعلم كم من مجرم يوجد في العالم؟!»
- «رغما عن انفك»، سأحارب الاجرام ولو كان في البشرية جمعا»
- «لن يكفيك سلاح العالم.. الا اذا بدأت بنفسك انت»

وههمت بأن اخرج، لكني احسست بهزة في ظهري، اعقبها رجة.. ثم توالى على رأسي صدمات.. لكمات فوق بدني.. وعوضا عن اصل ردة السجناء على اقدامي، كانت تحملي اليها سواعد فظة، ثم تلقيني بداخلها ككيس شعير. واندلقت من حولي قهقهات ذفرة. وفتحت عيوني. اني اعرف هذه البؤرة. والمستنقع يطفح مرة اخرى. ورأيت لحوما عارية في البرد. جلودا بشرية موسومة بالوشم. وشممت روائح زنخة. كنت جريمة رغما عن انفي، ومحاطة بوجوه تملؤها اشداق تماسيح منفرجة. اين هنا الظل البشري؟!.. التهمته بالتأكد اعين كوبي، او اشياء مجهولة لا تشيع ابدا. اللسان تلحس كل ما هو كائن. ويبقى جوع رهيب يتحلفني. اني مرة اخرى غريب ووحيد. والباقون كتلة. الباقون احجار متراسة في بنيان معاص. لكنهم بالرغم من هذا اشرف مني. وهم اكثر عدالة في عالم يرفع فيه كوبي رايته الخفاقة. لقد قتلوا وسرقوا وزنوا.. لكنهم حتما ليسوا من اولئك الذين يدخلهم كوبي داخل اقواس لعنته الجبارة وحره الشعواء المعلنه على اجرام العالم.

كنت عيبا الهث. كنت اقيل نفسي بصعوبة من سقطتي وسقطتهم. وثمة ركن منزو لا

بد وان يحميني. وزحفت اليه. ثم على غير توقع انقطع دري. كانوا يقفون في وجهي، جدران من لحم كالمرّة الاولى.. وكالمرّة الاولى، رأيت هياكل عظمية وبطونا منتفخة. وكالمرّة الاولى سمعت الكلمات الحادة كالانصال المسمومة.. اذكر تلك المرّة الاولى.. في هذا الموضع. في غيره ايضا كان سجناء وسجانون. بيد اني ابدا لم اشهد مثله. انه بالتأكيد يعكس سحنة كوبي المشؤمة وتعاليمه. كان هنا الانسان «الكوباوي» المستحوذ حتى داخل سجنه، الصلف حتى بهوانه ومذلتة ورضوخه. وانا شاذ مجرم وحقير

- «انزع ثيابك هذه»

- «كلا»

- «بل انزعها في الحال»

- «لم اتعود.. والبرد شديد»

- «سوف تتعود»

بدأوا يعرفونني بالقوة. قاومت. تلقيت شتائم.. ركلات.. ضحكوا مني. في باب القضبان وقف خدام كوبي. وتذكرت يوسف. يوما كان يسد هذه الشغرات بجسمه. قال لي «دافع عن نفسك». خدام كوبي ليسبوا مجرد نظارة. كانوا يديرون اللعبة القذرة.. وليس سرا بعد، بل في وضع النور.

دافع عن نفسي..! دافعت. قميصي تمزق بين ايديهم، بيد اني لم اتعر.. كنت اقاوم وكنت اكره. وحاولت اطلاق قبضي المتحشرج في كل كياني، عليهم.. كل بغضائي العارمة الطوفانية.. بغضاء كوبي للبشرية جمعا.. واخفقت اخرى. وكنت ابصق في وجهي. بل لا. ابدا لا يمكن ان استسلم، فلقد قضي الامر. وكوبي لن ينجح في تغيير مصيري.. لم يبق الا اربعة ايام.. وتشجعت.. وقاومت في جولة اخرى.. كان عزمي ليس مفهوما «للاعوان».. كانت الدهشة بأعينهم تسطو علي.. احسست في نظراتهم الملتهبة بشراسة الانسان.. مع ذلك فشلوا في تعريتي.. حتى انطلق فجأة صوت خشن همجي متهتك - «دعوني له..! دعوني له..!»

امتثلوا. انفلق البحر الهائج. انتصبت الامواج جدارا من كل جانب. وانا في قاع البؤرة المفتوحة. في اعماق الجرح الانساني. في قلب ميدان بـ «روما» الوثنية. روما الاجيال.. روما كل الازمان. يتهاى العبد الابق لمصارعة الوحش المتضور الكاسر. كان سيماؤه سيما انسان.. بطين وشحيم. عار كحقيقته الازلية.. وببده شيء من جسده، يقترب مني به، كمديّة. والميدان يضج بتهليل الانسانية البارة المستنكرة اجرام العبد الابق في روما الوثنية.

وكان الانسان بمديته البشرية المشهورة يتقدم بخطوات وانية لكنها متحفزة ملأى بالشهوة والاصرار. وتراجعت ورائي. ومعني رفضي القاطع، وانا اسمع عواء محتجا يغمرني.. ومن حولي حفيف انفاس مبهورة. وامامي اصداء زحف شريعة الغاب. ثم

انطلقت ضحكة مرتجة من خلف القضبان. ثم كانت تتضاعف، في التو، داخل الردهة.. تغدو الف ضحكة قاصفة دابة، مثل تفجر اطنان من مواد قاتلة ومبيدة. وبدون وعي، اصبحت فجأة سهماً ومرقت الى باب القضبان مخترقا حصار وجودي.. انبح كالكلب المسعور

- «اريد الزنانة.. اريد الزنانة»

احتج.. اطلب.. رغم ضحكات الرجس المموجة.. رغم غشيان الدنيا.. انبح.. اعوي
- «الزنانة.. الزنانة»

ورأيت كوبي امامي. وللثانية تذكرت يوسف.. «دافع عن نفسك».. وبلعت القيء.. لم اقدفه في وجه احد. وقال

- «ما دام يريد الزنانة.. فاعيدوه اليها.. الى ذلك القبر»

وصرخت في كوبي

- «اني اكرهك.. اكرهك ايها الانسان النبيل»

كان يحرق بي وكأني حشرة. لا شك انه كان ايضا يحتفظ بكل حقده وبغضائه. وكانا باردن على وجهه كالموت.. وقبل ان يذهب قال

- «يمكن للاصفار ان تكره.. الا ان الاقوى وحده يملك ان يجعل للكراهية مضمونا»
وبعد بعد بعد غدا سأكون انا الاقوى.. وساعتها لن يضطري كوبي على هذه الكراهية، التي يفاخر بأنها ملكه وحده. اني سأمسحك من افكاري كآية لطخة حبر اسود، لأرى الدنيا بصفاء ولكي احتضن المستقبل.

وقال محمد بعد ان هتأني، وهو يتنهد

- «لقد افسدوا فرحتنا الكبرى بك»

وهذأت، فأجزمت في وعد قاطع

- «لن يتوقف الزمن بمشيئتهم. انها اربعة ايام. وسأزورك كل اسبوع»

وتأملت قليلا ما قلته، ثم سألت

- «ترى كيف ستكون الدنيا بعد اربعة ايام؟»

وحدجني ببلاهته المعهودة، الطيبة الحلوة

- «ستكون بين اهلك واحبائك»

ثم استطرد جذلا وكأنه اصطاد حقيقة باهرة الضوء

- «وأهم ما في الامر انك ستخرج من هذا المرحاض»

هذا المرحاض!.. وانت تنظف المرحاض كل يوم، لكنه باق. انت وجدت لكي تكتسب انفاسه العفنة داخل هذا المجزر. انك أطيّب المقهورين. وهنالك مع هذا، شرطي وضع لقاعدة كوبي استثناء، واضاف للبشرية صنفا اخر. الا ان محمدا لم يلبث ان قال
- «هذا الشرطي الجديد؟!.. نقلوه على ما يبدو لمكان اخر.. لا ادري لماذا لا يمكث هنا انسان طيب»

حقاً، تزداد اصناف البشرية. الا ان كوبي واعوانه هم الباقون هنا. واذاف محمد - «وما هي الا غمضة عين حتى تذهب انت كذلك.. والعقبى لنا» من منا يتقياً الآخر؟!.. وفي الطرف الاخر، على ساحل البحر، نبع ماء عذب متصل بأجاج اليم، لكن المائين لا يمتزجان. وساعة حدثنا الدركي الطيب عن هذا وقاسمنا شطيرة الجبنة، خطرت لقريبي افكار شيطانية.. وتوزعت فجأة وعدت اسائل - «اجل. كيف سيكون حال الدنيا بعد خروجي؟!» لا ينفك يرمقني وهو يعجز عن فهم شيء ما.. وتراوده الظاهرة المعتادة للتعبير عن جهله فيحك رأسه.. ويهرشه باستمرار.. ثم يتمتم في حسرة - «لكأنك اصبحت تخشى الدنيا»

وسهمت، فلم يسمع صوتي.. انت تعلم كم اني متلهف لخلاصي من هذا الرجز. اني احصي اللحظات، كما كان يحصيها قريبي الثور المعصوب العين.. وهناك اهلي واحبائي والحرية.. هذا صحيح، الا ان اشياء كثيرة اندست في الوجدان او انسلخت عنه. اني لا ريب سأخرج انسانا اخر. وكان قريبي صديقي الاوحد رغم عبادته وهج الزيف. وانقلب فينا القارب، وتحطمت الاجسر. والقبيلة بصقة.. وتمنوا موتي.. وتعاهد ضدي تسعة اعشار العالم من اجل شيء سأنقب عنه طوال حياتي وفي الغالب لن اعثر به. كنت اهرب في ليلي الديجوري الى هذا الضوء الخافت الشاحب في سقف الزنانة، المبقوع ببراز سماري الشياطين.. والعاهرة الشمطاء القذرة تقبع من تحتي.. ويوما كان الموت قوادة يستدرجني لغلمتها المشبوهة.. الى اعماق رحما البارد المترهل.. من منا سوف يتقياً الآخر؟!.. وحاولت ان انجو من فخ سؤالي.. وعلمت بأني احاول هذا كي تفلح محاولتي الاخرى في اقناع نفسي بأمور لست في حاجة الى التأكد منها. كان من الواضح ان وراء الايام الاربعة القادمة دنيا فاتحة الاحضان لاستقبالي. وهناك مهام كثيرة انقطعت يوما كشريط روائي عند نقطة مشوقة ومثيرة. ونجحت في الافلات من مصيدة الحزن والحيرة كما افلت من مصيدة الفئران والقردة.. كيف سيواجهني ذاك التافه؟!.. كيف ستواجهني الغولة؟!.. كيف سيكون حال الدنيا بعد سقوط الف من اقنعتها الزاهية الوردية؟!.. أأدور اذن حول حلقة سحرية؟!.. كلا.

- «سأجاهد من اجلك يا محمد.. وسأحاول تحطيم الحاجز بين اهلك وبينك» وتحسر

- «ليتك تقدر»

واستدرك

- «انك تحملني من الآمال ما لا اقدر على حمله.. اني اعلم بأن الامل المضمون لتحطيم هذا الحاجز، يكمن في الايام.. لم يبق الا اربعة اعوام ونصف العام تقريبا» ما اهون ما ينطقها؟!.. الا ان ابهظ منها، تلك الحواجز اللامرئية التي تشيدها هذه الاعوام في نفس الانسان

- «محمد.. هل تدري ما اروع ان تحيا البشرية في عالم مفتوح تنطلق فيه من دون حواجز؟!»

قال بسذاجة عنيدة لا يمكن ان ترضخ
- «افرح.. فستخرج الى هذا العالم بعد اربعة ايام»

محال ان يفهمني.. وقلت له

- «لو كان فقط يمكنني تنحية العقبات؟!»

وظل على جهله، فعاد يحك شعره النامي.. وتركني امضي الى جزر واق الواق.. اللجج الفضية.. اللالعة.. وكنت اتأرجح بين عالم اسطوري ومبارك، وبين اخر يقيني ملعون وفي هذا الاخر كانت تتكدس كميات متفاوتة من نكبة الانسان.. تارة تتكاثف، وتارة تخف وطأتها فتتضاءل.. واللحظات جادة في رفع بعض الاعباء عن كتفي.. سأقوم.. لن ابقى ملتصقا بالدقعاء من هول هذا الحمل.. وسأمشي مع رزمة اعباء اخرى.. وتساءلت ان كان يمكنني حقا ان افعل شيئا يقدر على تفتيت الصخر الجاثم على حلق هذا العالم.. وكانت الاشياء غير مفهومة لي.. وظلال احباط قارس يختبيء في ركن قاص من اركان ذاتي.. ولجأت الى النوم كي اقتل في احضانه ساعات مما تبقى.. اخر ايامي في بؤرة كوبي واعوان كوبي.. اخرها في قبضة اعتي مستويات اللعنة.. وتوغلت في نفق الاحلام.. ثم توقفت وفتحت عيوني.

كان ثمة صعقات تشبه عواء مسعورا تتلاحق في اذني قادمة من خلف جدار الزنزانة، وهي تصدمني مثل شحنات كهرباء تحتاج على نوبات متقطعة بدني وتهزه، فأرف رفيف مصروع لا يملك سلطانا على حركات جسده القهرية.. وتساقط نومي عني كتساقط اوراق خريف ميتة، فمكث من بعده هلع قابض من نوع لم اعرفه قبل الان.. وتمالكت وجودي وقذفته في زاوية الزنزانة، ثم بتوجس انصت.. كنت اندفع في ارهاف آلي نحو مصدر الصيحات المروعة الغريبة، وهي بجواري تماما تنصب في اذني مثل عويل الويل.. صرخات تبدو وكأنها تستنجد من شيطان متجسد تراه رؤية العين.. اهوج.. لا عقل فيه.. لا ضابط.. يتطاوّل.. يعلو.. يتكسر.. يهبط.. يثن.. يتوجع.. ثم يعلو فجأة.. وفجأة يتوقف.. وسمعت لهائي.. وكان وحده في اعقاب الصرخة المسموعة.. في لحظة من لحظات الليل.. من هذا؟!.. ولماذا لا يسمعه غيري؟!.. لو كانوا سمعوه لكانوا جاءوا وكتموه.. وتملكني رعب من نفسي.. كانت اصداء الصرخات ما انفكت تتأرجح بخواء كياني وتقتلني.. وانا وحدي معها والليل ثالثا الصامت المتكتم يرقبنا في مكر واستهزاء.. ثم غضت وانا مفتوح العينين.. وحين لاحت اولى خيوط النور بعد دهور، تنفست الصعداء.

لم يدر محمد ما كنه تلك الصرخات الغامضة المجهولة، الا انه أكد على سماعه شيئا منها كالاصداء، وكان ساعتها بين النوم واليقظة ولما كان محمد يرقد بعيدا عن الزنزانة، فقد ايقنت بأن الصرخات كانت حقيقة، وليست وليدة هذيان اوهامي، وان مخلوقا

لا بد موجود في الزنزانة المجاورة، بالرغم من انها كانت شاغرة ساعة آويت للنوم. وتملكني فضول لمشاهدة هذا المخلوق، فخرجت من الزنزانة (وكان بابها الان مفتوحا ليل نهار) والقيت على الزنزانة الاخرى نظرة. اجل صدق ظني. والرجل هناك وسيم ببذلة فاخرة وبرباط عنق. ودهشت. كيف جاء؟!.. ولماذا يطلق في الليل صرخاته المعتوهة؟!.. وقال محمد في الظهر

- «جاءوا به قرابة منتصف الليل.. ويقال انه رجل مجنون.. او تنتابه نوبات هستيرية» واولجست خيفة قاصمة تغمرني

- «ماذا ساصنع الليلة؟!.. اني لا احتمل صرخاته.. هي كجنون معد بالضبط» ازداد خوفي فهمست

- «انك لا تعلم اية صرخات يطلق.. يمكن ان يفقد الانسان منها صوابه.. خصوصا في الليل»

- «اذن، عد لغرفة السجناء»

- «لا يمكن. فهناك جنون من نوع اخر»

- «في الحالة هذه لم يبق الا ان تطلب منهم اغلاق الباب في الليل ثم تسد اذنيك بقطنة وتنام»

- «لماذا يعتقلون رجلا مجنونا في زنزانة موقف.. ويضعونه بجواري؟!»

مط شفاهه. لم يعرف. كما لم يعرف لماذا كتب عليه ان يقضي اكثر من اربعة اعوام اخرى في هذا الموقف بالذات. ولماذا سجنتم انا.. ولماذا عذبت.. ولماذا الجدران ما عتمت منتصبه في كل شبر من كرتنا الارضية؟!.. وقلت لنفسي «قد يأتون لأخذ المجنون قبل حلول الليل» واستغربت ان يهدأ جنونه نهارا حتى يغدو في صمت الموت.. فهل كان النور يعيد صوابه له، والليل يسلبه من رأسه؟!.. ثم عدلت عن الاستغراق في اسئلتي، اذ كانت مذ الفيت نفسي داخل القضبان تلقى في عالم مصمت. وخشيت ان تبقى كذلك بعد ان سأواجه الدنيا، فذلك سوف يبدد عمري وسيجعل منه مجموعة اسئلة جبارة مضنية كعبء غير مطاق. وعملت بنصيحة محمد، فطلبت من الخفير الليلي ان يغلق خلفي باب الزنزانة، وحشوت اذني بشياي ثم حاولت ان اهجع. الليلة، وليلة غد، ثم من بعدها الدنيا!..

وتقلبت فوق حشية القش اليبس القذرة التربة، انهدل وجهي منزلقا نحو ارض الزنزانة. لامسها. برد وتراب وعفونة على الارض المومس الشمطاء. نزعت وجهي عنها. انفها راغم وانف كوبي ايضا. وتراءى المجنون فجأة، لي في الصمت. فانطلقت في رأسي اصداء صرخاته المعتوهة، ولذت الى ذراعي ودفت هذا الرأس المطنون بينهما. وبقوة اطبقت ساعدي على كلتا اذني. وعدت احلم بوجوه باشة تبسم لي. وكان دمع الفرحة يبللها ويعدي عيني. وترطب وجهي بعبرات حقيقية لم تكن مجرد عبرات الفرحة. بل عصارة ما مرو وما سوف يأتي.. الحزن والالام والخوف، والبهجة والطمأنينة والغلبة.. ببساطة كل

الاشياء. لقد كانت الفرحة مشوبة ما فتأت بعكارات حزن يكمن ظله في اعماقي، وكان ما عتم يغرف من امواج فرحي بمصيري، فيبددها فوق ارض جدباء مهالكة للهاء، فتضيع عليها في غرة من امري. ثم انهار كل ما مر بي، في دفعة ظالمة، فتكوم قدامي، تلاً يحجب عني المستقبل القادم بالفرحة، ويجلعي اجهش كالطفل. كان كياني مليئاً بأطنان سموم من صنع ماضي هذا النكد الذارف الان اخر انفاسه على قاع الزلزلة هذه. وكانت جثته المحتضرة في جوفي قاسية الحمل، محسوسة بعنف وتنغص صفوي، الا اني بعد ان اغرقت مرتبة القش اليابس بدموعي سرى عني. وكانت الان رائحة العطن الرطبة تندس بمناخيري كأجراس موقظة من نوم لم اعثر بعد عليه. وأرقت. وتقلبت المرة تلو المرة. كانت ضلوعي ترتطم بنتوءات صلبة في المرتبة الجافة فتططق وتنبعث منها الام خرساء. وتضايقت. واشتقت لمحمد، وادته ليواسي سهادي وليلجم بحديثه الطيب صوت الوسواس المتعالي ثانية في صدع ذاتي. بيد ان محمداً كان لا ريب الان يغط في نوم اطفال تحرسها ملائكة بيضاء. كيف يمكنني ان انفذ داخل عالمه الخالي من تعقيدات الفكر وجرائمه؟! ان في عالمه، رغم مأساته، سهولا منبسطة من غير وهاد وهضاب. وهو يخترق الصخر الطاريء قدامه ببساطة اسطورية، فكيف يفلح في هذا؟! وتضخم اعجابي به، من دون ان افلح في الكشف عن سر صموده، رغم تنقيبي عن هذا السر عبثاً، بين طيبة هذا الرجل وسذاجته المتناهية البالغة احياناً حد الحمق. وغبطته لكني لم البث ان عدت ورثيت له. ورثيت لأمي ولكل من عانى من اجلي. وحضرتي طيف الجدة. لقد فاضت روحها وهي تبحث عني في جنبات الغيب، ولم ادر ان كانت روحها قد اكتشفتني من بعد، في هذا الثقب الدنس المعزول عن كل العالم. مع ذلك كنت آنس بسكينته تحت رفيف اجنحة هذا الروح الطاهر، وعندئذ يكف طنين كل الاجراس، وتغيب الافكار فتلاشي رويدا معها في ذرات النوم المنشود.

ثم في تلك الليلة وقع الزلزال.

كان اقوى زلزال يدهم الكون. في جبروته يتواقع كل منتصب قائم في العالم. لكن احداً غيري في هذا العالم لم يشعر به. كان زلزالي وحدي. في اعماق الليل ينسل الي بفضافة. ايقظني من نومي. راح يهز اعطائي كأرجوحة. وسمعت في البدء صوته المجتاح. الصرخة العاوية المنبعثة من لا عقل الانسان. وفتحت عيوني مرتجفا كالسعفة. ورأيت. كان ينتصب فوقي. وعيونه في ضوء الزلزلة الاصفر كعيون الرعب تماماً. يشرب عقلي.. يأكل صوابي. وخلاياي تتراقص كالطير المذبوح. تصطق بي احشائي واعضاءي وامعائي. يتفتت كياني. وهو يحلق بي. ويداه مفتوحين وتنخفضان نحو عنقي مثل طرفي كماشة. وعاد وصرخ. خرجت روحي مع لهثاتي. حاولت بمجاراته بالصوت، تكسر صوتي في حلقي مع كل اطرافي.. ويداه تقتربان وعيناه.. يسحقني الخوف.. تشربني العينان.. تطمسني الرعدة.. «اصرخ..! استنجد..!».. ودفعت الصوت الميت. لا جدوى.. «انهض..!» خرقه ملقاة تحت اقدام الاعصار الكاسح.. لا تملك ان تهرب منه.. لا تملك ايقافه..

«تلك حياتك ستضيع».. فوقى الف هوة مفتوحة الحلق.. تتقدم نحوي.. تطبق ثم تطبق اكثر.. وتحملت اخرى على اشلائي.. وتململت.. الصرخة انطلقت من تحت انفاضي وركامي.. وتململت اخرى تحت الانقاض.. وعندئذ تراجعت الاشداق المفتوحة من حولي.. الرجل المجنون تراجع، وبطرفة عين غاب.

عدت في الزنزانة وحدي.. غالبت الزوبعة والزلال.. كان يفريني الرعب.. تبعثري الرجفة.. اسمع وقع رنين تداعي روحي.. انصت لتلاطم اسناني.. والباب مفتوح غير مغلق.. يفضي الى لا شيء.. الا الخوف والرجفة الطوفانية.

كلا!.. وكان يتجاذبني رعبان.. رعب من كل الاشياء، والرعب في ان افقد كل تلك الاشياء.. اني ما زلت استجدي حياتي من جيب الزوبعة والزلال.. كيف اوقف هذه الدوامة المحتدمة الهوجاء؟!.. كيف تهدأ الهزة المنفلتة من كل ضابط؟!.. وهي تذبذبني بضراوة وبعنفوان تتدحرج بعيدا عني كل مقاومة بي.. مرة اخرى حاولت ان استنجد.. والباب المفتوح مسدود في وجهي.. هل سيعود المجنون؟!.. وضغطت بتهالك على فئات وجودي المنساب مع امواج بحر فوار.. الباب!.. ليس ثمة قضبان فيه.. والشر هناك، وراء الفتحة المتربصة بي.. كل الشر.. العالم كله.. والزوبعة تأتي.. من ثم، جاء الزلال.. والرجل المبعوث.. وكوبي.. والاعوان.. وحواجز الدم....

الباب!.. كيف اقتحم هذا الحاجز المنهار، ووراءه تكمن مأساتي؟!.. رعبي.. حطام حياتي.. امالي المشنوقة.. وجه العالم البعيع المسخ؟!..

الباب!.. كيف فتحوه وهو مغلق؟!.. وادوخ في احضان الزلال.. هذا الموت البشع كيف اهرب منه؟!.. وتذكرت محمدا.. وكان بيني وبينه الاف فراسخ مبثوث فيها كل الغام العالم.. بيني وبينه، حتفي هذا ومصيري التعس البائس.. هل اتحدى موتي؟!.. الرحمة!.. ومحمد يهجع كالطفل، وانا بين انياب الطاحونة وهي تدور.. والباب مفتوح، وشرير ومجرم.. وحصار من حولي مصنوع من الف حاجز؟!.. كيف اتخطى الالف حاجز؟!.. كنت اتهالك.. اطلب الاشياء الساقطة من بين يدي.. في اعماق اعماق حطامي كانت تتمرغ الرغبة المسكينة.. رفض ضياع كل الاشياء، وتكاشفي في الظل.. يتجبر في الرعب الاخر.. أفقد عقلي.

كلا.. اخيرا غامرت.. بأرادة جازفت بأخر انفاس حياتي، وبظل من رغبة غريزية لا تستسلم.. ومع الزلال مرقت الى خارج الزنزانة.. وبمينا اسرعت بالزوبعة المسعورة.. ثم يسارا قرب المرحاض.. كان محمد يرقد كالاطفال.. تماما كالاطفال.

- «محمد»-

كانت متفتتة ايضا.. الف شظية.. كررت ندائي.. استيقظ مذعورا

- «بسم الله الرحمن الرحيم»-

- «محمد.. اني ارتجف كالسعة.. المجنون!.. جاء الي المجنون»-

هو ايضا كالمجنون.. هب.. امسك بي.. الرعدة لفرائصه انتقلت.. ظل يضغطني.. كانت

الرعدة اقوى من سواعده المفتولة
- «اهدأ»

حاولت. تبلعت ريقى. ريقى ضائع ولساني خرقه. وفكوكى تصفق دون هواده.
- «ماذا دهالك؟»

- «انى خائف.. ليس بي الا الخوف»
- «اقعد!»

دثرنى بالبطانية حين جلست.
- «سأجلب لك ماء»

وجمعت اشتات كلماتي

- «جد لي سيجارة. هذه الرعدة السملعونة تدمرني»
- «اهدأ. سأجد لك كل شيء.. اللعنة!»

شربت السماء. غص السماء في حلقي. الكأس اهتزت بين يدي. ودخنت السيجارة. وشهقت
مرات. كانت تلك اول مرة. بأي ثمن كنت اريد التخلص من هذا الزلزال.

- «تبدو احسن حالا.. الرعدة زالت.. نم بجواري»
لم انطق. الرعدة خفت فعلا.. او هبطت للأعماق.
- «هل انت بخير الان؟»

حاولت ان اعرف لأجيبه. ابتعد الزلزال والعاصفة مرت، لكنهما قذفاني الى مكان اخر
مجهول. كنت في غير هذا العالم.. منعزلا حتى عن هذا الرجل الطيب وهو يحميني بيديه
وبعينيه وبروحه وبوجدانه. ما من اشياء ابدا. مفقودة كل الاشياء وتروعي.. وانا غريب..
والكائنات غريبة وزجاجية لا تنفذ في ادراكي.. ينفر منها احساسى. موت كان هناك.
بشعوري او في السموجودات.. يفصلنا حاجز شفاف لكنه بلوري عازل. ودعوت امسى
فلم يحضر.. واستدعيت غدي فأبى ان يأتي.. وارتدت ان احتضن حبي لهذا الانسان.. ان
ابعث هذا الحب لامي.. اخواني.. الاشياء الطيبة المنتشرة على سطح الارض.. الا انى لم
اعثر على هذا الحب.. وارتدت ان اكره.. كويي.. لعنة الانسان الاحمق.. تشعة اعشار
البشرية.. اخفقت كذلك.. وتفانيت في البحث.. عن امسى.. وغدي.. عن حبي.. عن
بغضائي.. عن غضبي.. عن امالى.. عن كل الاشياء.. وكانت برمتها ضالة.. مفقودة.. الا
هذا الشيء الملتهم الشره الاعمى المجنون.. الرعب!

الخاتمة

قام. اغتسل. تجول. حرق في وهج الشمس. فكر في الامس. في المستقبل. في الاصحاب. في نفسه. في كل الاشياء لا جدوى. احساساته جامدة في اعطافه، راقدة رقدة اموات. ابدا لا شيء يثيره. وكان يتعذب ويخاف. جدار من بلور عازل ومتين يفصل بينه وبين قوة الاشياء. هذا الصد الشامخ حذو شعوره. وجفل

- «اني لا انفعل باي شيء.. فقدت الحس.. فقدت الحس!»
ورمقه محمد برثاء، وابتلعتة النظرة

- «هذا من اثر الصدمة ليلة امس. المجنون افزعك عليه اللعنة. كل هذا سيزول بمجرد ان تترك هذا المكان المأفون.. عانيت كثيرا. لكنك ستنسى.. اقسم لك»
هذا القسم الجزاف!.. حتى هو لم يلق صدى في نفسه. اين حماسه؟!.. فرحته بالحرية الزاحفة نحوه بثبات؟!.. الحب العارم الصادي منطفيء في اعماقه.. الغضب ايضا مات. لا شيء هناك.. الا الحاجز.. هذا الحائط البلوري العازل

- «شعوري مات.. فقدت الاحساس بالاشياء»
كان كوبي يتفحصه في خبث وتشف. استدعاه ليقول له شيئا، لكنه بادر كوبي بشكواه.. استنجد به. فحين يفقد المرء احساساته تتساوى عنده كل الاشياء حتى اصناف البشرية. وقال كوبي

- «ولهذا سأفرج عنك اليوم»
رغم حاجز البلور ارتبك. وظل رعب الامس تذبذب وارطم بجداره.. تتمم بتوسل
- «غدا سيأتون لأخذي»

وفي عيني كوبي انفجرت الهوتان المظلمتان
- «انت ما زلت تكرهني.. اليس كذلك؟!»

حاول ان يغضب. لقد بر كوبي بوعده لنفسه. كوبي حقق فيه مآربه. «اخر ايامك».. وهو يريد ان يكره.. ان يصرخ.. والرعدة في اعماقه تصطدم بحاجزه الجديد.. تظل حبيسة.. لا تنفذ.. تنعقد ضيقا.. تغدو في ذاته حزنا مردودا مكبوتا.. مكتوما لا يفصح. عيناه تغروران. يفتور بهمس

- «اني اخافك.. واخاف الدنيا»
ضحكة تطن في اذنيه، ولا تتعداها

- «حسنا. ساطلق هذه الدنيا في وجهك.. انت حرا»
- «انت اطلقت المجنون في وجهي ليلة امس»

- «انك انت المجنون وتخرف.. اذهب فانت طليق!»

وسلمه الساعة ودراهمه وثيابه. يوم واحد قبل الموعد. يوم واحد. مقابل احساسه ومقابل حبه ومقابل الدنيا. وقال «ستفاجأ امي» وتوقع ان تحتاح كيانه هزة بهجة.. ان ترقص كل اعطافه، لكن شيئا من هذا لم يحدث. وعيناه اهملت.. لماذا يحدث هذا؟!.. لماذا كوبي يصنعه صخرة.. ويحمد احساسه.. ويغرس في نفسه افطع الجدران البشرية؟!.. في الخارج كانت الزحمة. وكان الناس.. وكانت الاصوات. الالوان ايضا كانت وبكثرة.. وروائح من كل الاصناف.. وهو كالنائم يمشي. وحده. في صحراء جرداء موحشة. حتى ولا حشرة تزحف فوق الارض. والوقت ظهيرة. والساعة في معصمه جديدة. وثيابه ثياب بشرية. وهذا الباص سوف يقصيه عن بؤرة الرجس وسيدنيه من امه.. ومن البشرية «البارة». احبابه. ومن من أجله عانى.. ومن افلح في ان يعتقه، بعذابه وكوابيسه، من مصيدة الجرذان. «الفاظ».. «كلمات».. كلمات فقدت معناها. ليست متمكنة من نفسه بعد. غير قابلة لان تفعل فيه فعل هذه المخلوقات.. «اني فقدت احساسي.. لا اشعر ابدا».. آلة وتسير على الارض. والباس يمشي جنوبا.. جبال من طرفيه ووديان.. وقدامه جبل يبتلع الكون.. والصفحة الزرقاء ممتدة على مرمى العين.. بقع وتراب وحفر. القفر. واللطخة السماوية اللون، سراب. دم ازرق محجوم من شريانه مبصوق هنا بالقرب من الحصن الاصفر. ولون القمي الاصفر المتميع الرغوي هناك. في جذر التينة. معسكر تجميد ارواح يديره «انسان» يدعى كوبي. وهو يهرب. باستمرار يهرب. والباس بجنون يعدو.. ويقصيه. تبتعد عنه هناك، جريمته الفذة، الصفراء. وهنا في اعماقه جريمة.. من بلور.. من ماس.. صلبة بيضاء متوهجة.. جدار شامخ. وقال كوبي ونفذ.. زرع الحاجز فيك.. حاجز الموت، قبل ان «يطلقك» في وجه حواجز الموت الاخرى.. وتفاقم فيه ضيق ضال. كانت احساساته تحتقن داخل نفسه. يبحث عن نسمة.. عن نفحة دفة. شرارة نور. الساعة تلو الساعة. وسهول ومروج خضراء.. الزيف!.. زيف الدنيا.. زيف الاحياء.. الاحمر المطلي بالاخضر.. الاسود مطلي بالاخضر.. الموت يتبختر بقناع حياة زاهرة بالفرحة. وانا ميت.. ايضا صبغوني بالزيف.. بالحرية.. ابدو حيا يرزق بين الاحياء والاموات.

وصل الباص. هبط. ركب باصا اخر. بعد قليل!.. بعد قليل سينجاب النور. كوخ خشبي متواضع سيزغرد له. وستضحك ماق مضمخة بالعبرات. ستعود سعادة مفقودة. «وانا وحدي.. دمية مطاطية جامدة فارغة الجوف.. لكنها مع ذلك تبكي من غير احساس» نزل من الباص الاخر. سيعبر التربة. سيتخطى حقل الشوك اليناع، ثم يصبح في الكوخ. كان يمشي. يسمع دقات قلبه في راسه تنهمر مثل قطرات تتساقط فوق بساط تنكي. حين القلب يخفق خفقاته المزهقة هذه، فيقينا ان احساسا ما يوجد معها. ادرك ان هذا الاحساس كائن، لكنه خلف الحاجز البلوري. بدخيلته امتدت قبضة روحانية. راحت تضرب جدار الحاجز.. فليتحطم!.. والقبضة خارت وتهافت. ويعسر انتزع من صدره

صخرة، ثم جاست عيناه وتوقف. تلك هي!.. «الغولة».. اول من يلقاه هنا، بعد خروجه الى «الدنيا». بينهما الترفة. بالصدفة رآها وتوقف. متسمة كانت خلف الترفة وتضحك له. شاهد فيها ما كان يراه قبل حلول اللعنة.. هي تضحك له. لا تخدعه عيناه. لو اقترب منها فستمسح عن وجهه بصقتها.. خلف الترفة تتكوز شفتاها كالسابق. كالماضي تماما. وكاحلامه في الزنزانة. وتوقف. ساقط الوجه وتهمة اجهاشة ان تقتحم عينيه. قهر الاجهاشة بعناد. فلماذا اذن يخفق في قهر حاجزه البلوري الشفاف؟!.. اللعنة؟!.. تلقائيا انحرف عنها. لا شك يهرب.. أفكان يكرهها؟!.. هل في نفسه ما زال شيء لها.. عليها؟! سامحها؟!.. لم يغفر لها؟!.. كيف يعلم.. وهو ما انفك يردد «لا اشعر.. اني فقدت الاحساس بالاشياء».. وكان يهرب.. ويواصل هربه.. منها.. الى كوخ اهله.. عبر رحلة متعثرة.. وعرة.. موحلة.. وطويلة.. لم يبق منها غير كوبي والحاجز البلوري. وكان يخاف من هذا كله لكنه لا يشعر أبدا بهذا الخوف..

نهاية الرواية

كتب صدرت للمؤلف

الخطأ (مجموعة قصصية) القدس، ١٩٧١

■ حكاية كل زمان ومكان (قصص) القدس، ١٩٧٨

■ أنا وهؤلاء والفصام (قصص عراقية) القدس، ١٩٧٨

■ الجنوح والانسحاب (٣ مسرحيات) شفاعمرو، ١٩٧٩

■ يوم حبلت واجهضت الدنيا (قصص عراقية) القدس، ١٩٨٠

[حاز هذا الكتاب على جائزة رئيس الوزراء للأبداع الأدبي العربي لعام ١٩٨١ ونشرت
ترجمته العبرية عام ١٩٨٥]

■ في غيابه (مسرحية في ٣ فصول) شفاعمرو، ١٩٨١

■ عندما تسقط اضلاع المثلثات (قصة عراقية) شفاعمرو، ١٩٨٤

[حاز هذا الكتاب على جائزة رئيس الوزراء للأبداع الأدبي العربي لعام ١٩٨٥]

■ نزولُه وُخيط الشيطان (رواية عراقية) القدس ١٩٨٦

■ قُوّة يا دم (نوبيل عراقية) القدس، ١٩٨٧

■ الرجس — رواية — القدس ١٩٨٧

كتب تحت الطبع

□ عورة الملائكة (رواية)

□ المقرورون (مسرحية)



